① التفسير

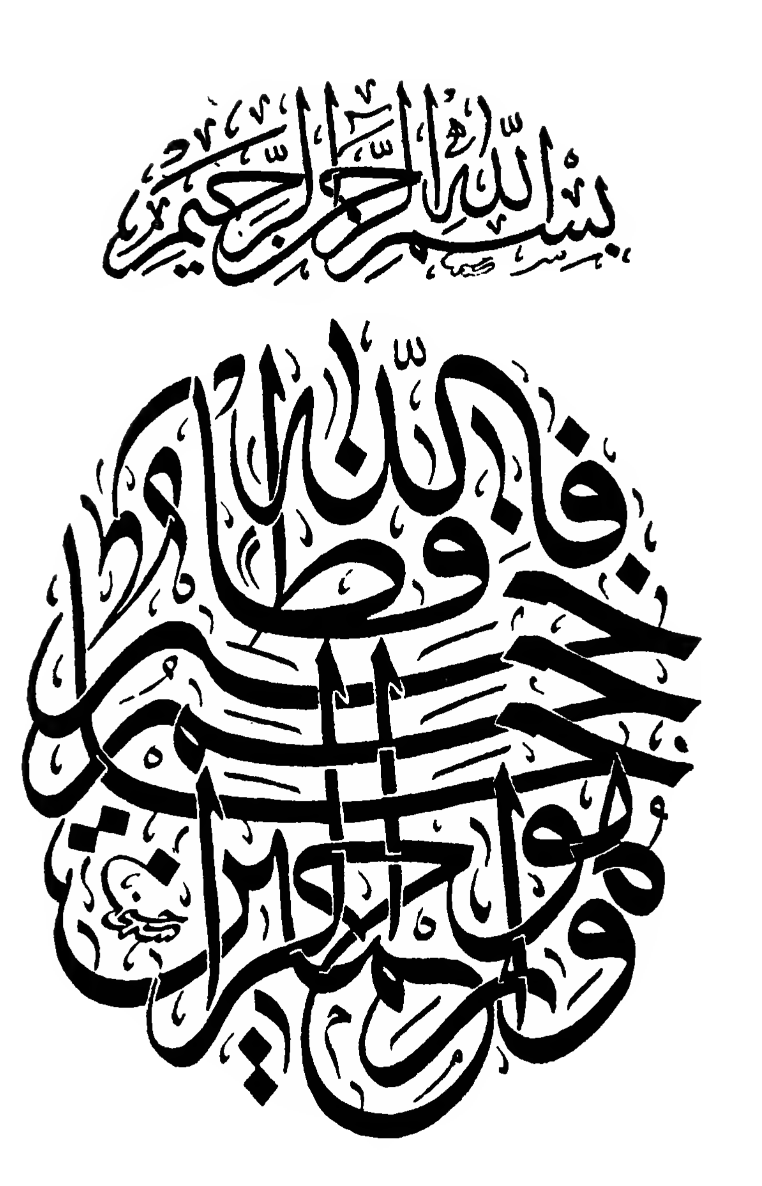
المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الأول

فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م


بسم الله الرحمن الرحيم
فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

مقـــدمة الناشر

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعد: ـ فإن خدمة كتاب الله وتعلمه وتعليمه من أعظم القربات، وأجزلها مثوبة عند الله. كيف لا؟! وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، فجدير بالمسلمين أن يتمسكوا بمبادئه السامية، ويتحلوا بآدابه الكريمة سلوكاً ومنهجاً..؟!

ولقد تنافس علماء السلف قديماً وحديثاً في تفسير هذا الكتاب وصار لكل منهم منهجه الخاص في ذلك ـ جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ومن أوضح تلك التفاسير، وأقربها فهماً على طلاب العلم، تفسير العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الموسوم بـ«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

فلقد أجاد فيه رحمه الله وانتهج منهجاً وسطاً بين التطويل الممل، والتقصير المخل، فكان بذلك مطابقاً لاسمه لفظاً ومعنى.

وقد قام بتصحيحه وتحقيقه وضبط كلماته الشيخ محمد زهري النجار من علماء الأزهر.

وحيث أن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وهي رائدة الدعوة في هذه البلاد قد سعت إلى إعادة طبع هذا الكتاب وتوزيعه تقديراً منها لأهميته، وعظم شأنه، وكما هو شأنها في العمل على كل ما من شأنه خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق نشر كتب التراث وكذلك الكتب الحديثة التي تهتم بأمور الإسلام والذود عنه وتوضح مبادئه وتشرح قضاياه علاوة على ترجمة وطباعة الكتب الإسلامية بلغات أجنبية عديدة من أجل تيسير فهم الإسلام ونشره في أنحاء المعمورة.

ولهذا فقد قررت ـ الرئاسة ـ طباعة هذا الكتاب على نفقتها وتوزيعه مجاناً على

طلبة العلم وذلك بعد أن حصلت على موافقة خطية من ابن المؤلف الشيخ عبدالله ابن عبد الرحمن السعدي.

وقد ندبت مجموعة من العاملين لديها لتصحيح بعض أخطائه المطبعية وإظهار بعض الكلمات الخفية التي قد أثر عليها طول الزمن وذلك مساهمة منها في نشر العلم.

والرئاسة إذ تقدم هذا الكتاب في طبعته الجديدة لترجو من المسلمين أن يهتموا بنشر تراثهم في كافة أنحاء العالم مساهمة منهم في نشر الدعوة. نسأل الله تعالى أن يعيد مجد المسلمين وعزهم إنه جواد كريم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرئاسة العامة
لإدارات البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد

ترجمة المؤلف

بقلم أحـــد تلاميذه

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدى من قبيلة تميم ، ولد في بلدة عنيزة في القصيم ، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية ، وتوفيت أمه وله أربع سنين ، وتوفي والده وله سبع سنين ، فتربى يتيماً ، ولكنه نشأ نشأة حسنة ، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم ، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب ، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة ، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم ، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك ، حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعاً إليه ؛ ومعول جميع الطلبة في التعلم عليـه .

بعض مشايخ المؤلف

أخذ عن الشيخ ابراهيم بن حمد بن جاسر ، وهو أول من قرأ عليه ، وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث ، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم ، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه ، وقلة ذات يده رحمه الله ، ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل ، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما ، ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية ، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رحمه الله ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عايض ، ومنهم الشيخ صعب القويجري ، ومنهم الشيخ علي السناني ومنهم الشيخ علي الناصر أبو واداي ، قرأ عليه في الحديث ، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك ، ومنهم

الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع (مدير المعارف في المملكة العربية السعودية) في وقتنا الحالي ، وقد قرأ عليه المؤلف في عنيزة ؛ ومن مشائخه الشيخ محمد الشنقطي (نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير) لما قدم عنيزه وجلس فيها للتدريس قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية ، كالنحو والصرف ونحوهما .

نبذة من أخلاق المؤلف

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير ، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً ، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها ، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية ، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه ، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى ، وكثيراً ما يحل المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل ، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات ، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله ؛ وكان من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً ، مرتباً لأوقات التعليم ، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم ، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون ؛ وكل من حفظه أعطى الجعل ولا يحرم منه أحد . ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة ، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم ، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال ، لأنهم يتلذذون من مجالسته ، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير ولا يزال كذلك ، متع الله بحياته ؛ وبارك الله لنا وله في الأوقات ورزقنا وإياه التزود من الباقيات الصالحات .

مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه ، أصوله وفروعه . وفي أول أمره متمسكاً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشائخه ، وحفظ بعض المتون من ذلك ، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه ، نظم رَجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحاً مختصراً ، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقدُه أولا .

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الاسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم ، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة ، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي ؛ بل يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعي . ولا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوسين ، هدانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين . وله اليد الطولى في التفسير ، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه ، وألف تفسيراً جليلا في عدة مجلدات ، فسره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره ، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسره ارتجالا ، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده ؛ ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة ، حتى أن سامعه يود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص ، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات ، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه .

مصنفات المؤلف

١ - تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان» في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع .

٢ - حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي . ولم تطبع .

٣ - إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبه على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً .

٤ - الدرة المختصرة في محاسن الاسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ هـ .

٥ - الخطب العصرية القيمة ، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً .

٦ - القواعد الحسان لتفسير القرآن ، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ . ووزع مجاناً .

٧ - تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القصيمي في أغلاله ، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقه وجيه الحجاز «الشيخ محمد افندي نصيف» عام ١٣٦٦ .

٨ - الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين .

٩ - توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم .

١٠ - وجوب التعاون بين المسلمين ، وموضوع الجهاد الديني ، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً .

١١ - القول السديد في مقاصد التوحيد ، طبع في مصر « بمطبعة ا الامام » على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧ .

١٢ - مختصر في أصول الفقه ، لم يطبع .

١٣ - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن . طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين ، وزع مجاناً . طبع بمطبعة الامام .

١٤ - الرياض الناضرة ، وهو هذا - طبع بمطبعة الامام (الطبعة الاولى).

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها ، وله تعليقات شتّى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً . ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور ؛ وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلا فرآه شاقاً عليه؛ فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له ؛ ولهذا لم نعده من مصنفاته .

غايته من التصنيف :

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا ينال منها عرضاً زائلا ، أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً ، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

وفاته :

وبعد عمر طويل دام قرابة ٦٩ عاماً في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربه في عام ١٣٧٦ هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رحمه الله رحمة واسعة .

تنبيـــه

اعلم أن طريقتى فى هذا التفسير أنى أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها ، ولا أكتفى بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة ، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه « مثانى » تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة ، وأمر بتدبره جميعه لما فى ذلك من زيادة العلوم والمعارف ، وصلاح الظاهر والباطن ، وإصلاح الأمور كلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ، والسعداء والأشقياء ، والحق والباطل .

وجعله - برحمته - هدى للناس عموماً ، وللمتقين خصوصاً - من ضلال الكفر ، والمعاصى والجهل ، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم .

وأنزله شفاء للصدور ، من أمراض الشبهات والشهوات ، ويحصل به اليقين والعلم ، فى المطالب العاليات ، وشفاء للأبدان من أمراضها ، وعللها ، وآلامها ، وأسقامها .

وأخبر أنه لا ريب فيه ، ولا شك ، بوجه من الوجوه ، وذلك لاشتماله على الحق العظيم ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

وأنزله مباركاً ، فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير ، والأسرار البديعة ، والمطالب الرفيعة .

فكل بركة وسعادة تنال فى الدنيا والآخرة ، فسببها الاهتداء به واتباعه .

وأخبر أنه مصدق ومهيمن ، على الكتب السابقة .

فما شهد له ، فهو الحق ، وما رده فهو المردود لأنه تضمنها وزاد عليها .

وقال تعالى فيه : [يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام] .

فهو هاد لدار السلام ، مبين لطريق الوصول إليها ، وحاث عليها ، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها .

وقال تعالى مخبراً عنه : [كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير] .

فبين آياته أكمل تبيين ، وأتقنها أى إتقان ، وفصلها بتمييز الحق من الباطل ، والرشد من الضلال ، تفصيلا كاشفاً للبس ، لكونه صادراً من حكيم خبير .

فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين ، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر . ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية .

وأقسم تعالى بالقرآن ، ووصفه بأنه « مجيد » والمجد : سعة الأوصاف وعظمتها ، وذلك لسعة معانى القرآن وعظمتها .

ووصفه بأنه « ذو الذكر » أى : يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ، ويتعظ به من يخشى .

وقال تعالى : [إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون] ، وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه ، وأمرنا بتدبره ، والتفكر فيه ، والاستنباط لعلومه .

وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير ، محصل للعلوم والأسرار .

فلله الحمد والشكر والثناء ، على أن جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً ، وتبصرة وتذكرة ، وعبرة وبركة ، وهدى وبشرى للمسلمين .

فإذا علم هذا ، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها :

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه فى تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك .

وقد كثرت تفاسير الأئمة ، رحمهم الله ، لكتاب الله .

فمن مطول خارج فى أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مقتصر ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية ، بقطع النظر عن المراد .

وكان الذى ينبغى فى ذلك ، أن يجعل المعنى ، هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه.

فينظر فى سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره ، فى موضع آخر ؛ ويعرف أنه سبق لهداية الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم .

فالنظر لسياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه ، وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته ، وفهم المراد منه .

خصوصاً إذا انضم إلى ذلك ، معرفة علوم العربية ، على اختلاف أنواعها .

فمن وفق لذلك ، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر فى ألفاظه ومعانيه ، ولوازمها ، وما تتضمنه ، وما تدل عليه ، منطوقاً ومفهوماً .

فإذا بذل وسعه فى ذلك ، فالرب أكرم من عبده ، فلا بد أن يفتح عليه من علومه ، أموراً لا تدخل تحت كسبه .

ولما منّ البارى علىّ وعلى إخوانى ، بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا ، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ، ما تيسر ، وما من به الله علينا ، ليكون تذكرة المحصلين ، وآلة للمستبصرين ، ومعونة للسالكين ، ولأقيده(١) خوف الضياع .

ولم يكن قصدى فى ذلك ، إلا أن يكون المعنى ، هو المقصود .

ولم أشتغل فى حل الألفاظ والعقود ، للمعنى الذى ذكرت .

---

(١) كذا فى الأصل والصواب أن يقال : « وقيدته » .

ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

والله أرجو ، وعليه أعتمد ، أن ييسر ما قصدت ، ويذلل ما أردت ، فإنه ، إن لم ييسر الله ، فلا سبيل إلى حصوله ، وإن لم يعن عليه ، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله .

وأسأله تعالى ، أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع العميم ، إنه جواد كريم . اللهم صل على محمد .

فوائد مهمة ــ تتعلق بتفسير القرآن

من

بدائع الفوائد

لابن القيم رحمه الله تعالى

(فصل)

قال : النكرة فى سياق النفى تعم ، مستفاد من قوله تعالى : [ولا يظلم ربك أحداً ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين] .

وفى الاستفهام من قوله تعالى : [هل تعلم له سمياً] .

وفى الشرط من قوله : [فإما ترين من البشر أحداً] .

[وإن أحد من المشركين استجارك] .

وفى النهى من قوله تعالى : [ولا يلتفت منكم أحد] .

وفى سياق الإثبات ، بعموم العلة والمقتضى قوله : [علمت نفس ما أحضرت] .

وإذا أضيف إليها « كل » نحو [وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد] .

ومن عمومها بعموم المقتضى [ونفس وما سواها] .

(فصل)

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله : [إن الإنسان لفى خسر] وقوله : [ويقول الكافر] .

وعموم المفرد المضاف من قوله : [وصدقت بكلمات ربها وكتبه] ، [وكتابه] .

قرأ أهل البصرة وحفص [وكتبه] على الجمع .

وقرأ الآخرون [وكتابه] على التوحيد .

وقوله : [هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق] والمراد جميع الكتب التى أحصيت فيها أعمالهم .

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله : [وإذا الرسل أقتت] .

وقوله : [وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم] .

وقوله تعالى : [إن المسلمين والمسلمات] إلى آخرها .

والمضاف من قوله : [كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى : [فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً] .

وقال : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره] .

وقال : [وما تفعلوا من خير يعلمه الله] .

وقوله : [أينما تكونوا يدرككم الموت] .

وقوله : [وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره] .

وقوله :[وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم] .

وقوله: [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة] هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين .

فإن كان خبراً ماضياً ، لم يلزم العموم كقوله: [وإذا رأو تجارة أو لهواً انفضوا إليها] [إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله] .

وإن كان مستقبلا ، فالتزموا رد العموم كقوله تعالى : [وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون] .

وقوله : [وإذا مروا بهم يتغامزون] وقوله : [إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون] .

وقد لا يعم كقوله تعالى : [وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم]

(فصل)

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب ، من ذمه لمن خالفه ، وتسميته إياه عاصياً ، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل .

ويستفاد كون النهي للتحريم ، من ذمه لمن ارتكبه ، وتسميته عاصياً ، وترتيبه العقاب على فعله .

ويستفاد الوجوب ، بالأمر تارة ، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب ، ولفظة « على » ، ولفظة « حق على العباد وعلى المؤمنين » .

ويستفاد التحريم من النهي ، والتصريح بالتحريم والحظر ، والوعيد على الفعل ، وذم الفاعل ، وإيجاب الكفارة بالفعل .

وقوله : « لا ينبغي » فإنها ـ في لغة القرآن والرسول ـ للمنع عقلا وشرعاً .

ولفظة « ما كان لهم كذا وكذا » و « لم يكن لهم » ، وترتيب الحد على الفعل ، ولفظة « لا يحل » و « لا يصلح » ، ووصف الفعل بأنه فساد ، وأنه من تزيين الشيطان وعمله ، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده ، ولا يزكي فاعله ، ولا يكلمه ، ولا ينظر إليه ونحو ذلك .

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير ، والأمر بعد الحظر ، ونفي الجناح والحرج ، والإثم والمؤاخذة ، والإخبار بأنه يعفو عنه ، والإقرار على فعله في زمن الوحي ، وبالإنكار على من حرم الشيء ، والإخبار بأنه خلق لنا

كذا وجعله لنا ، وامتنانه علينا به ، وإخباره عن فعل من قبلنا ، غير ذام لهم عليه .

فإن اقترن بإخباره مدح ، دل على رجحانه ، استحباباً ، أو وجوباً .

(فصل)

وكل فعل عظمه الله ورسوله ، أو مدحه ، أو مدح فاعله لأجله ، أو فرح به ، أو أحبه ، أو أحب فاعله ، أو رضى به ، أو رضى عن فاعله ، أو وصفه بالطيب ، أو البركة ، أو الحسن ، أو نصبه سبباً لمحبته أو ثوابه ، عاجلا أو آجلا ، أو نصبه سبباً لذكره لعبده ، أو لشكره له ، أو لهدايته إياه ، أو لإرضاء فاعله ، ووصف فاعليه بالطيب ، أو وصف الفعل بأنه معروف ، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله ، أو وعده بالأمن ، أو نصبه سبباً لولايته ، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله ، أو وصفه بكونه قربة ، أو أقسم به أو بفاعله ، كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله ، أو عجبه به ـ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

(فصل)

وكل فعل طلب الشارع تركه ، أو ذم فاعله ، أو عاب عليه ، أو مقت فاعله ، أو لعنه ، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله ، أو نفى الرضا به ، أو الرضا عن فاعله ، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين ، أو جعله مانعاً من الهدى ، أو وصفه بسوء أو كراهة ، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه ، أو جعل سبباً لنفى الفلاح ، أو لعذاب عاجل أو آجل ، أو لذم أو لوم ، أو ضلالة أو معصية ، أو وصفه بالخبث ، أو رجس ، أو نجس ، أو بكونه فسقاً أو إثماً ، أو سبباً لإثم أو رجس ، أو لعن أو غضب ، أو زوال نعمة

أو حلول نقمة ، أو حد من الحدود ، أو قسوة ، أو خزى ، أو ارتهان نفس ، أو لعداوة الله ومحاربته ، أو الاستهزاء به وسخريته ، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله ، أو وصف نفسه بالصبر عليه ، أو الحلم عنه ، أو الصفح ، أو دعا إلى التوبة منه ، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار ، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه ، أو تولى الشيطان لفاعله ، أو وصفه بصفة ذم ، مثل كونه ظلماً أو بغياً ، أو عدواناً أو إثماً ، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله ، أو شكوا إلى الله من فاعله ، أو جاهروا فاعله بالعداوة ، أو نصب سبباً لخيبة فاعله ، عاجلا أو آجلا ، أو رتب عليه حرمان الجنة ، أو وصف فاعله بأنه عدو لله ، أو الله عدوه ، أو أعلن[1] فاعله بحرب من الله ورسوله أو حمل فاعله إثم غيره ، أو قيل فيه « لا ينبغى هذا » أو « لا يصلح » أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه ، أو أمر بفعل يضاده ، أو هجر فاعله ، أو تلاعن فاعلوه فى الآخرة ، أو تبرأ بعضهم من بعض ، أو وصف فاعله بالضلالة ، أو أنه « ليس من الله فى شيء » أو أنه ليس من الرسول وأصحابه ، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم فى الحكم والخبر عنه بخبر واحد ، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح ، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، أو قيل لفاعله « هل أنت منته » أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله ، أو رتب عليه إبعاد ، أو طرد أو لفظة « قتل من فعله » ، أو « قاتل الله من فعله » ، أو أخبر أن فاعله « لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه » أو أن الله لا يصلح عمله ، ولا يهدى كيده ، أو أن فاعله لا يفلح ، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء ، أو أن الله يغار من فعله ، أو نبه على وجه المفسدة فيه ، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلا ، أو أخبر أن

---

(١) فى الأصل (أعلم) وهو تحريف .

من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين ، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة قلب فاعله ، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه ، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل « لم فعل » نحو :

[لم تصدون عن سبيل الله من آمن] ، [لم تلبسون الحق بالباطل] ، [ما منعك أن تسجد] ، [لم تقولون ما لا تفعلون] ما لم يقترن به جواب من السؤال فإذا قرن به جواب ، كان بحسب جوابه .

فهذا ونحوه ، يدل على المنع من الفعل ، ودلالته على التحريم أطرد(١) من دلالته على مجرد الكراهة .

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله ، أو مكروه ـ فأكثر ما يستعمل فى المحرم ، وقد يستعمل فى كراهه التنزيه .

وأما لفظة « وأما أنا ، فلا أفعل » فالمحقق منه الكراهة كقوله « أما أنا فلا آكل متكئاً » .

وأما لفظة « ما يكون لك » و « ما يكون لنا » فاطرد(٢) استعمالها فى المحرم نحو [ما يكون لك أن تتكبر فيها] ، [ما يكون لنا أن نعود فيها] ، [ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق].

(فصل)

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ، ورفع الجناح ، والإذن ، والعفو ، و « إن شئت فافعل » و « إن شئت فلا تفعل » ، ومن الامتنان بما فى الأعيان من المنافع ، وما يتعلق من الأفعال نحو :

---

(١) اطرد . أى : أنسب لجريانه على قواعد اللغة والأصول .

(٢) فاطرد . أى : جرى على قاعدة لا شذوذ فيها .

[ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين] ونحو [وبالنجم هم يهتدون] .

ومن السكوت عن التحريم ، ومن الإقرار على الفعل فى زمن الوحى .

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو « عجب ربك من شاب ليست له صبوة » ونحوه ، قد يدل على بغض الفعل كقوله :

[وإن تعجب فعجب قولهم] وقوله : [بل عجبت ويسخرون] .

وقوله : [وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله] .

وقد يدل على امتناع الحكم ، وعدم حسنه كقوله : [كيف يكون للمشركين عهد عند الله] .

ويدل على حسن المنع منه قدراً ، وأنه لا يليق به فعله كقوله تعالى : [كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم] .

فائدة

نفى التساوى فى كتاب الله ، قد يأتى بين الفعلين كقوله تعالى :

[أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر] الآية .

وقد يأتى بين الفاعلين كقوله : [لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله] .

وقد يأتى بين الجزأين كقوله: [لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة] .

وقد جمع الله بين الثلاثة فى آية واحدة وهى قوله تعالى :

[وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور] الآيات .

فائدة

ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور :

التذكير، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره فى صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل ، كنسبة المحسوس إلى الحس .

وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر ، وإبطال أمر .

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط فى نظره ، وغالط فى مناظرته .

فانظر إلى قوله [ذق إنك أنت العزيز الكريم] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير .

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد .

منها : أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده .

ومنها : أن يكون موعظة وتذكرة .

ومنها : أن يكون شاهداً على ما أخبر به ، من توحيده ، وصدق رسوله ، وإحياء الموتى .

ومنها : أن يذكر فى معرض الامتنان .

ومنها : أن يذكر فى معرض اللوم والتوبيخ .

ومنها : أن يذكر فى معرض المدح أو الذم .

ومنها : أن يذكر فى معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه . وغير ذلك من الفوائد . انتهى كلامه رحمه الله . وهو فى غاية النفاسة ، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن ، فجزاه الله خيراً .

قلت : وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت :

فمنها : ضرب الأمثال ، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها .

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة ، وفى ذلك فوائد عديدة :

منها : أن الأوصاف التى يوصف بها أهل الخير ، تدل على محبة الله ورضاه ، وأنها محمودة .

والصفات التى يوصف بها أهل الشر ، تدل على بغض الله لها ، وأنها مذمومة .

ومنها : ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده ، فهو ثواب معجل ، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة ، فيكون عقاباً معجلا .

ومنها : أن فيه حثاً للنفوس ، على الاقتداء بأهل الخير ، ومنافستهم ، وتنشيط العمال على الأعمال ، ببيان أن من عملها فهو من أولياء الله .

وفيه الترهيب عن أفعال أهل الشر ، وتبغيض المعاصى التى أثرت مع عامليها ما أثرت .

ومنها : الاعتبار بصفات أهل الخير والشر ، وأن من فعل مثل فعلهم ، ناله ما نالهم .

وقد حث تعالى على الاعتبار ، فى غير موضع من كتابه .

وحقيقتة : العبور من شيء إلى شيء ، وقياس الشيء على نظيره .

ومنها : أن العبد إذا نظر إلى أعمال أهل الخير ، وعجزه عن القيام بها ، أوجب له ذلك ، الإزار على نفسه واحتقارها .

وهذا هو عين صلاحه ، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر ، هو عين فساده ، إلى غير ذلك من الفوائد .

ومنها : ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله ، وتقديسه عن النقائص ، وفى ذلك فوائد عظيمة .

منها : أن هذا العلم ـ وهو العلم المتعلق بالله تعالى ـ أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق .

فالاشتغال بفهمه ، والبحث التام عنه ، اشتغال بأعلى المطالب ، وحصوله للعبد من أشرف المواهب .

ومنها : أن معرفة الله تعالى ، تدعو إلى محبته وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، وإخلاص العمل له ، وهذا عين سعادة العبد ، ولا سبيل إلى معرفة الله ، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته ، والنفقة فى فهم معانيها .

وقد اشتمل القرآن من ذلك ، على ما لم يشتمل عليه غيره ، من تفاصيل ذلك وتوضيحها ، والتعرف بها إلى عباده ، وتعريفهم لنفسه ، كى يعرفوه .

ومنها : أن الله خلق الخلق ، ليعرفوه ويعبدوه ، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم .

فالاشتغال بذلك ، اشتغال بما خلق له العبد ، وتركه وتضييعه ، إهمال لما خلق له .

وقبيح بعبد ، لم تزل نعم الله عليه متواترة ، وفضله عليه عظيم من كل وجه ، أن يكون جاهلا بربه ، معرضاً عن معرفته .

ومنها : أن أحد أركان الإيمان ، بل أفضلها وأصلها ، الإيمان بالله .

وليس الإيمان مجرد قوله : « آمنت بالله » من غير معرفته بربه .

بل حقيقة الإيمان ، أن يعرف الرب الذى يؤمن به ، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته ، حتى يبلغ درجة اليقين .

وبحسب معرفته بربه ، يكون إيمانه ، فكلما ازداد معرفة بربه ، ازداد إيمانه ، وكلما نقص ، نقص .

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك ، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن .

والطريق(١) فى ذلك ، إذا مر به اسم من أسماء الله ، أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه ، وينزهه عما يضاد ذلك .

ومنها : أن العلم به تعالى ، أصل الأشياء كلها .

حتى إن العارف به حقيقة المعرفة ، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله ، على ما يفعله ، وعلى مايشرعه من الأحكام ، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة .

وكذلك ، لا يشرع مايشرعه من الأحكام ، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته ، وفضله وعدله .

فأخباره كلها حق وصدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل وحكمة .

---

(١) قوله : (والطريق الخ) يريد أن المؤمن إذا طرق سمعه اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته أن يثبت لله ذلك المعنى بكماله على وجه العموم مع اعتقاد أن كمال الله لا تحيط به العقول كما أنه سبحانه منزه عن النقائص مهما استصغرتها العقول ، فالنقائص ـ صغيرها وكبيرها ـ بعيدة عن الله كل البعد فلا بد من إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل .

وهذا العلم ، أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه :

وكيف يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها : ذكر الأنبياء والمرسلين ، وما أرسلوا به ، وما جرى لهم مع أممهم .

وفى ذلك عدة فوائد :

منها : أن من تمام الإيمان بهم ، معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم .

وكلما كان المؤمن بذلك أعرف ، كان أعظم إيماناً بهم ، ومحبة لهم ، وتعظيما لهم ، وتعزيزاً وتوقيراً .

ومنها : أن من بعض حقوقهم علينا ـ خصوصاً النبى محمد صلى الله عليه وسلم ـ معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة ، ولا سبيل لذلك ، إلا بمعرفة أحوالهم .

ومنها : أن معرفة الأنبياء ، موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، بعد أن كانوا فى ضلال مبين .

ومنها : أن الرسل هم المربون للمؤمنين ، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على أيديهم وبسببهم .

فقبيح بالمؤمن ، أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه .

وإذا كان من المستنكر ، جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك ، فكيف بحالة الرسول ، الذى هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أبوهم الحقيق ، الذى حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى ؟ ! !

ومنها : أن فى معرفة ما جرى لهم ، وجرى عليهم ، تحصل للمؤمنين الأسوة والقدوة ، ويخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات ، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة ، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء .

قال تعالى : [لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة] .

ومن أعظم الاقتداء ، الاقتداء بتعليماتهم ، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق ، والصبر على التعليم ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وبهذا وأمثاله ، كان العلماء ورثة الأنبياء .

ومن فوائد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى .

والمراد منها ، موقوف على معرفة أصول الرسول ، وسيرته مع قومه وأصحابه ، وغيرهم من الناس ، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، تختلف اختلافاً كثيراً .

فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معانى القرآن ، من دون معرفة منه لذلك ، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله ، وعلى مراد الله من كلامه ، شيء كثير .

وهذا إنما يعرفه ، من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله ، على العرف الحادث ، فوقع الخلل الكثير ، ولغير ذلك من الفوائد المفيدة ، والنتائج السديدة .

ومن علوم القرآن ، الأمر ، والنهى الموجه لهذه الأمة وغيرها ، وهذا هو المقصود منهم ، وفى معرفة ذلك عدة فوائد :

منها : أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله ، وذم من لم يعرف ذلك .

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده ، الأوامر والنواهى ، التى كلفنا بها ، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها .

ولا سبيل إلى امتثالها ، أو اجتنابها ، إلا بمعرفتها ، ليتأتى فعلها أو تركها .

وذلك ، أن المكلف إذا أمر بأمر ، وجب عليه أولا ، معرفة ما هو الذى أمر به ، وما يدخل به ، وما لا يدخل .

فإذا عرف ذلك، استعان بالله، واجتهد فى امتثاله بحسب القدرة والإمكان .

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور ، وجب عليه معرفة ذلك المنهى وحقيقته ، ثم يبذل جهده ، مستعيناً بربه ، على تركه ، امتثالا لأمر الله ، واجتناباً لنهيه .

وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، كل منهما واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب .

فعرفت أن العلم بها قبل العمل ، ومتقدم عليه .

ومنها : أن الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يمكن حصولها وتحصيلها ، إلا بعد معرفة الخير ، ليدعو إليه ، ومعرفة المعروف ليأمر به ، ومعرفة المنكر لينهى عنه ، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال ، ومتضمن له أكمل تضمن .

ومن علوم القرآن ، أحوال اليوم الآخر ، وهو ما يكون بعد الموت ، مما أخبر به الله فى كتابه ، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت ، والقبر ، والموقف ، والجنة والنار ، وفى العلم بذلك فوائد كثيرة :

منها : أن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان الستة ، التى لا يصح الإيمان بدونها .

وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ، ازداد إيمان العبد به .

ومنها : أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة ، يفتح للانسان باب الخوف والرجاء ، اللذين إن خلا القلب منهما ، خرب كل الخراب ، وإن عمر بهما ، أوجب له الخوف ، الانكفاف عن المعاصى .

والرجاء تيسير الطاعة ، وتسهيلها ، ولا يتم ذلك ، إلا بمعرفة تفاصيل الأمور ، التى يخاف منها وتحذر .

كأحوال القبر وشدته ، وأحوال الموقف الهائلة ، وصفات النار المفظعة .

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم ، والحبرة والسرور ، ونعيم القلب والروح والبدن ، فيحدث بسبب ذلك ، الاشتياق الداعى للاجتهاد فى السعى للمحبوب المطلوب ، بكل ما يقدر عليه .

ومنها : أن يعرف بذلك ، فضل الله وعدله ، فى المجازاة على الأعمال الصالحة ، والسيئة ، الموجب لكمال حمده ، والثناء عليه بما هو أهله .

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب ، يعرف بذلك فضل الله ، وعدله وحكمته .

ومن علوم القرآن ، مجادلة المبطلين ، ودفع شبه الظالمين ، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية .

وهذا الفن من علوم القرآن ، من خواص العلماء الربانيين ، والجهابذة الراسخين ، والعقلاء المستبصرين .

وقد اشتمل القرآن على الأدلة العقلية ، والقواطع البرهانية ، ما لو جمع ما عند المتكلمين من حق ، لكان بالنسبة إليه ، كنقرة عصفور ، بالنسبة لماء البحر .

ذلك بأن القرآن هو الحق ، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل

والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح ، فإن ذكر التوحيد والشرك ، وأمر بالأول ، ونهى عن الثانى ، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه ، طريقاً للنجاة ، وقبح الشرك وبطلانه ، وكونه هو الطريق للهلاك ، ما يجعل ذلك للبصيرة ، كالشمس فى نحر الظهيرة .

وإن أمر بالأوامر الشرعية ، وحث على الآداب ، ومكارم الأخلاق ، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية ، التى يحتاجونها فى معاشهم ومعادهم ، ما يجزم بأنه لا أحسن منها ، وأن حكمته تقتضى الأمر بها ، أشد اقتضاء .

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث ، أخبر بما فى ضمنها من الفساد والضرر ، والشر الحاصل بتناولها ، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم ، وتنزيههم عنها ، وتكريمهم ، وتعلية أقدارهم عن التلبس بها ، فوق كل نعمة .

فالمأمورات ، مشتملة على المصالح ، والمحرمات ، مشتملة على المفاسد .

وإن شرع فى الحجاج للمبطلين ، وتزييف شبه المشبهين ، وبطلان مذاهب الضالين ، فقل ما شئت من إحقاق حق ، ودفع باطل ، وإرشاد ضال ، وإقامة الحجة على المعاند ، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شىء من الحق ، بل هو ، على اسمه ، باطل لا حقيقة له ، إن هى إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت ، تبينت هباء منثوراً .

ورأيته يسوق البراهين العقلية ، بأوضح عبارة وأوجزها ، وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء .

فيجمع بين الدليل العقلى والنقلى فى كلمة واحدة ، إيجازاً غير مخل بالمطلوب .

وتارة يفصل ذلك ، ويسرد من البراهين ما يكفى بعضه بالبيان .

فلله الحمد والشكر .

فهذه مقدمة نافعة ، إن شاء الله ، ينبغى للمسلم استقراؤها فى كل مواردها ، والتنبه لكل ما يرد عليه من هذه المطالب على وجه التفصيل .

فمن استعملها فى كل ما يرد عليه من الآيات ، انتفع بها نفعاً عظيما .

وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .



تفسير

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

[بسم الله] أى : أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف ، فيعم جميع الأسماء الحسنى .

[الله] هو المألوه المعبود ، المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية وهى صفات الكمال .

[الرحمن الرحيم] اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شىء ، وعمت كل حى ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله .

فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة ، ومن عداهم ، فله نصيب منها .

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ، الإيمان بأسماء الله وصفاته ، وأحكام الصفات .

فيؤمنون مثلا ، بأنه رحمن رحيم ، ذو الرحمة التى اتصف بها ، المتعلقة بالمرحوم .

. . . .

فالنعم كلها ، أثر من آثار رحمته ، وهكذا فى سائر الأسماء .

يقال فى العليم : إنه عليم ذو علم ، يعلم به كل شىء ، قدير ، ذو قدرة يقدر على كل شىء .

[الحمد لله] هو الثناء على الله بصفات الكمال ، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل ، فله الحمد الكامل ، بجميع الوجوه .

[رب العالمين] الرب ، هو المربى جميع العالمين .

وهم من سوى الله ، بخلقه إياهم ، وإعداده لهم الآلات ، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة ، التى لو فقدوها ، لم يمكن لهم البقاء .

فما بهم من نعمة ، فمنه تعالى .

وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : هى خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم ، التى فيها بقاؤهم فى الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه .

وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

ولعل هذا المعنى ، هو السر فى كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب .

فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة .

فدل قوله [رب العالمين] على انفراده بالخلق والتدبير ، والنعم ، وكمال غناه .

وتمام فقر العالمين إليه ، بكل وجه واعتبار .

. . . .

[مالك يوم الدين] المالك : هو من اتصف بصفة الملك التى من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأصناف الملك ليوم الدين ، وهو يوم القيامة ، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم ، خيرها وشرها ، لأن فى ذلك اليوم ، يظهر للخلق تمام الظهور ، كمال ملكه وعدله وحكمته ، وانقطاع أملاك الخلائق .

حتى إنه يستوى فى ذلك اليوم ، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار .

كلهم مذعنون لعظمته ، خاضعون لعزته ، منتظرون لمجازاته ، راجون ثوابه ، خائفون من عقابه ، فلذلك خصه بالذكر ، وإلا ، فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام .

وقوله [إياك نعبد وإياك نستعين] أى : نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة .

لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور ، ونفيه عما عداه .

فكأنه يقول : نعبدك ، ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك ، ولا نستعين بغيرك .

وتقديم العبادة على الاستعانة ، من باب تقديم العام على الخاص ، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده .

و « العبادة » اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة .

. . . .

و « الاستعانة » هى الاعتماد على الله تعالى فى جلب المنافع ، ودفع المضار، مع الثقة به فى تحصيل ذلك .

والقيام بعبادة الله والاستعانة بهما هو الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة من جميع الشرور .

فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما .

وإنما تكون العبادة عبادة ، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصوداً بها وجه الله .

فبهذين الأمرين تكون عبادة .

وذكر « الاستعانة » بعد « العبادة » مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد فى جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى .

فإنه إن لم يعنه الله ، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر ، واجتناب النواهى .

ثم قال تعالى : [اهدنا الصراط المستقيم] أى : دلنا وأرشدنا ، ووفقنا إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله ، وإلى جنته ، وهو معرفة الحق والعمل به ، فاهدنا إلى الصراط واهدنا فى الصراط .

فالهداية إلى الصراط ، لزوم دين الإسلام ، وترك ما سواه من الأديان.

والهداية فى الصراط ، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا .

فهذا الدعاء ، من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به فى كل ركعة من صلاته ، لضرورته إلى ذلك .

. . . .

وهذا الصراط المستقيم هو [صراط الذين أنعمت عليهم] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

[غير] صراط [المغضوب عليهم] الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم .

و [لا] صراط [الضالين] الذين تركوا الحق على جهل وضلال ، كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة ، على إيجازها ، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن .

فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة :

توحيد الربوبية يؤخذ من قوله [رب العالمين] .

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة ، يؤخذ من لفظ [الله] ومن قوله [إياك نعبد وإياك نستعين] .

وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى ، التى أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ، وقد دل على ذلك لفظ [الحمد] كما تقدم .

وتضمنت إثبات النبوة فى قوله [اهدنا الصراط المستقيم] لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة .

وإثبات الجزاء على الأعمال فى قوله [مالك يوم الدين] وأن الجزاء يكون بالعدل ، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل .

. . . .

وتضمنت إثبات القدر ، وأن العبد فاعل حقيقة ، خلافا للقدرية والجبرية .

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال فى قوله [اهدنا الصراط المستقيم] لأنه معرفة الحق والعمل به . وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك .

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى ، عبادة ، واستعانة فى قوله :

[إياك نعبد وإياك نستعين] . فالحمد لله رب العالمين .

تفسير

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

تقدم الكلام على البسملة .

وأما الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فالأسلم فيها ، السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعى ، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها .

وقوله [ذلك الكتاب] أى هذا الكتاب العظيم الذى هو الكتاب على الحقيقة ، المشتمل على مالم تشتمل عليه كتب المتقدمين ، من العلم العظيم ، والحق المبين .

فهو [لا ريب فيه] ولا شك بوجه من الوجوه .

ونفى الريب عنه ، يستلزم ضده ، إذ ضد الريب والشك ، اليقين .

فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب .

. . . .

وهذه قاعدة مفيدة ، أن النفي المقصود به المدح ، لابد أن يكون متضمناً لضده ، وهو الكمال ، لأن النفي عدم ، والعدم المحض ، لامدح فيه .

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال :

[هدى للمتقين] والهدى : ماتحصل به الهداية من الضلالة والشبه ؛ وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة .

وقال [هدى] وحذف المعمول ، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ، ولا للشيء الفلاني ، لإرادة العموم ، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين .

فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية ، ومبين للحق من الباطل ، والصحيح من الضعيف ، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم ، في دنياهم وأخراهم .

وقال في موضع آخر [هدى للناس] فعمم .

وفي هذا الموضع وغيره [هدى للمتقين] لأنه في نفسه هدى لجميع الناس .

فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً . ولم يقبلوا هدى الله ، فقامت عليهم به الحجة ، ولم ينتفعوا به لشقائهم .

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر ، لحصول الهداية ، وهو التقوى التي حقيقتها : إتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فاهتدوا به ، وانتفعوا . غاية الانتفاع .

قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] .

فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية ، والآيات الكونية .

. . . .

ولأن الهداية نوعان : هداية البيان ، وهداية التوفيق .

فالمتقون حصلت لهم الهدايتان ، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق .

وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ، ليست هداية حقيقية تامة .

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، لتضمن التقوى لذلك فقال :

[الذين يؤمنون بالغيب] .

حقيقة الإيمان : هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل ، المتضمن لانقياد الجوارح .

وليس الشأن فى الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس ، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر .

إنما الشأن فى الإيمان بالغيب ، الذى لم نره ولم نشاهده ، وإنما نؤمن به ، لخبر الله وخبر رسوله .

فهذا الإيمان الذى يميز به المسلم من الكافر ، لأنه تصديق مجرد لله ورسله .

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به ، أو أخبر به رسوله ، سواء شاهده ، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله ، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه .

بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية ، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم ، ومرجت أحلامهم .

وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله .

. . . .

ويدخل فى الإيمان بالغيب ، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، وأحوال الآخرة ، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها ، وما أخبرت به الرسل من ذلك .

فيؤمنون بصفات الله ووجودها ، ويتيقنونها ، وإن لم يفهموا كيفيتها .

ثم قال [ويقيمون الصلاة] لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون بالصلاة ، لأنه لا يكفى فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة .

فإقامة الصلاة ، إقامتها ظاهراً ، بإتمام أركانها ، وواجباتها ، وشروطها .

وإقامتها باطناً ، بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر مايقوله ويفعله منها .

فهذه الصلاة هى التى قال الله فيها [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] وهى التى يترتب عليها الثواب .

فلا ثواب للعبد من صلاته ، إلا ماعقل منها .

ويدخل فى الصلاة فرائضها ونوافلها .

ثم قال [ومما رزقناهم ينفقون] يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، والمماليك ونحو ذلك .

والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير .

ولم يذكر المنفق عليهم ، لكثرة أسبابه وتنوع أهله ، ولأن النفقة من حيث هى ، قربة إلى الله .

وأتى بـ « من » الدالة على التبعيض ، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً

. . . .

يسيراً من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مثقل ، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .

وفى قوله [رزقناهم] إشارة إلى أن هذه الأموال التى بين أيديكم ، ليست حاصلة بقوتكم وملككم ، وإنما هى رزق الله ، الذى خولكم ، وأنعم به عليكم .

فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده ، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم ، وواسوا إخوانكم المعدمين .

وكثيراً مايجمع تعالى بين الصلاة والزكاة فى القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للاخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة ، متضمنة الاحسان على عبيده .

فعنوان سعادة العبد ، إخلاصه للمعبود ، وسعيه فى نفع الخلق .

كما أن عنوان شقاوة العبد ، عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان .

ثم قال [والذين يؤمنون بما أنزل إليك] وهو القرآن والسنة .

قال تعالى [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] .

فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه ، فيؤمنون ببعضه ، ولا يؤمنون ببعضه ، إما بجحده أوتأويله ، على غير مراد الله ورسوله ، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة ، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم ، بما حاصله عدم التصديق بمعناها ، وإن صدقوا بلفظها ، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً .

. . . .

وقوله [وما أنزل من قبلك] يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة .

ويتضمن الإيمان بالكتب ، الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه ، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور .

وهذه خاصية المؤمنين ، يؤمنون بالكتب السماوية كلها ، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم .

ثم قال [وبالآخرة هم يوقنون] .

و « الآخرة » اسم لما يكون بعد الموت .

وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان .

ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل .

و« اليقين » هو العلم التام ، الذى ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل .

[أولئك] أى الموصوفون بتلك الصفات الحميدة [على هدى من ربهم] أى : على هدى عظيم ، لأن التنكير للتعظيم .

وأى هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة ؟ ! ! .

وهل الهداية فى الحقيقة ، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها ، فهى ضلالة .

وأتى بـ « على » فى هذا الموضع ، الدالة على الاستعلاء ، وفى الضلالة يأتى بـ « فى » كما فى قوله [وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين] لأن

صاحب الهدى مستعل بالهدى ، مرتفع به ، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر .

ثم قال [وأولئك هم المفلحون] والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب .

حصر الفلاح فيهم ، لأنه لاسبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم ، وماعدا تلك السبيل ، فهى سبل الشقاء والهلاك والخسار ، التى تفضى بسالكها إلى الهلاك .

فلهذا ، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً ، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال .

[إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عـــذاب عظيم] .

يخبر تعالى : أن الذين كفروا ، أى : اتصفوا بالكفر ، وانصبغوا به ، وصار وصفاً لهم لازماً ، لايردعهم عنه رادع ، ولا ينجع فيهم وعظ .

إنهم مستمرون على كفرهم ، فسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

وحقيقة الكفر ، هو : الجحود لما جاء به الرسول ، أو جحد بعضه .

فهؤلاء الكفار ، لاتفيدهم الدعوة ، إلا إقامة الحجة ، وكأن فى هذا قطعاً ، لطمع الرسول صلى الله عليه وسلم فى إيمانهم ، وأنك لا تأس عليهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال :

[ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم] أى : طبع عليها بطابع لايدخلها الإيمان ، ولا ينفذ فيها فلا يعون ماينفعهم ، ولا يسمعون مايفيدهم .

[وعلى أبصارهم غشاوة] أى : غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذى ينفعهم ، وهذه طرق العلم والخير ، قد سدت عليهم ، فلا مطمع فيهم ، ولا خير يرجى عندهم .

وإنما منعوا ذلك ، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ماتبين لهم الحق ، كما قال تعالى :

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] وهذا عقاب عاجل .

ثم ذكر العقاب الآجل فقال :

[ولهم عذاب عظيم] وهو عذاب النار ، وسخط الجبار المستمر الدائم .

ثم قال تعالى : فى وصف المنافقين ، الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ

[ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليومَ الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يـكذبون] .

واعلم أن النفاق هو : إظهار الخير . وإبطان الشر .

ويدخل فى هذا التعريف ، النفاق الاعتقادى ، والنفاق العملى .

كالذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وفى رواية « وإذا خاصم فجر » .

وأما النفاق الاعتقادى المخرج عن دائرة الإسلام ، فهو الذى وصف الله به المنافقين فى هذه السورة وغيرها .

ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ولا بعد الهجرة ، حتى كانت وقعة « بدر » وأظهر الله المؤمنين ، وأعزهم .

فذل من فى المدينة ممن لم يسلم ، فأظهر الإسلام بعضهم خوفا ومخادعة ، ولتحقن دماؤهم ، وتسلم أموالهم ، فكانوا بين أظهر المسلمين ، فى الظاهر أنهم منهم ، وفى الحقيقة ، ليسوا منهم .

فمن لطف الله بالمؤمنين ، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها ، لئلا يغتر بهم المؤمنون ، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم .

وقال تعالى [يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم] .

إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

فوصفهم الله بأصل النفاق فقال :

[ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين] فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

فأكذبهم الله بقوله [وما هم بمؤمنين] لأن الإيمان الحقيقى ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين .

والمخادعة : أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ، ويبطن خلافه لكى يتمكن من مقصوده ممن يخادع .

فهؤلاء المنافقون ، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك ، فعاد خداعهم على أنفسهم .

وهذا من العجائب ، لأن المخادع ، إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده ، أو يسلم ، لا له ولا عليه .

وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم ، وكأنهم يعملون مايعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها .

لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئاً ، وعباده المؤمنون ، لايضرهم كيدهم شيئاً .

فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان ، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم ، وصار كيدهم فى نحورهم ، وحصل لهم بذلك الخزى والفضيحة فى الدنيا ، والحزن المستمر بسبب مايحصل للمؤمنين من القوة والنصرة .

. . . .

ثم فى الآخرة ، لهم العذاب الأليم الموجع المفجع ، بسبب كذبهم ، وكفرهم ، وفجورهم ، والحال أنهم — من جهلهم وحماقتهم — لايشعرون بذلك .

وقوله [فى قلوبهم مرض] المرادبالمرض هنا : مرض الشك ، والشبهات ، والنفاق .

وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله :

مرض الشبهات الباطلة ، ومرض الشهوات المردية .

فالكفر والنفاق ، والشكوك والبدع ، كلها من مرض الشبهات .

والزنا ، ومحبة الفواحش والمعاصى وفعلها ، من مرض الشهوات .

كما قال تعالى [فيطمع الذى فى قلبه مرض] وهو شهوة الزنا .

والمعافى ، من عوفى من هذين المرضين ، فحصل له اليقين والإيمان ، والصبر عن كل معصية ، فرفل فى أثواب العافية .

وفى قوله عن المنافقين [فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً] بيان لحكمته تعالى فى تقدير المعاصى على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة ، يبتليهم بالمعاصى اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى .

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

وقال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] .

وقال تعالى [وأما الذين فى قلوبهم رجس فزادتهم رجساً إلى رجسهم] .

فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها .

قال تعالى [ويزيد الله الذين اهتدوا هدى] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

أى : إذا نهى هؤلاء المنافقون عن الإفساد فى الأرض ، وهو العمل بالكفر . والمعاصى ، ومنه إظهـــار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للـكافرين [قالوا إنما نحن مصلحون] .

فجمعوا بين العمل بالفساد فى الأرض ، وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح ، قلباً للحقائق ، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً .

وهؤلاء أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصى ، مع اعتقاد تحريمها ، فهذا أقرب للسلامة ، وأرجى لرجوعه .

ولما كان فى قولهم [إنما نحن مصلحون] حصر للاصلاح فى جانبهم — وفى ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح — قلب الله عليهم دعواهم بقوله: [ألا إنهم هم المفسدون] فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله ، وزعم — مع هذا — أن هذا إصلاح ، فهل بعدهذا الفساد فساد ؟ ! !

ولـكن لا يعلمون علماً ينفعهم ، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله .

وإنما كان العمل فى الأرض إفساداً ، لأنه سبب لفساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار ، والنبات ، لما يحصل فيها من الآفات التى سببها المعاصى .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولأن الإصلاح فى الأرض ، أن تعمر بطاعة الله والإيمان به ، لهذا خلق الله الخلق ، وأسكنهم الأرض ، وأدر عليهم الأرزاق ، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته .

فإذا عمل فيها بضده ، كان سعياً فيها بالفساد ، وإخراباً لها عما خلقت له .

أى: إذا قيل للمنافقين : آمنوا كما آمن الناس ، أى : كإيمان الصحابة رضى الله عنهم وهو الإيمان بالقلب واللسان ، قالوا — بزعمهم الباطل — : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ .

يعنون — قبحهم الله — الصحابة رضى الله عنهم ، لزعمهم أن سفههم ، أوجب لهم الإيمان ، وترك الأوطان ، ومعاداة الكفار .

والعقل عندهم يقتضى ضد ذلك ، فنسبوهم إلى السفه ؛ وفى ضمن ذلك ، أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى .

فرد الله ذلك عليهم ، وأخبر أنهم ، هم السفهاء على الحقيقة ، لأن حقيقة السفه ، جهل الإنسان بمصالح نفسه ، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم .

كما أن العقل والحجا ، معرفة الإنسان بمصالح نفسه ، والسعى فيما ينفعه ، وفى دفع مايضره .

وهذه الصفة ، منطبقة على الصحابة والمؤمنين .

فالعبرة بالأوصاف والبرهان ، لا بالدعاوى المجردة ، والأقوال الفارغة .

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين ، أظهروا أنهم على طريقتهم ، وأنهم معهم ، فإذا خلو إلى شياطينهم — أى كبرائهم ورؤسائهم بالشر — قالوا : إنا معكم فى الحقيقة ، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم ، أنا على طريقتهم .

فهذه حالهم الباطنة والظاهرة ، ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله .

قال تعالى [الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون] .

وهذا جزاء لهم ، على استهزائهم بعباده .

فمن استهزائه بهم ، أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والأحوال الخبيثة ، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين ، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم .

ومن استهزائه بهم يوم القيامة ، أن يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً ، فإذا مشى المؤمنون بنورهم ، طفىء نور المنافقين ، وبقوا فى الظلمة بعد النور متحيرين ، فما أعظم اليأس بعد الطمع .

[ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم] الآية .

قوله [ويمدهم] أى يزيدهم [فى طغيانهم] أى : فجورهم وكفرهم [يعمهون] أى حائرون مترددون ، وهذا من استهزائه تعالى بهم .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم [أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين] .

أولئك ، أى : المنافقون الموصوفون بتلك الصفات [الذين اشتروا الضلالة بالهدى] أى : رغبوا فى الضلالة ، رغبة المشترى فى السلعة ، التى — من رغبته فيها — يبذل فيها الأموال النفيسة .

وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة ، التى هى غاية الشر ، كالسلعة .

وجعل الهدى ، الذى هو غاية الصلاح ، بمنزلة الثمن .

فبذلوا الهدى ، رغبة عنه فى الضلالة رغبة فيها .

فهذه تجارتهم ، فبئس التجارة ، وهذه صفقتهم ، فبئست الصفقة .

وإذا كان من يبذل دينارا فى مقابلة درهم خاسرا ، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما ؟!! فكيف من بذل الهدى . . . فى مقابلة الضلالة ، واختار الشقاء على السعادة ، ورغب فى سافل الأمور وترك عاليها ؟ ! ! فما ربحت تجارته ، بل خسر فيها أعظم خسارة.

[أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين] .

وقوله [وما كانوا مهتدين] تحقيق لضلالهم ، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شىء ، فهذه أوصافهم القبيحة .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ثم ذكر مثلهم فقال : [مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير] .

أى : مثلهم المطابق لما كانوا عليه ، كمثل الذى استوقد ناراً .

أى : كان فى ظلمة عظيمة ، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره ، ولم تكن عنده معدة ، بل هى خارجة عنه .

فلما أضاءت النار ماحوله ، ونظر المحل الذى هو فيه ، وما فيه من

. . . .

المخاوف وأمنها ، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه ، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك ، إذ ذهب الله بنوره ، فزال عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقى فى الظلمة العظيمة والنار المحرقة ، فذهب مافيهامن الإشراق ، وبقى مافيها من الإحراق .

فبقى فى ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف ؟ .

فكذلك هؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن صفة لهم ، فاستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا ، فحقنت بذلك دماؤهم ، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن فى الدنيا .

فبينما هم كذلك ، إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصى على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار ، وبئس القرار .

فلهذا قال تعالى عنهم [صم] أى : عن سماع الخير [بكم] أى : عن النطق به [عمى] أى : عن رؤية الحق [فهم لايرجعون] لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون إليه .

بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لايعقل ، وهو أقرب رجوعا منهم .

ثم قال تعالى [أو كصيب من السماء] أى : كصاحب صيب وهو المطر الذى يصوب ، أى : ينزل بكثرة .

. . . .

[فيه ظلمات] ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمات المطر .

[ورعد] وهو : الصوت الذى يسمع من السحاب .

[وبرق] وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب .

[كلما أضاء لهم] البرق فى تلك الظلمات [مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا] أى : وقفوا .

فهكذا حالة المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده ، وتزعجهم وعوده .

فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذى يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه فى أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة .

وأما المنافقون ، فأنى لهم السلامة ، وهو تعــالى محيط بهم ، قدرة ، وعلماً فلا يفوتونه ولا يعجزونه ، بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها أتم الجزاء .

ولمـا كانوا مبتلين بالصمم ، والبكم ، والعمى المعنوى ، ومسدودة عليهم طرق الإيمان . قال تعالى :

[ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم] أى : الحسية .

ففيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة الدنيوية ، ليحذروا ، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم .

[إن الله على كل شىء قدير] فلا يعجزه شىء .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ومن قدرته ، أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض .

وفى هذه الآية وما أشبهها ، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة فى قدرة الله تعالى ، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة فى قوله [إن الله على كل شىء قدير] .

هذا أمر عام لجميع الناس ، بأمر عام ، وهو العبادة الجامعة ، لامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتصديق خبره ، فأمرهم تعالى بما خلقهم له .

قال تعالى [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] .

ثم استدل على وجوب عبادته وحده ، بأنه ربكم ، الذى رباكم بأصناف النعم ، فخلقكم بعد العدم ، وخلق الذين من قبلكم ، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها ، وتنتفعون بالأبنية ، والزراعة ، والحراثة ، والسلوك من محل إلى محل ، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها .

وجعل السماء بناء لمسكنكم ، وأودع فيها من المنافع ماهو من ضروراتكم وحاجاتكم ، كالشمس ، والقمر ، والنجوم .

[وأنزل من السماء ماء] والسماء هو كل ماعلا فوقك فهو سماء ، ولهذا قال المفسرون : المراد بالسماء ههنا ، السحاب .

. . . .

فأنزل منه تعالى ماء [فأخرج به من الثمرات] كالحبوب ، والثمار ، من نخيل ، وفواكه ، وزروع وغيرها [رزقا لكم] به ترتزقون ، وتتقوتون وتعيشون وتفكهون .

[فلا تجعلوا لله أنداداً] أى : أشباها ونظراء من المخلوقين ، فتعبدونهم كما تعبدون الله ، وتحبونهم كما تحبونه ، وهم مثلكم ، مخلوقون ، مرزوقون مدبرون ، لايملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا ينفعونكم ولا يضرون .

[وأنتم تعلمون] أن الله ليس له شريك ، ولا نظير ، لافى الخلق ، والرزق ، والتدبير ، ولا فى الألوهية والكمال .

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك ؟ هذا من أعجب العجب ، وأسفه السفه .

وهذه الآية ، جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة ماسواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته ، وبطلان عبادة ماسواه ، وهو ذكر توحيد الربوبية ، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير .

فإذا كان كل أحد ، مقراً بأنه ليس له شريك بذلك ، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك فى عبادته ، وهذا أوضح دليل عقلى ، على وحدانية البارى تعالى ، وبطلان الشرك .

وقوله [لعلكم تتقون] يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده ، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه ، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إذا عبدتم الله ، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى ، وكلا المعنيين صحيح ، وهما متلازمان .

فمن أتى بالعبادة كاملة ، كان من المتقين .

ومن كان من المتقين ، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه .

وهذا دليل عقلى ، على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحة ماجاء به فقال :

وإن كنتم — يامعشر المعاندين للرسول ، الرادين دعوته ، الزاعمين كذبه — فى شك واشتباه ، مما نزلنا على عبدنا ، هل هو حق أو غيره ، فههنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه .

وهو أنه بشر مثلكم ، ليس من جنس آخر ، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم ، لايكتب ولا يقرأ .

فأتاكم بكتاب ، أخبركم أنه من عند الله ، وقلتم أنتم ، إنه تقوله وافتراه .

فإن كان الأمر كما تقولون ، فأتوا بسورة من مثله ، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم ، فإن هذا أمر يسير عليكم ، خصوصاً ، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة ، والعداوة العظيمة للرسول .

. . . .

فإن جئتم بسورة من مثله ، فهو كما زعمتم ، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ، فهذا آية كبيرة ، ودليل واضح جلى على صدقه وصدق ماجاء به ، فيتعين عليكم اتباعه ، واتقاء النار التى بلغت فى الحرارة العظيمة والشدة ، أن كان وقودها الناس والحجارة ، ليست كنار الدنيا ، التى تتقد بالحطب ، وهذه النار الموصوفة ، معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسله .

فاحذروا الكفر برسوله ، بعدما تبين لكم أنه رسول الله .

وهذه الآية ونحوها يسمونها آية التحدى ، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويعارضوه بوجه .

قال تعالى [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا] .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب ؟ .

أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه ، أن يأتى بكلام ككلام الكامل ، الذى له الكمال المطلق ، والغنى الواسع من جميع الوجوه ؟ .

هذا ليس فى الإمكان ، ولا فى قدرة الإنسان .

وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام ، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء ، ظهر له الفرق العظيم .

وفى قوله [وإن كنتم فى شك] إلى آخره ، دليل على أن الذى يرجى له الهداية من الضلالة ، هو الشاك الحائر الذى لم يعرف الحق من الضلالة .

. . . .

فهذا الذى إذا بين له الحق حرى باتباعه ، وإن كان صادقا فى طلب الحق .

وأما المعاند الذى يعرف الحق ويتركه ، فهذا لايمكن رجوعه ، لأنه ترك الحق بعد ماتبين له ، ولم يتركه عن جهل ، فلا حيلة فيه .

وكذلك الشاك الذى ليس بصادق فى طلب الحق ، بل هو معرض ، غير مجتهد بطلبه ، فهذا — فى الغالب — لايوفق .

وفى وصف الرسول بالعبودية فى هذا المقام العظيم ، دليل على أن أعظم أوصافه صلى الله عليه وسلم ، قيامه بالعبودية ، التى لايلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين .

كما وصفه بالعبودية فى مقام الإسراء فقال [سبحان الذى أسرى بعبده ليلا].

وفى مقام تنزيل القرآن عليه فقال [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا] .

وفى قوله [أعدت للكافرين] ونحوها من الآيات ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الجنة والنار مخلوقتان ، خلافا للمعتزلة .

وفيها أيضاً ، أن الموحدين — وإن ارتكبوا بعض الكبائر — لايخلدون فى النار ، لأنه قال [أعدت للكافرين] .

فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها ، لم تكن معدة للكافرين وحدهم خلافا للخوارج والمعتزلة .

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه ، وهو الكفر ، وأنواع المعاصى على اختلافها .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولما ذكر جزاء الكافرين ، ذكر جزاء المؤمنين ، أهل الأعمال الصالحات ، كما هي طريقته تعالى فى كتابه ، يجمع بين الترغيب والترهيب ، ليكون العبد راغباً راهباً ، خائفاً راجياً فقال :

[وبشر] أى : أيها الرسول ، ومن قام مقامك .

[الذين آمنوا] بقلوبهم [وعملوا الصالحات] بجوارحهم ، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين ، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن فى جنته .

فبشرهم [أن لهم جنات] أى : بساتين جامعة للأشجار العجيبة ، والثمار الأنيقة ، والظل المديد ، والأغصان والأفنان ، وبذلك صارت جنة ، يجتن بها داخلها ، وينعم فيها ساكنها .

[تجرى من تحتها الأنهار] أى : أنهار الماء ، واللبن ، والعسل ، والخمر يفجرونها كيف شاءوا ، ويصرفونها أين أرادوا ، وتسقى منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار .

. . . .

[كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل] أى: هذا من جنسه ، وعلى وصفه ، كلها متشابهة فى الحسن واللذة .

ليس فيها ثمرة خاسة ، وليس لهم وقت خال من اللذة ، فهم دائماً متلذذون بأكلها .

وقوله [وأتوا به متشابهاً] قيل : متشابهاً فى الاسم ، مختلفاً فى الطعم .

وقيل : متشابهاً فى اللون ، مختلفاً فى الاسم .

وقيل : يشبه بعضه بعضاً ، فى الحسن ، واللذة ، والفكاهة ، ولعل هذا أحسن .

ثم لما ذكر مسكنهم ، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم ، ذكر أزواجهم ، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه ، وأوضحه فقال .

[ولهم فيها أزواج مطهرة] فلم يقل « مطهرة من العيب الفلانى » ليشمل جميع أنواع التطهير .

فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار .

فأخلاقهن ، أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولى والفعلى ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمنى ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة .

ومطهرات الخلق أيضاً ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والطرف .

. . . .

قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

فى هذه الآية الكريمة ، ذكر المبشر والمبشر ، والمبشر به ، والسبب الموصل لهذه البشارة .

فالمبشر ، هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته .

والمبشر ، هم المؤمنون العاملون الصالحات .

والمبشر به ، هى الجنات الموصوفات بتلك الصفات .

والسبب الموصل لذلك ، هو الإيمان والعمل الصالح .

فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة ، إلا بهما .

وهذا أعظم بشارة حاصلة ، على يد أفضل الخلق ، بأفضل الأسباب .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين ، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها ، فإنها بذلك ، تخف وتسهل .

وأعظم بشرى حاصلة للانسان ، توفيقه للايمان والعمل الصالح .

فذلك أول البشارة وأصلها .

ومن بعده ، البشرى عند الموت .

ومن بعده ، الوصول إلى هذا النعيم المقيم . نسأل الله من فضله .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى [إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما] أى أى مثل كان [بعوضة فما فوقها] لاشتمال الأمثال على الحكمة ، وإيضاح الحق ، والله لايستحى من الحق .

وكأن فى هذا ، جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال فى الأشياء الحقيرة . واعترض على الله فى ذلك . فليس فى ذلك محل اعتراض . بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم . فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر . ولهذا قال :

[فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم] فيفهمونها . ويتفكرون فيها .

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل . ازداد بذلك علمهم وإيمانهم . وإلا علموا أنها حق . وما اشتملت عليه حق . وإن خفى عليهم وجه الحق فيها . لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً . بل لحكمة بالغة . ونعمة سابغة .

[وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا] فيعترضون

. . . .

ويتحيرون . فيزدادون كفراً إلى كفرهم . كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم . ولهذا قال :

[يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً] .

فهذه حال المؤمنين والكافرين . عند نزول الآيات القرآنية .

قال تعالى [وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمــاناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون] .

فلا أعظم نعمة على العباد . من نزول الآيات القرآنية .

ومع هذا . تكون لقوم محنة . وحيرة . وضلالة . وزيادة شر إلى شرهم .

ولقوم منحة ؛ ورحمة ؛ وزيادة خير إلى خيرهم .

فسبحان من فاوت بين عباده ؛ وانفرد بالهداية والإضلال .

ثم ذكر حكمته وعدله فى إضلاله من يضل فقال :

[وما يضل به إلا الفاسقين] أى : الخارجين عن طاعة الله ؛ المعاندين لرسل الله ؛ الذين صار الفسق وصفهم ؛ فلا يبغون به بدلا .

فاقتضت حكمته تعالى ؛ إضلالهم ؛ لعدم صلاحيتهم للهدى .

كما اقتضى فضله وحكمته ؛ هداية من اتصف بالإيمان ؛ وتحلى بالأعمال الصالحة .

والفسق نوعان : نوع مخرج من الدين ؛ وهو الفسق المقتضى للخروج من الإيمان ؛ كالمذكور فى هذه الآية ونحوها .

. . . .

ونوع غير مخرج من الإيمان كما فى قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا] الآية .

ثم وصف الفاسقين فقال [الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه] .

وهذا يعم العهد الذى بينهم وبين ربهم ؛ والذى بينهم وبين الخلق ؛ الذى أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات .

فلايبالون بتلك المواثيق ؛ بل ينقضونها ؛ ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه ؛ وينقضون العهود التى بينهم وبين الخلق .

[ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل] وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة .

فإن الله أمرنا ؛ أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به ؛ والقيام بعبوديته .

ومابيننا وبين رسوله؛ بالإيمان به ؛ ومحبته ؛ وتعزيره ؛ والقيام بحقوقه .

وما بيننا وبين الوالدين والأقارب ؛ والأصحاب ؛ وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التى أمر الله أن نصلها .

فأما المؤمنون ؛ فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق ؛ وقاموا بها أتم القيام .

وأما الفاسقون ؛ فقطعوها ؛ ونبذوها وراء ظهورهم ؛ معتاضين عنها بالفسق والقطيعة ؛ والعمل بالمعاصى ؛ وهو : الإفساد فى الأرض .

[فأولئك] أى : من هذه صفته [هم الخاسرون] فى الدنيا والآخرة .

فحصر الخسارة فيهم ؛ لأن خسرانهم عام فى كل أحوالهم ؛ ليس لهم

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

نوع من الربح ؛ لأن كل عمل صالح ؛ شرطه الإيمان ؛ فمن لا إيمان له ؛ لاعمل له ؛ وهذا الخسار ؛ هو خسار الكفر .

وأما الخسار الذى قد يكون كفراً ؛ وقد يكون معصية ؛ وقد يكون تفريطاً فى ترك مستحب المذكور فى قوله تعالى [إن الإنسان لفى خسر] فهذا عام لكل مخلوق ؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح ؛ والتواصى بالحق ؛ والتواصى بالصبر ؛ وحقيقة فوات الخير ؛ الذى كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه .

ثم قال تعالى [كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون] .

هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار .

أى : كيف يحصل منكم الكفر بالله ؛ الذى خلقكم من العدم ؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم ؛ ثم يميتكم عند استكمال آجالكم ؛ ويجازيكم فى القبور ؛ ثم يحييكم بعد البعث والنشور ؛ ثم إليه ترجعون ؛ فيجازيكم الجزاء الأوفى .

فإذا كنتم فى تصرفه ؛ وتدبيره ؛ وبره ؛ وتحت أوامره الدينية ؛ وبعد ذلك تحت دينه الجزائى ؛ أفيليق بكم أن تكفروا به ؛ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير . ؟

بل الذى يليق بكم ؛ أن تتقوه ؛ وتشكروه ؛ وتؤمنوا به ؛ وتخافوا عذابه ؛ وترجوا ثوابه .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

[هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا] أى : خلق لكم ، براً بكم ورحمة ، جميع ما على الأرض ، للانتفاع والاستمتاع ، والاعتبار .

وفى هذه الآية الكريمة ، دليل على أن الأصل فى الأشياء ، الإباحة والطهارة ، لأنها سيقت فى معرض الامتنان .

يخرج بذلك ، الخبائث ، فإن تحريمها أيضاً ، يؤخذ من فحوى الآية ، وبيان المقصود منها ، وأنه خلقها لنفعنا ، فما فيه ضرر ، فهو خارج من ذلك .

ومن تمام نعمته ، منعنا من الخبائث ، تنزيها لنا .

وقوله : [ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم] .

﴿ معانى كلمة « استوى » ﴾

[استوى] : ترد فى القرآن على ثلاثة معانى :

فتارة لا تعدى بالحرف . فيكون معناها ، الكمال والتمام ، كما فى قوله عن موسى [ولما بلغ أشده واستوى] .

وتارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » ، وذلك إذا عديت بـ « على » كقوله تعالى : [الرحمن على العرش استوى] ، [لتستووا على ظهوره] .

وتارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عديت بـ « إلى » كما فى هذه الآية .
أى : لما خلق تعالى الأرض ، قصد إلى خلق السماوات ، فسواهن سبع سماوات ، فخلقها وأحكمها ، وأتقنها ، وهو بكل شىء عليم .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

فيعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، و [يعلم ما تسرون ، وما تعلنون] يعلم السر وأخفى .

وكثيراً ما يقرن بين خلقه ، وإثبات علمه كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] لأن خلقه للمخلوقات ، أدل دليل على علمه ، وحكمته ، وقدرته .

[وإذ قال ربك الملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة] .

هذا شروع فى ابتداء خلق آدم عليه السلام أبى البشر ، وفضله ، وأن الله تعالى — حين أراد خلقه — أخبر الملائكة بذلك ، وأن الله مستخلفه فى الأرض .

فقالت الملائكة عليهم السلام : [أتجعل فيها من يفسد فيها] بالمعاصي [ويسفك الدماء] ، وهذا تخصيص بعد تعميم ، لبيان شدة مفسدة القتل .

وهذا بحسب ظنهم أن المجعول فى الأرض ، سيحدث منه ذلك ، فنزهوا البارى عن ذلك ، وعظموه ، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا :

[ونحن نسبح بحمدك] أى : ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك .

[ونقدس لك] يحتمل أن معناها : ونقدسك ، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص .

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

ويحتمل أن يكون، ونقدس لك أنفسنا . أى: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه ، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة .

قال الله للملائكة : [إنى أعلم] من هذا الخليفة [ما لا تعلمون] .

لأن كلامكم بحسب ما ظننتم ، وأنا عالم بالظواهر والسرائر ، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة ، أضعاف أضعاف ما فى ضمن ذلك ، من الشر

فلو لم يكن فى ذلك ، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ولتظهر آياته للخلق ، ويحصل من العبوديات التى لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة ، كالجهاد وغيره ، وليظهر ما كمن فى غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان ، وليتبين عدوه من وليه ، وحزبه من حربه ، وليظهر ما كمن فى نفس إبليس من الشر الذى انطوى عليه ، واتصف به ، فهذه حكم عظيمة ، يكفى بعضها فى ذلك .

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، أراد الله تعالى ، أن يبين لهم من فضل آدم ، ما يعرفون به فضله ، وكمال حكمة الله وعلمه فقال :

[وعلم آدم الأسماء كلها] أى : أسماء الأشياء ، وما هو مسمى لها .

فعلمه الاسم والمسمى ، أى : الألفاظ والمعانى ، حتى المصغر من الأسماء والمكبر ، كالقصعة والقصيعة .

بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

[ثم عرضهم] أى : عرض المسميات [على الملائكة] امتحاناً لهم ، هل يعرفونها أم لا ؟.

[فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين] فى قولكم وظنكم ، أنكم أفضل من هذا الخليفة .

[قالوا سبحانك] أى : ننزهك من الاعتراض منا عليك ، ومخالفة أمرك .

[لا علم لنا] بوجه من الوجوه [إلا ما علمتنا] إياه ، فضلا منك وجودا .

[إنك أنت العليم الحكيم] العليم الذى أحاط علماً بكل شىء ، فلا يغيب عنه ، ولا يعزب مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ولا أصغرمن ذلك ولا أكبر .

الحكيم ، من له الحكمة التامة ، التى لا يخرج عنها مخلوق ، ولا يشذ عنها مأمور .

فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، ولا أمر بشىء إلا لحكمة .

والحكمة : وضع الشىء فى موضعه اللائق به .

فأقروا ، واعترفوا بعلم الله وحكمته ، وقصورهم عن معرفة أدنى شىء .

واعترافهم بفضل الله عليهم ؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون .

فحينئذ قال الله : [يا آدم أنبئهم بأسمائهم] أى : أسماء المسميات التى عرضها الله على الملائكة ؛ فعجزوا عنها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

[فلما أنبأهم بأسمائهم] تبين للملائكة فضل آدم عليهم ؛ وحكمة البارى وعلمه فى استخلاف هذا الخليفة .

[قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض] وهو ما غاب عنا ؛ فلم نشاهده .

فإذا كان عالما بالغيب ؛ فالشهادة من باب أولى .

[وأعلم ما تبدون] أى : تظهرون [وما كنتم تكتمون] .

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم ؛ إكراما له وتعظيما ؛ وعبودية لله تعالى.

فامتثلوا أمر الله ؛ وبادروا كلهم بالسجود .

[إلا إبليس أبى] امتنع عن السجود ؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم ..

قال [أأسجد لمن خلقت طيناً] .

وهذا الإباء منه والاستكبار ؛ نتيجة الكفر الذى هو منطو عليه ؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ؛ ولآدم ؛ وكفره واستكباره .

وفى هذه الآيات من العبر والآيات ؛ إثبات الكلام لله تعالى ؛ وأنه لم يزل متكلما ؛ يقول ما شاء ؛ ويتكلم بما شاء ؛ وأنه عليم حكيم .

وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله فى بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه ؛ التسليم ؛ واتهام عقله ؛ والإقرار لله بالحكمة .

وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة ؛ وإحسانه بهم ؛ بتعليمهم ما جهلوا ؛ وتنبيههم على ما لم يعلموه .

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

وفيه فضيلة العلم من وجوه :

منها : أن الله تعرف للملائكته ؛ بعلمه وحكمته .

ومنها : أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم ؛ وأنه أفضل صفة تكون في العبد .

ومنها : أن الله أمرهم بالسجود لآدم ؛ إكراما له ؛ لما بان فضل علمه .

ومنها : أن الامتحان للغير ؛ إذا عجزوا عما امتحنوا به ؛ ثم عرفه صاحب الفضيلة ؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء .

ومنها الاعتبار بحال أبوى الإنس والجن ؛ وبيان فضل آدم ؛ وأفضال الله عليه ؛ وعداوة إبليس له ؛ إلى غير ذلك من العبر .

لما خلق الله آدم وفضله ؛ أتم نعمته عليه ؛ بأن خلق منه زوجه ؛ ليسكن إليها ؛ ويستأنس بها ؛ وأمرها بسكنى الجنة ؛ والأكل منها رغداً ؛ أى : واسعاً هنيئاً .

[حيث شئتما] أى : من أصناف الثمار والفواكه ؛ وقال الله له :

[إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى].

[ولا تقربا هذه الشجرة] نوع من أنواع شجر الجنة ؛ الله أعلم بها .

وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء ؛ أو لحكمة غير معلومة لنا .

[فتكونا من الظالمين] دل على أن النهى للتحريم ؛ لأنه رتب الظلم عليه .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه ؛ حتى أزلهما أى : حملهما على الزلل بتزيينه .

[وقاسمهما] بالله [إنى لكما لمن الناصحين] فاغترا به وأطاعاه ؛ فأخرجهما مما كانا فيه ؛ من النعيم والرغد ؛ وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة .

[بعضكم لبعض عدو] أى : آدم وذريته ؛ أعداء لإبليس وذريته .

ومن المعلوم أن العدو ؛ يجد ويجتهد فى ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق ؛ وحرمانه الخير بكل طريق .

ففى ضمن هذا ، تحذير بنى آدم من الشيطان كما قال تعالى [إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .] [أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا] .

ثم ذكر منتهى الإهباط فقال [ولكم فى الأرض مستقر] أى : مسكن وقرار .

[ومتاع إلى حين] انقضاء آجالكم ، ثم تنتقلون منها للدار التى خلقتم لها ، وخلقت لكم .

ففيها أن مدة هذه الحياة ، مؤقتة عارضة ، ليست مسكنا حقيقيا ، وإنما هى معبر يتزود منها لتلك الدار ، ولا تعمر للاستقرار .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[فتلقى آدم] أى : تلقف وتلقن ، وألهمه الله [من ربه كلمات] وهى قوله [ربنا ظلمنا أنفسنا] الآية .

فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته [فتاب] الله [عليه] ورحمه [إنه هو التواب] لمن تاب إليه وأناب .

وتوبته نوعان :

توفيقه أولا ، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيا .

[الرحيم] بعباده ، ومن رحمته بهم ، أن وفقهم للتوبة ، وعفا عنهم وصفح .

كرر الإهباط ، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله [فإما يأتينكم منى هدى]

أى : أى وقت وزمان جاءكم منى ، يا معشر الثقلين ، هدى ، أى : رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم منى ، ويدنيكم منى ، ويدنيكم من رضائى.

فمن تبع هداى منكم ، بأن آمن برسلى وكتبى ، واهتدى بهم ، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب ، والامتثال للأمر والاجتناب للنهى .

[فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

وفى الآية الأخرى [فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى] .

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء :

نفى الخوف ، والحزن ، والفرق بينهما ، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن ، وإن كان منتظراً ، أحدث الخوف .

فنفاهما عمن اتبع الهدى وإذا انتفيا، ثبت ضدهما ، وهو الهدى والسعادة.

فمن اتبع هداه،حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى .

وانتفى عنه كل مكروه ، من الخوف ، والحزن ، والضلال ، والشقاء .

فحصل له المرغوب ، واندفع عنه المرهوب .

وهذا عكس من لم يتبع هداه ، فكفر به ، وكذب آياته .

فأولئك أصحاب النار ، أى : الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه .

[هم فيها خالدون] لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وفى هذه الآيات وما أشبهها ، انقسام الخلق من الجن والإنس ، إلى أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك .

وأن الجن كالإنس فى الثواب والعقاب ، كما أنهم مثلهم ، فى الأمر والنهى .

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ

ثم شرع تعالى يذكر بنى إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال :

[يا بنى إسرائيل] المراد بإسرائيل ، يعقوب عليه السلام .

والخطاب مع فرق بنى إسرائيل ، الذين بالمدينة وما حولها ، ويدخل فيهم من أتى بعدهم ، فأمرهم بأمر عام فقال [اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم] ، وهو يشمل سائر النعم ، التى سيذكر فى هذه السورة بعضها .

والمراد ذكرها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ، ثناء ، وبالجوارح ، باستعمالها فيما يحبه ويرضيه .

[وأوفوا بعهدى] وهو ما عهده إليهم من الإيمان به ، وبرسله ، وإقامة شرعه .

[أوف بعهدكم] وهو المجازاة على ذلك .

والمراد بذلك: ما ذكره الله فى قوله [ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى] إلى قوله [فقد ضل سواء السبيل] .

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده ، وهو الرهبة منه تعالى ، وخشيته وحده ، فإن من خشيه ، أوجبت له خشيته ، امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

ثم أمرهم بالأمر الخاص ، الذى لا يتم إيمانهم ، ولا يصح إلا به فقال :

[وآمنوا بما أنزلت] وهو القرآن الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟

فأمرهم بالإيمان به ، واتباعه ، ويستلزم ذلك ، الإيمان بمن أنزل عليه .

وذكر الداعى لإيمانهم فقال [مصدقا لما معكم] أى : موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً .

فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب ، غير مخالف لها ، فلا مانع لكم من الإيمان به ، لأنه جاء بما جاء به المرسلون ، فأنتم أولى من آمن به وصدق به ، لكونكم أهل الكتب والعلم .

وأيضاً فإن فى قوله [مصدقاً لما معكم] إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به ، عاد ذلك عليكم ، بتكذيب ما معكم ، لأن ماجاء به هو الذى جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء .

فتكذيبكم له تكذيب لما معكم .

وأيضاً ، فإن فى الكتب التى بأيديكم ، صفة هذا النبى الذى جاء بهذا القرآن والبشارة به .

فإن لم تؤمنوا به ، كذبتم ببعض ما أنزل إليكم ، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه ، فقد كذب بجميعه .

كما أن من كفر برسوله ، فقد كذب الرسل جميعهم .

فلما أمرهم بالإيمان به ، نهاهم وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال : [ولا تكونوا أول كافر به] أى : بالرسول والقرآن .

وقوله [أول كافر به] أبلغ من قوله [ولا تكفروا به] لأنهم إذا كانوا أول كافر به ، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر ، عكس ما ينبغى منهم ،

بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم .

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان ، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال [ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا] وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل ، التى يتوهمون انقطاعها ، إن آمنوا بالله ورسوله ، فاشتروها بآيات الله واستحبوها ، وآثروها .

[وإياى] أى : لا غيرى [فاتقون] فإنكم إذا اتقيتم الله وحده ، أوجبت لكم تقواه ، تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل .

كما أنكم ، إذا اخترتم الثمن القليل ، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم .

ثم قال [ولا تلبسوا] أى : تخلطوا [الحق بالباطل وتكتموا الحق] فنهاهم عن شيئين ، عن خلط الحق بالباطل ، وكتمان الحق .

لأن المقصود من أهل الكتب والعلم ، تمييز الحق ، وإظهار الحق ، ليهتدى بذلك المهتدون ، ويرجع الضالون ، وتقوم الحجة على المعاندين .

لأن الله فصل آياته ، وأوضح بيناته ، ليميز الحق من الباطل ، ولتستبين سبيل المجرمين .

فمن عمل بهذا من أهل العلم ، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم .

ومن لبس الحق بالباطل ، فلم يميز هذا من هذا ، مع علمه بذلك ، وكتم الحق الذى يعلمه ، وأمر بإظهاره ، فهو من دعاة جهنم ، لأن الناس لا يقتدون فى أمر دينهم بغير علمائهم ، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين .

وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

ثم قال [وأقيموا الصلاة] أي: ظاهراً وباطناً [وآتوا الزكاة] مستحقيها. [واركعوا مع الراكعين] أي : صلوا مع المصلين .

فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله ، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة ، وبين الإخلاص للمعبود ، والإحسان إلى عبيده وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية ، .

وقوله [واركعوا مع الراكعين] أي : صلوا مع المصلين ، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها .

وفيه أن الركوع ، ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع .

والتعبير عن العبادة بجزئها ، يدل على فرضيته فيها .

[أتأمرون الناس بالبر] أي : بالإيمان والخير [وتنسون أنفسكم] أي تتركونها عن أمرها بذلك،والحال [وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون].

وسمى العقل عقلا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير ، وينعقل به عما يضره .

وذلك أن العقل يحث صاحبه ، أن يكون أول فاعل لما يأمر به ، وأول تارك لما ينهى عنه .

. . . .

فمن أمر غيره بالخير ، ولم يفعله ، أو نهاه عن الشر فلم يتركه ، دل على عدم عقله وجهله ، خصوصاً إذا كان عالما بذلك ، قد قامت عليه الحجة .

وهذه الآية ، وإن كانت نزلت فى سبب بنى إسرائيل ، فهى عامة لكل أحد لقوله تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] .

وليس فى الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به ، أنه يترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين .

وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين :

أمر غيره ونهيه ، وأمر نفسه ونهيها .

فترك أحدهما ، لا يكون رخصة فى ترك الآخر .

فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما .

وأما قيامه بأحدهما دون الآخر ، فليس فى رتبة الأول ، وهو دون الأخير .

وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله .

فاقتداؤهم بالأفعال ، أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة .

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

أمرهم الله أن يستعينوا فى أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه .

وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركها ، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها .

فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه ، معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله .

وكذلك الصلاة ، التى هى ميزان الإيمان ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور [وإنها] أي : الصلاة [لكبيرة] أى : شاقة [إلا على الخاشعين] .

فإنها سهلة عليهم خفيفة ، لأن الخشوع ، وخشية الله ، ورجاء ما عنده ، يوجب له فعلها ، منشرحاً صدره ، لترقبه للثواب ، وخشيته من العقاب .

بخلاف من لم يكن كذلك ، فإنه لا داعى له يدعوه إليها ، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والخشوع هو : خضوع القلب وطمأنينته ، وسكونه لله تعالى ، وانكساره بين يديه ، ذلا وافتقاراً ، وإيمانا به وبلقائه .

ولهذا قال [الذين يظنون] أى : يستيقنون [أنهم ملاقو ربهم] فيجازيهم بأعمالهم [وأنهم إليه راجعون] فهذا الذى خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلى فى المصيبات ، ونفس عنهم الكربات ، وزجرهم عن فعل السيئات .

رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

فهؤلاء لهم النعيم المقيم فى الغرفات العاليات .

ومن لم يؤمن بلقاء ربه ، كانت الصلاة وغيرها من العبادات ، من أشق شيء عليه .

ثم كرر على بنى إسرائيل التذكير بنعمته ، وعظاً لهم ، وتحذيراً وحثاً ، وخوفهم بيوم القيامة الذى [لا تجزى] فيه أى: لا تغنى [نفس] ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين [عن نفس] ولو كانت من العشيرة الأقربين [شيئاً] لا كبيراً ولا صغيراً وإنما ينفع الإنسان عمله الذى قدمه .

[ولا يقبل منها] أى : النفس ، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له ، ولا يرضى منه العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة .

[ولا يؤخذ منها عدل] أى : فداء « ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب » ولايقبل منهم ذلك [ولا هم ينصرون] أى : يدفع عنهم المكروه .

فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَـكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ

فقوله [لا تجزى نفس عن نفس شيئاً] هذا فى تحصيل المنافع .

[ولا هم ينصرون] هذا فى دفع المضار ، فهذا النفى للأمر المستقبل به النافع .

ولا تقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، هذا نفى للنفع الذى يطلب ممن يملكه بعوض ، كالعدل ، أو بغيره ، كالشفاعة .

فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين ، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع ، وأن يعلقه بالله الذى يجلب المنافع ، ويدفع المضار ، فيعبده وحده لا شريك له ويستعين على عبادته .

هذا شروع فى تعداد نعمه على بنى إسرائيل على وجه التفصيل فقال : [وإذ نجيناكم من آل فرعون] أى : من فرعون وملأه وجنوده وكانوا قبل ذلك [يسومونكم] أى: يولونهم ويستعملونهم (والمعنى يذيقونكم).

[سوء العذاب] أى أشده بأن كانوا [يذبحون أبناءكم] خشية نموكم .

[ويستحيون نساءكم] أى : فلا يقتلونهن فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم .

[وفى ذلك] أى : الإنجاء [بلاء] أى : إحسان [من ربكم عظيم]. فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره .

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة .

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾

ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده ، أي ذهابه .

[وأنتم ظالمون] تعلمون بظلمكم ، قد قامت عليكم الحجة ، فهو أعظم جرما وأكبر إثما .

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً فعفا الله عنكم بسبب ذلك [لعلكم تشكرون] الله .

[وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] وهذا غاية الجرأة على الله وعلى رسوله .

[فأخذتكم الصاعقة] إما الموت أو الغشية العظيمة .

[وأنتم تنظرون] وقوع ذلك ، كل ينظر إلى صاحبه .

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ

[ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون] .

ثم ذكر نعمته عليهم فى التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال [وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن] وهو اسم جامع لكل رزق يحصل بلا تعب ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك .

[والسلوى] طائر صغير يقال له السمانى طيب اللحم فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم [كلوا من طيبات ما رزقنا كم] أى : رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين ، فلم يشكروا هذه النعمة ، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

[وما ظلمونا] يعنى بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين ، كما لا تنفعه طاعات الطائعين .

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فيعود ضرره عليهم .

وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزا ووطنا ومسكنا ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد وأن يكون

خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب سجداً ، أى : خاضعين ذليلين .

وبالقول ، وهو أن يقولوا [حطة] أى أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته .

[يغفر لكم خطاياكم] بسؤالكم المغفرة .

[وسنزيد المحسنين] بأعمالهم ، أى جزاء عاجلا وآجلا .

[فبدل الذين ظلموا] منهم،ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا [قولا غير الذى قيل لهم] فقالوا بدل حطة حبة فى حنطة استهانة بأمر الله ، واستهزاء وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى.

ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال [فأنزلنا على الذين ظلموا « منهم » رجزا] .

أي : عذابا [من السماء بما كانوا يفسقون] بسبب فسقهم وبغيهم .

استسقى ، أى : طلب لهم ماء يشربون منه .

[فقلنا اضرب بعصاك الحجر] إما حجر مخصوص معلوم عنده ، وإما اسم جنس .

ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ

[فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا] وقبائل بنى إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة.

[قد علم كل أناس مشربهم] أى: محلهم الذى يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال [كلوا واشربوا من رزق الله] أى: الذى آتاكم من غير سعى ولا تعب.

[ولا تعثوا فى الأرض] أى: تخربوا على وجه الإفساد.

أى: واذكروا، إذ قلتم لموسى، على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها.

[لن نصبر على طعام واحد] أى: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعا، لكنها لا تتغير.

[فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها] أى: نباتها الذى ليس بشجر يقوم على ساقه.

[وقثائها] وهو الخيار [وفومها] أى ثومها. (وعدسها وبصلها) والعدس والبصل معروف.

ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِئَايَٰتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قال لهم موسى [أتستبدلون الذى هو أدنى] وهو الأطعمة المذكورة .

[بالذى هو خير] وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم .

فإن هذه الأطعمة التى طلبتموها ، أى مصر هبطتموه وجدتموها .

وأما طعامكم الذى من الله به عليكم ، فهو خير الأطعمة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلا ؟

ولما كان الذى جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم فقال [وضربت عليهم الذلة] التى تشاهد على ظاهر أبدانهم [والمسكنة] بقلوبهم .

فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهممهم أردأ الهمم .

[وباءوا بغضب من الله] أى : لم تكن غنيمتهم التى رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست الحالة حالتهم .

[ذلك] الذى استحقوا به غضبه [بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله] الدالات على الحق الموضحة له ، فلما كفروا بها ، عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا [يقتلون النبيين بغير حق] .

. . . .

وقوله [بغير حق] زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين ، لا يكون بحق ، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

[ذلك بما عصوا] بأن ارتكبوا معاصى الله [وكانوا يعتدون] على عباد الله ، فإن المعاصى يجر بعضها بعضا .

فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب فى هذه الآيات لأمة بنى إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزون القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهى فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة .

منها أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به .

فبين الله من أحوال سلفهم التى قد تقررت عندهم، مايبين به لكل واحد منهم ، أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالى الأعمال .

فإذا كانت هذه حالة سلفهم — مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ، ممن بعدهم — فكيف الظن بالمخاطبين ؟ ! ! .

ومنها أن نعمة الله على المتقدمين منهم ، نعمة واصلة إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء .

فخوطبوا بها ، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم فى وقت واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع .

لأن ما يعمله بعضهم من الخير ، يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكرها ، والراضى بالمعصية شريك للعاصى .

إلى غير ذلك من الحكم ، التى لا يعلمها إلا الله .

ثم قال تعالى حاكما بين الفرق الكتابية [إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة ، لأن الصابئين ، الصحيح ، أنهم من جملة فرق النصارى .

فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة ، واليهود والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وصدقوا رسلهم ، فإن لهم الأجر العظيم ، والأمن ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر ، فهو بضد هذه الحال ، فعليه الخوف والحزن .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف ، من حيث هم ، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا ، إخبار عنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وأن هذا مضمون أحوالهم .

وهذه طريقة القرآن ، إذا وقع فى بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام ، فلابد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم ، لأنه تنزيل ممن يعلم الأشياء قبل وجودها ، ومن رحمته وسعت كل شيء .

وذلك — والله أعلم — أنه لما ذكر بنى إسرائيل وذمهم ، وذكر معاصيهم وقبائحهم ، ربما وقع فى بعض النفوس ، أنهم كلهم يشملهم الذم .

فأراد البارى تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه .

ولما كان أيضاً ، ذكر بنى إسرائيل خاصة ، يوهم الاختصاص بهم ، ذكر تعالى حكما عاما يشمل الطوائف كلها ، ليتضح الحق ، ويزول التوهم والإشكال .

فسبحان من أودع فى كتابه ، ما يبهر عقول العالمين .

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بنى إسرائيل بما فعل سلفهم فقال :

[وإذ أخذنا ميثاقكم] الآية .

أى : واذكروا [إذ أخذنا ميثاقكم] وهو العهد الثقيل المؤكد

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

بالتخويف لهم ، برفع الطور فوقهم وقيل لهم [خذوا ما آتيناكم] من التوراة [بقوة] أى : بجد واجتهاد ، وصبر على أوامر الله .

[واذكروا ما فيه] أى : ما فى كتابكم ، بأن تتلوه وتتعلموه .

[لعلكم تتقون] عذاب الله وسخطه ، أو لتكونوا من أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البالغ [توليتم] وأعرضتم ، وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات .

ولكن [لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين] .

[ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت] أى : ولقد تقرر عندكم حالة [الذين اعتدوا منكم فى السبت] وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله [واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت] الآيات .

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم ، أن غضب الله عليهم ، وجعلهم [قردة خاسئين] حقيرين ذليلين .

وجعل الله هذه العقوبة [نكالا لما بين يديها] أى : لمن حضرها من الأمم ، وبلغه خبرها ، ممن هو فى وقتهم .

[وما خلفها] أى: من بعدها ، فتقوم على العباد حجة الله ، وليرتدعوا عن معاصيه ، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين .

وأما من عداهم ، فلا ينتفعون بالآيات

۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ

أي : واذكروا ما جرى لكم مع موسى ، حين قتلتم قتيلا ، فادارئتم فيه ، أي : تدافعتم واختلفتم فى قاتله ، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد — لولا تبيين الله لكم — يحدث بينكم شر كبير .

فقال لكم موسى فى تبين القائل : اذبحوا بقرة .

وكان من الواجب، المبادرة إلى امتثال أمره ، وعدم الاعتراض عليه.

ولكنهم أبوا إلا الاعتراض ، فقالوا : [أتتخذنا هزوا] فقال نبى الله [أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين].

فإن الجاهل هو الذى يتكلم بالكلام الذى لا فائدة فيه ، وهو الذى يستهزىء بالناس .

وأما العاقل ، فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل ، استهزاءه بمن هو آدمى مثله . وإن كان قد فضل عليه ، فتفضيله يقتضى منه الشكر لربه ، والرحمة لعباده .

فلما قال لهم موسى ذلك ، علموا أن ذلك صدق فقالوا [ادع لنا ربك يبين لنا ما هى] أى : ما سنها [قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض] أى : كبيرة [ولا بكر] أى : صغيرة [عوان بين ذلك] أى : متوسطة بين السنين ، المذكورين سابقا . وهما الصغر والكبر .

وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ

[فافعلوا ما تؤمرون] واتركوا التشديد والتعنت .

[قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها] أى : شديد [تسر الناظرين] من حسنها .

[قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا] فلم نهتد إلى ما تريد [وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال : إنه يقول إنها بقرة لا ذلول] أى مذللة بالعمل .

[تثير الأرض] بالحراثة [ولا تسقى الحرث] أى : ليست بسانية [مسلمة] من العيوب أو من العمل [لا شية فيها] أى : لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم .

[قالوا الآن جئت بالحق] أى : بالبيان الواضح .

وهذا من جهلهم ، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة .

فلو أنهم اعترضوا أى بقرة ، لحصل المقصود ، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم ، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها.

[فذبحوها] أى : البقرة التى وصفت بتلك الصفات .

[وما كادوا يفعلون] بسبب التعنت الذى جرى منهم .

فلما ذبحوها ، قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها ، أى : بعضو منها ،

تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ

إما بعضو معين ، أو أى عضو منها ، فليس فى تعيينه فائدة ، فضربوه ببعضها فأحياه الله ، وأخرج ما كانوا يكتمون ، فأخبر بقاتله .

وكان فى إحيائه — وهم يشاهدون — ما يدل على إحياء الله الموتى .

لعلكم تعقلون ، فتنزجرون عن ما يضركم .

[ثم قست قلوبكم] أى : اشتدت وغلظت ، فلم تؤثر فيها الموعظة .

[من بعد ذلك] أى : من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة ، وأراكم الآيات .

ولم يكن ينبغى أن تقسو قلوبكم ، لأن ما شاهدتم ، مما يوجب رقة القلب وانقياده .

ثم وصف قسوتها بأنها [كالحجارة] التى هى أشد قسوة من الحديد .

لأن الحديد والرصاص إذا أذيب فى النار ، ذاب ، بخلاف الأحجار .

وقوله [أو أشد قسوة] أى : إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار .

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

وليست « أو » بمعنى « بل ».

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال [وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله] فبهذه الأمور فضلت قلوبكم.

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال [وما الله بغافل عما تعملون] بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها ، وسيجازيكم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله ، قد أكثروا فى حشو تفاسيرهم من قصص بنى إسرائيل ، ونزلوا عليها الآيات القرآنية ، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله ، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ﴾.

والذى أرى أنه ، وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه ، تكون مفردة غير مقرونة ، ولا منزلة على كتاب الله ، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴾.

فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها ، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التى يغلب على الظن كذبها ، أو كذب أكثرها ، معانى لكتاب الله ، متطوعا بها ، ولا يستريب بهذا أحد .

ولكن بسبب الغفلة عن هذا ، حصل ما حصل . والله الموفق .

هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب ، أى : فلا تطمعوا فى إيمانهم .

وأخلاقهم لا تقتضى الطمع فيهم ، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه ، فيضعون له معانى ، ما أرادها الله ، ليوهموا الناس أنها من عند الله ، وما هى من عند الله .

فإذا كانت حالهم فى كتابهم الذى يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله ، فكيف يرجى منهم إيمان لكم ؟! .

فهذا من أبعد الأشياء .

ثم ذكر حال منافقى أهل الكتاب فقال [وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا] فأظهروا لهم الإيمان قولا بألسنتهم ، ما ليس فى قلوبهم .

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

[وإذا خلا بعضهم إلى بعض] فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض : [أتحدثونهم بما فتح الله عليكم] أى : أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم ، فيكون ذلك حجة لهم عليكم ؟ .

يقولون : إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق ، وما هم عليه باطل ، فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم .

[أفلا تعقلون] أى : أفلا يكون لكم عقل ، فتتركون ما هو حجة عليكم ؟ . هذا يقوله بعضهم لبعض .

[أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون] فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم ، وزعموا أنهم بإسرارهم ، لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين ، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير ، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم ، فيظهر لعباده ما هم عليه .

[ومنهم] أى : من أهل الكتاب [أميون] أى : عوام ، وليسوا من أهل العلم .

[لا يعلمون الكتاب إلا أمانى] أى : ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط ، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم ، وهؤلاء ، إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم .

فذكر فى هذه الآيات علماءهم ، وعوامهم ، ومنافقيهم ، ومن لم ينافق منهم ، فالعلماء منهم ، متمسكون بما هم عليه من الضلال .

والعوام مقلدون لهم ، لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم فى الطائفتين .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

توعد تعالى المحرفين للكتاب ، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون [هذا من عند الله] وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق ، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم [ليشتروا به ثمنا قليلا] .

والدنيا كلها — من أولها إلى آخرها ثمن — قليل .

فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما فى أيدى الناس ، فظلموهم من وجهين :

من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوها .

ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال [فويل لهم مما كتبت أيديهم] أى : من التحريف والباطل [وويل لهم مما يكسبون] من الأموال .

والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفى ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام(١) لما ذكر هذه الآيات من قوله (أفتطمعون) إلى (يكسبون) : فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة ، على ما أصله من البدع الباطلة .

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه .

ومتناول لمن كتب كتابا بيده ، مخالفاً لكتاب الله ، لينال به دنيا

---

(١) هو ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه .

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

وقال : إنه من عند الله ، مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الـكتاب والسنة ، وهذا معقول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين ، الذى يجب اعتقاده على الأعيان والـكفاية .

ومتناول لمن كتم ما عنده من الـكتاب والسنة ، لئلا يحتج به مخالفه فى الحق الذى يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جداً فى أهل الأهواء جملة ، كالرافضة ، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء . انتهى .

ذكر أفعالهم القبيحة ، ثم ذكر ـ مع هذا ـ أنهم يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله ، والفوز بثوابه ، وأنهم لم تمسهم النار إلا أياما معدودة ، أى : قليلة تعد بالأصابع ، فجمعوا بين الإساءة والأمن .

ولما كان هذا مجرد دعوى ، رد الله تعالى عليهم فقال :

[قل]لهم، يا أيها الرسول[أتخذتم عند الله عهداً] أى بالإيمان به وبرسله وبطاعته ، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذى لا يتغير ولا يتبدل .

[أم تقولون على الله ما لا تعلمون] ؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم ومتوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما .

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً ، فتكون دعواهم صحيحة .

وإما أن يكونوا متقولين عليه ، فتكون كاذبة ، فيكون أبلغ لخزيهم عذابهم .

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً ، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء ، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم ، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق .

فتعين بذلك ، أنهم متقولون مختلقون ، قائلون عليه ما لا يعلمون .

والقول عليه بلا علم ، من أعظم المحرمات ، وأشنع القبيحات .

ثم ذكر تعالى ، حكما عاما لكل أحد ، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم ، وهو الحكم الذى لا حكم غيره ، لا أمانيهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين فقال : [بلى] أى : ليس الأمر كما ذكرتم ، فإنه قول لا حقيقة له .

ولكن [من كسب سيئة] وهو نكرة فى سياق الشرط ، فيعم الشرك فما دونه .

والمراد به : ـ هنا ـ الشرك ، بدليل قوله [وأحاطت به خطيئته] أى : أحاطت بعاملها ، فلم تدع له منفذاً ، وهذا لا يكون إلا الشرك ، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته .

[فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية ، وهى حجة عليهم كما ترى ، فإنها ظاهرة فى الشرك ، وهكذا كل مبطل يحتج بآية ، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه .

﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ

[والذين آمنوا] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .
[وعملوا الصالحات] ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين :

أن تكون خالصة لوجه الله ، متبعاً بها سنة رسوله .

فحاصل هاتين الآيتين ، أن أهل النجاة والفوز ، هم أهل الإيمان والعمل الصالح .

والهالكون أهل النار هم المشركون بالله ، الكافرون به .

فهذه الشرائع من أصول الدين ، التى أمر الله بها فى كل شريعة ، لاشتمالها على المصالح العامة ، فى كل زمان ومكان ، فلا يدخلها نسخ ، كأصل الدين .

ولهذا أمرنا بها فى قوله [واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً] إلى آخر الآية .

فقوله [وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل] هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به ، استعصوا(١) فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة ، والعهود الموثقة .

[لا تعبدون إلا الله] هذا أمر بعبادة الله وحده ، ونهى عن الشرك به .

وهذا أصل الدين ، فلا تقبل الأعمال كلها ، إن لم يكن هذا أساسها ، فهذا حق الله تعالى على عباده ، ثم قال :

---

(١) قوله (أن كل أمر أمروا به . إلخ) هكذا فى الأصل ، والعبارة قلقة كما ترى والأوضح أن يقال (أنهم كلما أمروا بأمر ، استعصوا . إلخ) .

حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

[وبالوالدين إحسانا] أى : أحسنوا بالوالدين إحسانا .

وهذا يعم كل إحسان ، قولى ، وفعلى ، مما هو إحسان إليهم .

وفيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين ، أو عدم الإحسان والإساءة .

لأن الواجب ، الإحسان ، والأمر بالشيء ، نهى عن ضده .

وللإحسان ضدان : الإساءة ، وهى أعظم جرما .

وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن يلحق بالأول .

وكذا يقال فى صلة الأقارب واليتامى ، والمساكين .

وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد ، بل تكون بالحد ، كما تقدم .

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال: [وقولوا للناس حسنا] ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .

ولما كان الإنسان لايسع الناس بماله ، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون فى ضمن ذلك ، النهى عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار ، ولهذا قال تعالى : [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن] .

ومن أدب الإنسان الذى أدب الله به عباده ، أن يكون الإنسان نزيها فى أقواله وأفعاله ، غير فاحش ولا بذىء ، ولا شاتم ، ولا مخاصم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

بل يكون حسن الخلق ، واسع الحلم ، مجاملا لكل أحد ، صبورا على ما يناله من أذى الخلق ، امتثالا لأمر الله ، ورجاء لثوابه .

ثم أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للاخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة للاحسان إلى العبيد .

ثم بعد هذا الأمر لكم ، بهذه الأوامر الحسنة التى إذا نظر إليها البصير العاقل ، عرف أن من إحسان الله على عباده ، أن أمرهم بها ، ، وتفضل بها عليهم ، وأخذ المواثيق عليكم [ثم توليتم] على وجه الإعراض .

لأن المتولى قد يتولى ، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه .

وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع فى هذه الأوامر .

فنعوذ بالله من الخذلان .

وقوله [إلا قليلا منكم] هذا استثناء ، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم .

فأخبر أن قليلا منهم ، عصمهم الله وثبتهم .

وهذا الفعل المذكور فى هذه الآية ، فعل للذين كانوا فى زمن الوحى بالمدينة .

وذلك أن الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مشركين ، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية .

فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود ، بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع .

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ

فكل فرقة منهم ، حالفت فرقة من أهل المدينة .

فكانوا إذا اقتتلوا ، أعان اليهودى حليفه على مقاتليه ، الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود ، فيقتل اليهودى اليهودى ، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب .

ثم إذا وضعت الحرب أوزارها ، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا .

والأمور الثلاثة كلها ، قد فرضت عليهم .

ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وإذا وجدوا أسيراً منهم ، وجب عليهم فداؤه .

فعملوا بالأخير وتركوا الأولين ، فأنكر الله عليهم ذلك فقال :

[أفتؤمنون ببعض الكتاب] وهو فداء الأسير [وتكفرون ببعض] وهو القتل والإخراج .

وفيها دليل على أن الإيمان ، يقتضى فعل الأوامر ، واجتناب النواهى وأن المأمورات من الإيمان قال تعالى :

[فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا] وقد وقع ذلك.

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

فأخزاهم الله ، وسلط رسوله عليهم ، فقتل من قتل ، وسبى من سبى منهم ، وأجلى من أجلى .

[ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب] أى : أعظمه [وما الله بغافل عما تعملون] .

ثم أخبر تعالى عن السبب الذى أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب ، والإيمان ببعضه فقال : [أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة] توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار ؛ فاختاروا النار على العار .

فلهذا قال : [فلا يخفف عنهم العذاب] بل : هو باق على شدته ، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات .

[ولا هم ينصرون] أى : يدفع عنهم مكروه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يمتن تعالى على بنى إسرائيل، أن أرسل لهم كليمه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليه السلام.

وآتاه من الآيات البينات، ما يؤمن على مثله البشر.

[وأيدناه بروح القدس] أى : قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين : إنه جبريل عليه السلام، وقيل : إنه الإيمان الذى يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التى لا يقدر قدرها، لما أتوكم [بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم] عن الإيمان بهم.

[ففريقاً] منهم [كذبتم وفريقاً تقتلون] فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة.

وفيها من التوبيخ والتشديد، ما لا يخفى.

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ

أى : اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه ، يا أيها الرسول ، بأن قلوبهم غلف ، أى : عليها غلاف وأغطية ، فلا تفقه ما تقول .

يعنى، فيكون لهم — بزعمهم — عذر لعدم العلم ، وهذا كذب منهم .

فلهذا قال تعالى : [بل لعنهم الله بكفرهم] أى : أنهم مطرودون ملعونون ، بسبب كفرهم .

فقليلا ، المؤمن منهم ، أو قليلا ، إيمانهم . وكفرهم هو الكثير .

أى : ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق ، وخاتم الأنبياء ، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين فى الجاهلية حروب ، استنصروا بهذا النبى ، وتوعدوهم بخروجه ، وأنهم يقاتلون المشركين معه .

فلما جاءهم هذا الكتاب والنبى الذى عرفوا ، كفروا به، بغياً وحسداً، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

فلعنهم الله ، وغضب عليهم غضباً بعد غضب ، لكثرة كفرهم ، وتوالى شكهم وشركهم .

أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ

[ولهم فى الآخرة عذاب مهين] أى : مؤلم موجع ، وهو صلى الجحيم ، وفوت النعيم المقيم .

فبئس الحال حالهم ، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله ، الكفر به ، وبكتبه ، وبرسله ، مع علمهم وتيقنهم ، فيكون أعظم لعذابهم .

أى : وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وهو القرآن استكبروا وعتوا ، و[قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه] أى : بما سواه من الكتب .

مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً ، سواء أنزل عليهم ، أوعلى غيرهم ، وهذا هو الإيمان النافع ، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب ، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان ، بل هو الكفر بعينه ، ولهذا قال تعالى :

[إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله

فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم

ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً] .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ، رداً شافياً ، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه ، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال : [وهو الحق] ،

فإذا كان هو الحق فى جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات ، والأوامر والنواهى ، وهو من عند ربهم ، فالكفر به — بعد ذلك — كفر بالله ، وكفر بالحق الذى أنزله .

ثم قال [مصدقا لما معهم] أى : موافقاً له فى كل ما دل عليه من الحق ومهيمنا عليه .

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم ، وتكفرون بنظيره ؟ .

هل هذا إلا تعصب ، واتباع للهوى لا للهدى ؟

وأيضاً ، فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم ، يقتضى أنه حجة لهم على صدق ما فى أيديهم من الكتب ، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به .

فإذا كفروا به وجحدوه ، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ، ليس له غيرها ، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته ، ثم يأتى هو لبينته وحجته ، فيقدح فيها ويكذب بها ، أليس هذا من الحماقة والجنون ؟

فكان كفرهم بالقرآن ، كفراً بما فى أيديهم ونقضاً له .

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله :

[قل] لهم [فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ . ولقد جاءكم موسى بالبينات] أى : بالأدلة الواضحات المبينة للحق .

مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ثم اتخذتم العجل من بعده] أى : بعد مجيئه [وأنتم ظالمون] فى ذلك ليس لكم عذر .

[وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا] أى : سماع قبول وطاعة واستجابة .

[قالوا سمعنا وعصينا] أى : صارت هذه حالتهم [وأشربوا فى قلوبهم العجل] أى : صبغ حب العجل ، وحب عبادته ، فى قلوبهم ، وشربها بسبب كفرهم .

[قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين] أى : أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق ، وأنتم قتلتم أنبياء الله ، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله ، لما غاب عنكم موسى ، نبى الله ، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم ، فالتزمتم بالقول ، ونقضتم بالفعل .

فما هذا الإيمان الذى ادعيتم ، وما هذا الدين ؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم ، فبئس الإيمان الداعى صاحبه إلى الطغيان ، والكفر برسل الله ، وكثرة العصيان .

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وقد عهد أن الإيمان الصحيح ، يأمر صاحبه بكل خير ، وينهاه عن كل شر .

فوضح بهذا كذبهم ، وتبين تناقضهم .

* أى: [قل] لهم على وجه تصحيح دعواهم [إن كانت لكم الدار الآخرة] يعنى الجنة [خالصة من دون الناس] كما زعمتم ، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة .

فإن كنتم صادقين فى هذه الدعوى [فتمنوا الموت] وهذا نوع مباهلة بينهم ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم ، إلا أحد أمرين:

إما أن يؤمنوا بالله ورسوله .

وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم ، وهو تمنى الموت الذى يوصلهم إلى الدار التى هى خالصة لهم ، فامتنعوا من ذلك .

فعلم كل أحد أنهم فى غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله ، مع علمهم بذلك .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ولهذا قال تعالى [ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم] من الكفر والمعاصى ، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة .

فالموت أكره شىء إليهم ، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس ، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب .

ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال : [يود أحدهم لو يعمر ألف سنة] .

وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ، تمنوا حالة هى من المحالات .

والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور ، لم يغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا .

[والله بصير بما يعملون] تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم .

* أى: قل لهؤلاء اليهود ، الذين زعموا أن الذى منعهم من الإيمان بك، أن وليك جبريل عليه السلام ، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا : إن هذا الزعم منكم ، تناقض وتهافت ، وتكبر على الله .

فإن جبريل عليه السلام هو الذى نزل القرآن من عند الله على قلبك ، وهو الذى ينزل على الأنبياء قبلك ، والله هو الذى أمره ، وأرسله بذلك ، فهو رسول محض .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

مع أن هذا الكتاب الذى نزل به جبريل ـ مصدقاً لما تقدمه من الكتب ـ غير مخالف لها ولا مناقض ، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات ، والبشارة بالخير الدنيوى والأخروى ، لمن آمن به .

فالعداوة لجبريل ، الموصوف بذلك ، كفر بالله وآياته ، وعداوة لله ولرسله وملائكته .

فإن عداوتهم لجبريل ، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق ، على رسل الله .

فيتضمن الكفر والعداوة ، للذى أنزله وأرسله ، والذى أرسل به ، والذى أرسل إليه ، فهذا وجه ذلك .

* يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم [ولقد أنزلنا إليك آيات بينات] تحصل بها الهداية لمن استهدى ، وإقامة الحجة على من عاند ، وهى فى الوضوح والدلالة على الحق ، قد بلغت مبلغاً عظيما ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله ، وخرج عن طاعة الله ، واستكبر غاية التكبر .

وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم ، وعدم صبرهم على الولاء بها .

* فـ [كلما] تفيد التكرار ، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض .

ما السبب فى ذلك ؟ .

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ

فعدم إيمانهم هو الذى أوجب لهم نقض العهود .

ولو صدق إيمانهم ، لكانوا مثل من قال الله فيهم :

[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه] .

* أى: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به .

[نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله] الذى أنزل إليهم أى طرحوه رغبة عنه [وراء ظهورهم] وهذا أبلغ فى الإعراض كأنهم فى فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به ، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق فى أيديهم شىء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول ، فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون .

ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ماينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع ، ابتلى بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عبادة الرحمن ، ابتلى بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ، ابتلى بمحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ومن لم ينفق ماله فى طاعة الله أنفقه فى طاعة الشيطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلى بالذل للعبيد .

ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ

ومن ترك الحق ابتلى بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة فى ذلك فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق فى قيله :

[وما كفر سليمان] أى : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه .

[ولكن الشياطين كفروا] فى ذلك .

[يعلمون الناس السحر] من إضلالهم وحرصهم على إغواء بنى آدم

وكذلك اتبع اليهود السحر الذى أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

[وما يعلمان من أحد حتى] ينصحاه ، و [يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر] أى : لا تتعلم السحر فإنه كفر فينهيانه عن السحر ويخبرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام .

وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة .

ٱشْتَرَىٰهُ مَالَهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذى تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفاسد السحر فقال : [فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه] مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن الله قال فى حقهما [وجعل بينكم مودة ورحمة] وفى هذا دليل على أن السحر له حقيقة وأنه يضر بإذن الله أى بإرادة الله ، والإذن نوعان :

إذن قدرى وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما فى هذه الآية .

وإذن شرعى كما فى قوله تعالى فى الآية السابقة .

[فإنه نزله على قلبك بإذن الله] وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير ، ولم يخالف فى هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية فى أفعال العباد زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله .

فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ، ليس فيه منفعة لادينية ولادنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية فى بعض المعاصى .

كما قال تعالى فى الخمر والميسر [قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ

فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلا ، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها .

[ولقد علموا] أى اليهود [لمن اشتراه] أي : رغب فى السحر رغبة المشتري فى السلعة .

[ما له فى الآخرة من خلاق] أى : نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ، فلم يكن فعلهم إياه جهلا ، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

[ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون] علما يثمر العمل ما فعلوه .

* كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين [راعنا] أى : راع أحوالنا ، فيقصدون بها معنى صحيحاً .

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً ، فانتهزوا الفرصة ، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ، ويقصدون المعنى الفاسد .

فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، سداً لهذا الباب .

ففيه النهى عن الجائز ، إذا كان وسيلة إلى محرم .

مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

وفيه الأدب ، واستعمال الألفاظ ، التى لا تحتمل إلا الحسن ، وعدم الفحش ، وترك الألفاظ القبيحة ، أو التى فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق .

فأمرهم بلفظة ، لا تحتمل إلا الحسن فقال [وقولوا انظرنا] .

فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور .

[واسمعوا] لم يذكر المسموع ، ليعم ما أمر باستماعه .

فيدخل فيه سماع القرآن ، وسماع السنة التى هى الحكمة ، لفظاً ومعنى ، واستجابة .

ففيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع ، وأخبر عن عداوة اليهود المشركين للمؤمنين ، أنهم ما يودون [أن ينزل عليكم من خير] .

أى : لا قليلا ولا كثيراً [من ربكم] حسداً منهم ، وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله فإنه [ذو الفضل العظيم] .

ومن فضله عليكم ، أنزل الكتاب على رسولكم ، ليزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فله الحمد والمنة .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

النسخ ، هو النقل ، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع ، إلى حكم آخر ، أو إلى إسقاطه .

وكان اليهود ينكرون النسخ ، ويزعمون أنه لا يجوز ، وهو مذكور عندهم فى التوراة ، فإنكارهم له ، كفر وهوى محض .

فأخبر الله تعالى عن حكمته فى النسخ فقال :

[ما ننسخ من آية أو ننسها] أى : ننسها العباد ، فنزيلها من قلوبهم .

[نأت بخير منها] وأنفع لكم [أو مثلها] .

فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول ، لأن فضله تعالى يزداد ، خصوصاً على هذه الأمة ، التى سهل عليها دينها ، غايه التسهيل.

وأخبر أن من قدح فى النسخ ، قدح فى ملكه وقدرته فقال :

[ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض] .

فإذا كان مالكا لكم ، متصرفا فيكم ، تصرف المالك البر الرحيم فى أقداره وأوامره ونواهيه ، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير ، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام .

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية و القدرية ، فما له والاعتراض؟

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

وهو أيضاً ، ولى عباده ، ونصيرهم .

فيتولاهم فى تحصيل منافعهم ، وينصرهم فى دفع مضارهم .

فمن ولايته لهم ، أن يشرع لهم من الأحكام ، ماتقتضيه حكمته ورحمته بهم .

ومن تأمل ما وقع فى القرآن والسنة من النسخ ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده ، وإيصالهم إلى مصالحهم ، من حيث لا يشعرون بلطفه .

* ينهى الله المؤمنين ، أو اليهود ، بأن يسألوا رسولهم [كما سئل موسى من قبل] .

والمراد بذلك ، أسئلة التعنت والاعتراض ، كما قال تعالى :

[يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة] .

وقال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم] .

فهذه ونحوها ، هى المنهى عنها .

وأما سؤال الاسترشاد والتعليم ، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى [فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون] .

ويقرهم عليه ، كما فى قوله [يسئلونك عن الخمر والميسر] و [يسألونك عن اليتامى] ونحو ذلك .

ولما كانت المسائل المنهى عنها مذمومة ، قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال : [ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل] .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب ، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا [لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا] وسعوا فى ذلك ، وعملوا المكايد ، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى :

[وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون] وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم .

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم بالعفو عنهم ، والصفح ، حتى يأتى الله بأمره .

ثم بعد ذلك ، أتى الله بأمره إياهم بالجهاد ، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم ، فقتلوا من قتلوا ، واسترقوا من استرقوا ، وأجلوا من أجلوا [إن الله على كل شىء قدير] .

ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات .

ووعدهم أنهم ، مهما فعلوا من خير ، فإنه لايضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه [إن الله بما تعملون بصير] .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أى : قال اليهود ، لن يدخل الجنة إلا من كان هودا .

وقالت النصاري ، لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى .

فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة ، إلا بحجة وبرهان ، فأتوا بها إن كنتم صادقين .

وهكذا كل من ادعى دعوى ، لابد أن يقيم البرهان على صحة دعواه .

وإلا ، فلو قلبت عليه دعواه ، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما .

فالبرهان ، هو الذى يصدق الدعوى أو يكذبها .

ولما لم يكن بأيديهم برهان ، علم كذبهم بتلك الدعوى .

ثم ذكر تعالى البرهان الجلى العام لكل أحد ، فقال : [بلى] أى : ليس بأمانيكم ودعاويكم ، ولكن [من أسلم وجهه لله] أى : أخلص لله أعماله ، متوجها إليه بقلبه .

[وهو] مع إخلاصه [محسن] فى عبادة ربه ، بأن عبده بشرعه ، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم .

[فله أجره عند ربه] وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم [ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] فحصل لهم المرغوب ، ونجوا من المرهوب .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ

ويفهم منها ، أن من ليس كذلك ، فهو من أهل النار الهالكين .

فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول .

وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد ، إلى أن بعضهم ضلل بعضاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم .

فكل فرقة تضال الأخرى ، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل ، الذي أخبر به عباده ، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين ، وامتثل أوامر ربه ، واجتنب نواهيه ، ومن عداهم ، فهو هالك .

* أي : لا أحد أظلم ، وأشد جرما ، ممن منع مساجد الله ، عن ذكر الله فيها ، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات .

[وسعى] أي : اجتهد وبذل وسعه [في خرابها] الحسي والمعنوي .

فالخراب الحسي : هدمها وتخريبها ، وتقذيرها .

والخراب المعنوي ، منع الذاكرين لاسم الله فيها .

وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

وهذا عام ، لكل من اتصف بهذه الصفة ، فيدخل فى ذلك أصحاب الفيل ، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية ، والنصاري حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة ، الساعين فى خرابها ، محادة لله ، ومشاقة .

فجازاهم الله ، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدراً ، إلا خائفين ذليلين ، فلما أخافوا عباد الله ، أخافهم الله .

فالمشركون الذين صدوا رسوله ، لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيراً ، حتى أذن الله له فى فتح مكة .

ومنع المشركين من قربان بيته ، فقال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] .

وأصحاب الفيل ، قد ذكر الله ما جرى عليهم .

والنصارى ، سلط الله عليهم المؤمنين ، فأجلوهم .

وهكذا كل من اتصف بوصفهم ، فلابد أن يناله قسطه ، وهذا من الآيات العظيمة ، أخبر بها البارى قبل وقوعها ، فوقعت كما أخبر .

واستدل العلماء بالآية الكريمة ، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد .

[لهم فى الدنيا خزي] فضيحة كما تقدم [ولهم فى الآخرة عذاب عظيم] .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فلا أعظم إيماناً ممن سعى فى عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية ، كما قال تعالى :

[إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر] .

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها ، فقال تعالى :

[فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه] .

والمساجد أحكام كثيرة ، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة .

أى : [ولله المشرق والمغرب] .

خصهما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، فى مطالع الأنوار ومغاربها .

فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات .

[فأينما تولوا] وجوهكم من الجهات ، إذا كان توليكم إياها بأمره ، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس ، أو تؤمرون بالصلاة فى السفر على الراحلة ونحوها ، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشتبه القبلة ، فيتحرى الصلاة إليها ، ثم يتبين له الخطأ ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك .

فهذه الأمور ، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً .

وبكل حال ، فما استقبل جهة من الجهات ، خارجة عن ملك ربه .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

[فثم وجه الله إن الله واسع عليم] فيه إثبات الوجه لله تعالى ، على الوجه اللائق به تعالى ، وأن لله وجها لا تشبهه الوجوه ، وهو — تعالى — واسع الفضل والصفات عظيمها ، عليم بسرائركم ونياتكم .

فمن سعته وعلمه ، وسع لكم الأمر ، وقبل منكم المأمور ، فله الحمد والشكر .

[وقالوا] أى : اليهود والنصارى والمشركون ، وكل من قال ذلك .

[اتخذ الله ولداً] فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله ، وأساءوا كل الإساءة ، وظلموا أنفسهم .

وهو — تعالى — صابر على ذلك منهم ، قد حلم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم مع تنقصهم إياه .

[سبحانه] أى: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله .

فسبحان من له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، الذى لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه .

ومع رده لقولهم ، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال :

[بل له ما فى السموات والأرض] أى : جميعهم ملكه وعبيده ، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك ، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره.

. . . .

فإذا كانوا كلهم عبيده ، مفتقرين إليه ، وهو غنى عنهم ، فكيف يكون منهم أحد ، يكون له ولداً ، والولد لابد أن يكون من جنس والده ، لأنه جزء منه .

والله تعالى المالك القاهر ، وأنتم المملوكون المقهورون ، وهو الغنى وأنتم الفقراء .

فكيف مع هذا ، يكون له ولد ؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه .

والقنوت نوعان: قنوت عام وهوقنوت الخلق كلهم، تحت تدبيرالخالق.

وخاص ، وهو قنوت العبادة .

فالنوع الأول كما فى هذه الآية .

والنوع الثانى كما فى قوله تعالى [وقوموا لله قانتين] .

ثم قال [بديع السموات والأرض] أى : خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق .

[وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون] فلا يستعصى عليه ، ولا يمتنع منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ

أى : قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم : هل يكلمنا الله ، كما كلم الرسل .

[أوتأتينا آية] ، يعنون آيات الاقتراح ، التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة ، التى تجرأوا بها على الخالق ، واستكبروا على رسله كقولهم .

[لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] ، [يسألك أهل الكتاب أن تنزل كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك] الآية .

[وقالوا لولا نزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة من نخيل وعنب] الآيات .

وقوله [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً] الآيات .

فهذا دأبهم مع رسلهم ، يطلبون آيات التعنت ، لا آيات الاسترشاد ، ولم يكن قصدهم تبين الحق .

فإن الرسل ، قد جاءوا من الآيات ، بما يؤمن على مثله البشر ، ولهذا قال تعالى [قد بينا الآيات لقوم يوقنون] .

فكل موقن ، فقد عرف من آيات الله الباهرة ، وبراهينه الظاهرة ، ما حصل له به اليقين ، واندفع عنه كل شك وريب .

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال :

بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

[إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً] فهذا مشتمل على الآيات التى جاء بها ، وهى ترجع إلى ثلاثة أمور :

الأول ، فى نفس إرساله ، والثانى ، فى سيرته وهديه ودله .

والثالث ، فى معرفة ما جاء به من القرآن والسنة .

فالأول والثانى ، قد دخلا فى قوله : [إنا أرسلناك] .

والثالث فى قوله [بالحق] .

وبيان الأمر الأول وهو ـ نفس إرساله ـ أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان ، وتبديلهم للأديان ، حتى كانوا فى ظلمة من الكفر ، قد عمتهم وشملتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، قد انقرضوا قبيل البعثة .

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ، ولم يتركهم هملا ، لأنه حكيم عليم ، قدير رحيم .

فمن حكمته ورحمته بعباده ، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم ، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له ، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله .

وأما الثانى ، فمن عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة تامة ، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة الناظرين ، فمن عرفها ، وسبر

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

أحواله ، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين ، لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

وأما الثالث ، فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم ، والقرآن الكريم ، المشتمل على الإخبارات الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهى عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل فى هذه الثلاثة .

قوله [بشيراً] أى لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية .

[ونذيراً] لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوى والأخروى .

[ولا تسأل عن أصحاب الجحيم] أى : لست مسئولا عنهم ، إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

يخبر تعالى رسوله ، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى ، إلا باتباعه دينهم ، لأنهم دعاة إلى الدين الذى هم عليه ، ويزعمون أنه الهدى .

فقل لهم [إن هدى الله] الذى أرسلت به [هو الهدى] .

وأما ما أنتم عليه ، فهو الهوى بدليل قوله [ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله ولى ولا نصير] .

فهذا فيه النهى العظيم ، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى ، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم .

والخطاب - وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم - فإن أمته داخلة فى ذلك .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب .

كما أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم قال : [الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون . يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزى نفس **عن** نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون] .

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ، ومن عليهم به منة مطلقة ، أنهم [يتلونه حق تلاوته] أى : يتبعونه حق اتباعه ، والتلاوة : الاتباع .

فيحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه .

وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب ، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها ، وآمنوا بكل الرسل ، ولم يفرقوا بين أحد منهم .

فهؤلاء ، هم المؤمنون حقاً ، لا من قال منهم « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

ولهذا توعدهم بقوله [ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون] وقد تقدم تفسير الآية التى بعدها .

يخبر تعالى ، عن عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، المتفق على إمامته وجلالته ، الذى كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه ، بل وكذلك المشركون : أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات ، أى : بأوامر ونواهى ، كما هى عادة الله فى ابتلائه لعباده ، ليتبين الكاذب الذى لا يثبت عند الابتلاء ، والامتحان من الصادق ، الذى ترتفع درجته ، ويزيد قدره ، ويزكو عمله ، ويخلص ذهبه .

وكان من أجلهم فى هذا المقام ، الخليل عليه السلام .

فأتم ما ابتلاه الله به ، وأكمله ووفاه ، فشكر الله له ذلك ، ولم يزل الله شكوراً فقال :

[إنى جاعلك للناس إماماً] أى : يقتدون بك فى الهدى ، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية ، ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ، والتعظيم من كل أحد .

وهذه ـ لعمر الله ـ أفضل درجة ، تنافس فيها المتنافسون ، وأعلى مقام ، شمر إليه العاملون ، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم ، من كل صديق متبع لهم ، داع إلى الله وإلى سبيله .

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام ، وأدرك هذا ، طلب ذلك لذريته ، لتعلو درجته ودرجة ذريته .

وهذا أيضاً من إمامته ، ونصحه لعباد الله ، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون .

فلله عظمة هذه الهمم العالية ، والمقامات السامية .

فأجابه الرحيم اللطيف ، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال :

[لا ينال عهدى الظالمين] أى : لا ينال الإمامة فى الدين ، من ظلم نفسه وضرها ، وحط قدرها ، لمنافاة الظلم لهذا المقام ، فإنه مقام ، آلته الصبر واليقين .

ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة ، والأخلاق الجميلة ، والشمائل السديدة ، والمحبة التامة ، والخشية والإنابة .

فأين الظلم وهذا المقام ؟

ودل مفهوم الآية ، أن غير الظالم ، سينال الإمامة ، ولكن مع إتيانه بأسبابها .

ثم ذكر تعالى ، أنموذجاً باقياً دالا على إمامة إبراهيم ، وهو : هذا البيت الحرام الذى جعل قصده ، ركناً من أركان الإسلام ، حاطاً للذنوب والآثام .

وفيه من آثار الخليل وذريته ، ما عرف به إمامته ، وتذكرت به حالته فقال :

[وإذ جعلنا البيت مثابة للناس] أى : مرجعاً يثوبون إليه ، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية ، يترددون إليه ، ولا يقضون منه وطراً .

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

وجعله [أمناً] يأمن به كل أحد ، حتى الوحش ، وحتى الجمادات كالأشجار .

ولهذا كانوا فى الجاهلية ـ على شركهم ـ يحترمونه أشد الاحترام ، ويجد أحدهم قاتل أبيه فى الحرم ، فلا يهيجه .

فلما جاء الإسلام ، زاده حرمة وتعظيماً ، وتشريفاً وتكريماً .

[واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى] يحتمل أن يكون المراد بذلك ، المقام المعروف الذى قد جعل الآن ، مقابل باب الكعبة .

وأن المراد بهذا ، ركعتا الطواف ، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم ، وعليه جمهور المفسرين .

ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً ، فيعم جميع مقامات إبراهيم فى الحج .

وهى المشاعر كلها ، من الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، ومزدلفة ورمى الجمار والنحر ، وغير ذلك من أفعال الحج .

فيكون معنى قوله : [مصلى] أى : معبداً ، أى : اقتدوا به فى شعائر الحج .

ولعل هذا المعنى أولى ، لدخول المعنى الأول فيه ، واحتمال اللفظ له .

[وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل أن طهرا بيتى] أى : أوحينا إليهما ، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك ، والكفر والمعاصى ، ومن الرجس والنجاسات ، والأقذار ، ليكون [للطائفين] فيه [والعاكفين والركع السجود] أى : المصلين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قدم الطواف ، لاختصاصه بالمسجد الحرام .

ثم الاعتكاف ، لأن من شرطه ، المسجد مطلقاً .

ثم الصلاة ، مع أنها أفضل ، لهذا المعنى .

وأضاف الباري البيت إليه لفوائد .

منها : أن ذلك يقتضى شدة اهتمام إبراهيم وإسمعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله .

فيبذلان جهدهما ، ويستغرقان وسعهما فى ذلك .

ومنها : أن الإضافة ، تقتضى التشريف والإكرام .

ففى ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه .

ومنها : أن هذه الإضافة ، هى السبب الجالب للقلوب إليه .

أى : وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت ، أن يجعله الله بلداً آمناً ، ويرزق أهله من أنواع الثمرات .

ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين ، تأدباً مع الله ، إذ كان دعاؤه الأول ، فيه الإطلاق ، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم .

فلما دعا لهم بالرزق ، وقيده بالمؤمن ، وكان رزق الله شاملا للمؤمن والكافر ، والعاصى والطائع ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ

[ومن كفر] أى : أرزقهم كلهم ، مسلمهم وكافرهم .

أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة .

وأما الكافر ، فيتمتع فيها قليلا [ثم أضطره] أى : ألجئه وأخرجه مكرهاً [إلى عذاب النار وبئس المصير] .

أى : واذكر إبراهيم وإسمعيل ، فى حالة رفعهما القواعد من البيت . الأساس ، واستمرارهما على هذا العمل العظيم .

وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء ، حتى إنهما – مع هذا العمل – دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما ، حتى يجعل فيه النفع العميم .

ودعوا لأنفسهما ، وذريتهما بالإسلام ، الذى حقيقته ، خضوع القلب ، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح .

[وأرنا مناسكنا] أى : علمناها على وجه الإرادة والمشاهدة ، ليكون أبلغ .

يحتمل أن يكون المراد بالمناسك : أعمال الحج كلها ، كما يدل عليه السياق والمقام .

ويحتمل أن يكون المراد : ما هو أعظم من ذلك ، وهو الدين كله ، والعبادات كلها ، كما يدل عليه عموم اللفظ ، لأن النسك : التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج ، تغليباً عرفياً .

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

فيكون حاصل دعائهما ، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع ، والعمل الصالح .

ولما كان العبد ـ مهما كان ـ لا بد أن يعتريه التقصير ، ويحتاج إلى التوبة قالا :

[وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم] أى : فى ذريتنا [رسولا منهم] ليكون أرفع لدرجتهما ، ولينقادوا له ، وليعرفوه حقيقة المعرفة .

[يتلو عليهم آياتك] لفظاً ، وحفظاً ، وتحفيظاً [ويعلمهم الكتاب والحكمة] معنى .

[ويزكيهم] بالتربية على الأعمال الصالحة والتبرى من الأعمال الردية ، التى لا تزكى النفس معها .

[إنك أنت العزيز] أى : القاهر لكل شىء ، الذى لا يمتنع على قوته ، شىء .

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فبعزتك وحكمتك ، ابعث فيهم هذا الرسول .

فاستجاب الله لهما ، فبعث الله هذا الرسول الكريم ، الذى رحم الله به ذريتهما خاصة ، وسائر الخلق عامة :

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبى إبراهيم» .

۞ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم ، وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى : [ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون] .

أى : ما يرغب [عن ملة إبراهيم] بعد ما عرف من فضله [إلا من سفه نفسه] أى : جهلها وامتهنها ، ورضى لها بالدون ، وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ، ممن رغب فى ملة إبراهيم .

ثم أخبر عن حالته فى الدنيا والآخرة فقال :

[ولقد اصطفيناه فى الدنيا] أى : اخترناه ووفقناه للأعمال ، التى صار بها ، من المصطفين الأخيار .

[وإنه فى الآخرة لمن الصالحين] الذين لهم ، أعلى الدرجات .

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

[إذ قال له ربه أسلم قال] امتثالا لربه [أسلمت لرب العالمين] .

إخلاصاً وتوحيداً ، ومحبة ، وإنابة فكان التوحيد لله نعته .

ثم ورثه فى ذريته ، ووصاهم به ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه ، وتوارثت فيهم ، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه .

فأنتم ـ يا بنى يعقوب ـ قد وصاكم أبوكم بالخصوص ، فيجب عليكم كمال الانقياد ، واتباع خاتم الأنبياء قال :

[يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين] أى : اختاره وتخيره لكم ، رحمة بكم ، وإحساناً إليكم ، فقوموا به ، واتصفوا بشرائعه ، وانصبغوا بأخلاقه ، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه ، لأن من عاش على شىء ، مات عليه ، ومن مات على شىء ، بعث عليه .

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، ومن بعده يعقوب ، قال تعالى منكراً عليهم :

[أم كنتم شهداء] أى : حضوراً [إذ حضر يعقوب الموت] .

أى : مقدماته وأسبابه .

فقال لبنيه على وجه الاختبار ، ولتقر عينه فى حياته بامتثالهم ما وصاهم به .

[ما تعبدون من بعدى] فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا :

[نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً] .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

فلا نشرك به شيئاً ، ولا نعدل به .

[ونحن له مسلمون] فجمعوا بين التوحيد والعمل .

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب ، لأنهم لم يوجدوا بعد .

فإذا لم يحضروا ، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية ، لا باليهودية ..

ثم قال تعالى : [تلك أمة قد خلت] أى : مضت [لها ما كسبت ولكم ما كسبتم] أي : كل له عمله ، وكل سيجازى بما فعله ، لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع أحداً إلا إيمانه وتقواه .

فاشتغالكم به وادعاؤكم ، أنكم على ملتهم ، والرضا بمجرد القول ، أمر فارغ لا حقيقة له .

بل الواجب عليكم ، أن تنظروا حالتكم التى أنتم عليها ، هل تصلح للنجاة أم لا .

أى : دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول فى دينهم ، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال .

قال له مجيباً جواباً شافياً [بل] نتبع] ملة إبراهيم حنيفاً] أي : مقبلا على الله ، معرضاً عما سواه ، قائماً بالتوحيد ، تاركاً للشرك والتنديد .

فهذا الذى فى اتباعه الهداية ، وفى الإعراض عن ملته ، الكفر والغواية ..

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به .

واعلم أن الإيمان الذى هو تصديق القلب التام ، بهذه الأصول ، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح .

وهو — بهذا الاعتبار — يدخل فيه الإسلام ، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها .

فهى من الإيمان ، وأثر من آثاره .

فحيث أطلق الإيمان ، دخل فيه ما ذكر .

وكذلك الإسلام ، إذا أطلق دخل فيه الإيمان .

فإذا قرن بينهما ، كان الإيمان اسماً لما فى القلب من الإقرار والتصديق .

والإسلام ، اسماً للأعمال الظاهرة .

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة .

فقوله تعالى : [قولوا] أى : بألسنتكم ، متواطئة عليها قلوبكم .

وهذا هو القول التام ، المترتب عليه الثواب والجزاء .

فكما أن النطق باللسان ، بدون اعتقاد القلب ، نفاق وكفر .

فالقول الخالى من العمل عمل القلب ، عديم التأثير ، قليل الفائدة ، وإن كان العبد يؤجر عليه ، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان .

. . . .

لـكن فرق بين القول المجرد ، والمقترن به عمل القلب .

وفى قوله [قولوا] إشارة إلى الإعلان بالعقيدة ، والصدع بها ، والدعوة لها ، إذ هى أصل الدين وأساسه .

وفى قوله : [آمنا] ونحوه ، مما فيه صدور الفعل ، منسوباً إلى جميع الأمة ، إشارة إلى أنه يجب على الأمة ، الاعتصام بحبل الله جميعاً ، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً ، وعملهم متحداً ، وفى ضمنه النهى عن الافتراق .

وفيه : أن المؤمنين كالجسد الواحد .

وفى قوله : [قولوا آمنا بالله] الخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان ، على وجه التقييد ، بل على وجوب ذلك .

بخلاف قوله « أنا مؤمن » ونحوه ، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة ، لما فيه من تزكية النفس ، والشهادة على نفسه بالإيمان .

فقوله : [آمنا بالله] أى : بأنه واجب الوجود ، واحد أحد ، متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، مستحق لإفراده بالعبادة كلها ، وعدم الإشراك به فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

[وما أنزل إلينا] يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى :

[وأنزل الله عليك الـكتاب والحـكمة] فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله ، من صفات البارى ، وصفات رسله ، واليوم الآخر ، والغيوب الماضية والمستقبلة ، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الأمرية الشرعية ، وأحكام الجزاء وغير ذلك .

. . . .

[وما أنزل إلى إبراهيم] إلى آخر الآية .

فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء .

والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ، ما نص عليه فى الآية ، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار .

فالواجب فى الإيمان بالأنبياء والكتب ، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول .

ثم ما عرف منهم بالتفصيل ، وجب الإيمان به مفصلا .

وقوله :[لا نفرق بين أحد منهم] أى : بل نؤمن بهم كلهم .

هذه خاصية المسلمين ، التى انفردوا بها عن كل من يدعى أنه على دين .

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره .

فيفرقون بين الرسل والكتب ، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به .

وينقض تكذيبهم تصديقهم .

فإن الرسول الذى زعموا ، أنهم قد آمنوا به ، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كذبوا محمداً ، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به ، فيكون كفراً برسولهم .

وفى قوله : [وما أوتى النبيون من ربهم] دلالة على أن عطية الدين ، هى العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية .

. . . .

لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتى الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك .

بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع .

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ، ووسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ دينه ، ليس لهم من الأمر شىء .

وفى قوله : [من ربهم] إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده ، أن ينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، فلا تقتضى ربوبيته ، تركهم سدى ولا هملا .

وإذا كان ما أوتى النبيون ، إنما هو من ربهم ، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعى النبوة ، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه .

فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير ، ولا ينهون إلا عن كل شر .

وكل واحد منهم ، يصدق الآخر ، ويشهد له بالحق ، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] .

وهذا بخلاف من ادعى النبوة ، فلا بد أن يتناقضوا فى أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع ، وعرف ما يدعون إليه .

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به ، عموماً وخصوصاً ، وكان القول لا يغنى عن العمل قال :

[ونحن له مسلمون] أى : خاضعون لعظمته ، منقادون لعبادته ، بباطننا وظاهرنا ، مخلصون له العبادة .

بدليل تقديم المعمول ، وهو [له] على العامل وهو [مسلمون] .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب .

وعلى التخصيص الدال على الفضل ، بعد التعميم .

وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله فى ذلك .

وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ، ومن ادعى النبوة من الكاذبين .

وعلى تعليم البارى عباده ، كيف يقولون ، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة .

فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

أي : فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل ، وجميع الكتب ، الذين أول من دخل فيهم ، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وأسلموا لله وحده ، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل [فقد اهتدوا] للصراط المستقيم ، الموصل لجنات النعيم .

أى : فلا سبيل لهم إلى الهداية ، إلا بهذا الإيمان .

ولا كما زعموا بقولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » .

فزعموا أن الهداية ، خاصة بما كانوا عليه .

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

و « الهدى » هو العلم بالحق ، والعمل به ، وصده ، الضلال عن العلم ، والضلال عن العمل بعد العلم ، وهو الشقاق الذى كانوا عليه ، لما تولوا وأعرضوا .

فالمشاق ، هو الذى يكون فى شق والله ورسوله ، فى شق .

ويلزم من المشاقة ، المحادة ، والعداوة البليغة ، التى من لوازمها ، بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول .

فلهذا وعد الله رسوله ، أن يكفيه إياهم ، لأنه السميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم ، بالغيب والشهادة ، بالظواهر والبواطن .

فإذا كان كذلك ، كفاك الله شرهم .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ، وسلطه عليهم ، حتى قتل بعضهم ، وسبى بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وشردهم كل مشرد .

ففيه معجزة من معجزات القرآن ، وهو الإخبار بالشىء قبل وقوعه ، فوقع طبق ما أخبر .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

أى : الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياماً تاماً ، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده فى جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة ، وصفة من صفاتكم .

فإذا كان صفة من صفاتكم ، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره ، طوعاً واختياراً ومحبة ، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذى صار له صفة ، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية ، لحث الدين على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ومعالى الأمور .

فلهذا قال – على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية – :

[ومن أحسن من الله صبغة] أى : لا أحسن صبغة من صبغته .

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ ، فقس الشىء بضده .

فكيف ترى فى عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً ، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح .

فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، ونعت جليل .

ويتخلى من كل وصف قبيح ، ورذيلة وعيب .

فوصفه ، الصدق فى قوله وفعله ، والصبر والحلم ، والعفة ، والشجاعة ،

. . . .

والإحسان القولى والفعلى ، ومحبة الله وخشيته ، وخوفه ، ورجاؤه .

فحاله الإخلاص للمعبود ، والإحسان لعبيده .

فقسه بعبد كفر بربه ، وشرد عنه ، وأقبل على غيره من المخلوقين .

فاتصف بالصفات القبيحة ، من الكفر ، والشرك والكذب ، والخيانة ، والمكر ، والخداع ، وعدم العفة ، والإساءة إلى الخلق ، فى أقواله ، وأفعاله .

فلا إخلاص للمعبود ، ولا إحسان إلى عبيده .

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما ، ويتبين لك أنه لا أحسن من صبغة الله ، وفى ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه .

وفى قوله : [ونحن له عابدون] بيان لهذه الصبغة ، وهى القيام بهذين الأصلين ، الإخلاص والمتابعة ، لأن « العبادة » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة .

ولا تكون كذلك ، حتى يشرعها الله على لسان رسوله .

والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده ، فى تلك الأعمال .

فتقديم المعمول ، يؤذن بالحصر .

وقال : [ونحن له عابدون] فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ، ليدل على اتصافهم بذلك .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

المحاجة هى : المجادلة بين اثنين فأكثر ، تتعلق بالمسائل الخلافية ، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله ، وإبطال قول خصمه .

فكل واحد منهما ، يجتهد فى إقامة الحجة على ذلك .

والمطلوب منها ، أن تكون بالتى هى أحسن ، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق ، ويقيم الحجة على المعاند ، ويوضح الحق ، ويبين الباطل .

فإن خرجت عن هذه الأمور ، كانت مماراة ، ومخاصمة لا خير فيها ، وأحدثت من الشر ما أحدثت .

فكان أهل الكتاب ، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين ، وهذا مجرد دعوى ، تفتقر إلى برهان ودليل .

فإذا كان رب الجميع واحداً ، ليس رباً لكم دوننا ، وكل منا ومنكم ، له عمله ، فاستوينا نحن وأنتم بذلك . فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره .

لأن التفريق مع الاشتراك فى الشىء ، من غير فرق مؤثر ، دعوى باطلة ، وتفريق بين متماثلين ، ومكابرة ظاهرة .

وإنما يحصل التفضيل ، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده .

وهذه الحالة ، وصف المؤمنين وحدهم ، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم لأن الإخلاص ، هو الطريق إلى الخلاص .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بالأوصاف الحقيقية ، التي يسلمها أهل العقول ، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول .

ففي هذه الآية ، إرشاد لطيف لطريق المحاجة ، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين .

وهذه دعوى أخرى منهم ، ومحاجة فى رسل الله ، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين .

فرد الله عليهم بقوله [أأنتم أعلم أم الله] فالله يقول : [ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنفياً مسلماً وما كان من المشركين] وهم يقولون : بل كان يهودياً أو نصرانياً .

فإما أن يكونوا ، هم الصادقين العالمين ، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك ، فأحد الأمرين متعين لا محالة .

وصورة الجواب مبهم ، وهو فى غاية الوضوح والبيان

حتى إنه ـ من وضوحه ـ لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق ، ونحو ذلك ، لانجلائه لكل أحد .

كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار ؟ والنار أحر أم الماء ؟ والشرك أحسن أم التوحيد ؟ ونحو ذلك .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١)

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء ، لم يكونوا هوداً ولا نصارى ، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة ، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم .

ولهذا قال تعالى : [ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله] فهى شهادة عندهم ، مودعة من الله ، لا من الخلق ، فيقتضى الاهتمام بإقامتها ، فكتموها ، وأظهروا ضدها .

جمعوا بين كتم الحق ، وعدم النطق به ، وإظهار الباطل ، والدعوة إليه .

أليس هذا ، أعظم الظلم ؟ بلى والله ، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة .

فلهذا قال : [وما الله بغافل عما تعملون] بل قد أحصى أعمالهم ، وعدها وادخر لهم جزاءها ، فبئس الجزاء جزاؤهم ، وبئست النار ، مثوى للظالمين .

وهذه طريقة القرآن فى ذكر العلم والقدرة ، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التى يجازى عليها .

فيفيد ذلك الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

ويفيد أيضاً ، ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام ، أن الأمر الدينى والجزائى ، أثر من آثارها ، وموجب من موجباتها ، وهى مقتضية له .

ثم قال تعالى : [تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون] تقدم تفسيرها ، وكررها ، لقطع التعلق بالمخلوقين ، وأن المعول عليه ، ما اتصف به الإنسان ، لا عمل أسلافه وآبائه .

فالنفع الحقيقى بالأعمال ، لا بالانتساب المجرد للرجال .

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

قد اشتملت الآية الأولى ، على معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين ، واعتراض وجوابه ، من ثلاثة أوجه ، وصفة المعترض ، وصفة المسلم لحكم الله دينه .

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس ، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم ، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن ، وهم اليهود والنصارى ، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه .

وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، مدة مقامهم بمكة .

ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، نحو سنة ونصف ـ لما لله فى ذلك من الحكم التى سيشير إلى بعضها ، وكانت حكمته تقتضى أمرهم باستقبال الكعبة .

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس [ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها] وهى استقبال بيت المقدس .

أى : أى شىء صرفهم عنه ؟ .

وفى ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه ، وفضله وإحسانه .

فسلاهم ، وأخبر بوقوعه ، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه ، قليل العقل ، والحلم ، والديانة .

فلا تبالوا بهم ، إذ قد علم مصدر هذا الكلام .

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿...﴾

فالعاقل لا يبالى باعتراض السفيه ، ولا يلقى له ذهنه .

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله ، إلا سفيه جاهل معاند .

وأما الرشيد المؤمن العاقل ، فيتلقى أحكام ربه بالقبول ، والانقياد ، والتسليم كما قال تعالى : [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] .

[فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم] الآية .

[إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا] .

وقد كان فى قوله « السفهاء » ما يغنى عن رد قولهم ، وعدم المبالاة به .

ولكنه تعالى — مع هذا — لم يترك هذه الشبهة ، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض ، فقال تعالى : [قل] لهم مجيباً [لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم] .

أى : فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله ، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه ، ومع هذا يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التى هى من ملة إبراهيم ـ فلأى شىء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله ، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له ؟

فهذا يوجب التسليم لأمره ، بمجرد ذلك .

فكيف ، وهو من فضل الله عليكم ، وهدايته وإحسانه ، أن هداكم لذلك . فالمعترض عليكم ، معترض على فضل الله ، حسداً لكم وبغياً .

. . . .

ولما كان قوله [يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم] مطلقاً ، والمطلق يحمل على المقيد ، فإن الهداية والضلال ، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله ، وقد أخبر فى غير موضع من كتابه بأسباب الهداية ، التى إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى [يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام] ذكر فى هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية ، ومنة الله عليها فقال :

[وكذلك جعلناكم أمة وسطاً] أى : عدلا خيارا .

وماعدا الوسط ، فالأطراف داخلة تحت الخطر .

فجعل الله هذه الأمة ، وسطاً فى كل أمور الدين .

وسطاً فى الأنبياء ، بين من غلا فيهم ، كالنصارى ، وبين من جفاهم ، كاليهود ، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك .

ووسطاً فى الشريعة ، لا تشديدات اليهود وآصارهم ، ولا تهاون النصارى .

وفى باب الطهارة والمطاعم ، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم ، ولا يطهرهم الماء من النجاسات ، وقد حرمت عليهم الطيبات ، عقوبة لهم .

ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً ، ولا يحرمون شيئاً ، بل أباحوا ما دب ودرج .

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها .

. . . .

وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ، وحرم عليهم الخبائث من ذلك .

فلهذه الأمة من الدين ، أكمله ، ومن الأخلاق أجلها ، ومن الأعمال أفضلها .

ووهبهم الله من العلم والحلم ، والعدل والإحسان ، ما لم يهبه لأمة سواهم .

فلذلك كانوا [أمة وسطاً] كاملين معتدلين ، ليكونوا [شهداء على الناس] بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ، ولا يحكم عليهم غيرهم .

فما شهدت له هذه الأمة بالقبول ، فهو مقبول ، وما شهدت له بالرد ، فهو مردود .

فإن قيل كيف يقبل حكمهم على غيرهم ، والحال أن كل مختصمين ، غير مقبول قول بعضهم على بعض ؟

قيل : إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين ، لوجود التهمة .

فأما إذا انتفت التهمة ، وحصلت العدالة التامة ، كما فى هذه الأمة ، فإنما المقصود ، الحكم بالعدل والحق .

وشرط ذلك ، العلم والعدل ، وهما موجودان فى هذه الأمة، فقبل قولها .

فإن شك شاك فى فضلها ، وطلب مزكياً لها ، فهو أكمل الخلق ، نبيهم صلى الله عليه وسلم .

فلهذا قال تعالى [ويكون الرسول عليكم شهيداً] .

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم ، أنه إذا كان يوم القيامة ، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم ، والأمم المكذبة عن ذلك ، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم — استشهد الأنبياء بهذه الأمة ، وزكاها نبيها .

وفى الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة ، حجة قاطعة ، وأنهم معصومون عن الخطأ ، لإطلاق قوله [وسطاً] .

فلو قدر اتفاقهم على الخطأ ، لم يكونوا وسطاً ، إلا فى بعض الأمور ، وفيها اشتراط العدالة فى الحكم ، والشهادة ، والفتيا ، ونحو ذلك .

* يقول تعالى : [وما جعلنا القبلة التى كنت عليها] وهى استقبال بيت المقدس أولا [إلا لنعلم] أى: علما يتعلق به الثواب والعقاب(١) ، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها .

---

(١) قوله (أى علما يتعلق به الثواب . الخ) هذه العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح ، ونذكر ما أفاده الأئمة : النسفى ، وأبو السعود ، وابن كثير فى تفاسيرهم ، وأبو حيان فى بحره ، فنقول : (لنعلم) أي لنميز التابع من الناكص ، وينكشف أمرهم وحالهم للرسول وللمؤمنين ، كما قال تعالى [حتى يميز الخبيث من الطيب] فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم يقع به التمييز ، وهو سببه فأطلق السبب — الذى هو العلم — وأراد المسبب — الذى هو التمييز — ويؤيد ما قلنا قراءة [ليعلم] بالياء وبالبناء للمجهول ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه . أو هو ملاطفة الخطاب كقولك لمن ينكر ذوب الذهب : فلنلقه فى النار لنعلم أيذوب الذهب أم لا ؟ اهـ . =

يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

ولكن هذا العلم ، لا يعلق عليه ثوابا ولا عقابا ، لتمام عدله ، وإقامة الحجة على عباده .

بل إذا وجدت أعمالهم ، ترتب عليها الثواب والعقاب .

أى : شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن [من يتبع الرسول] ويؤمن به ، فيتبعه على كل حال ، لأنه عبد مأمور مدبر .

= وفى البحر المحيط لأبى حيان : وظاهر قوله [لنعلم] ابتداء العلم ، وليس المعنى على الظاهر إذ يستحيل حدوث علم الله تعالى فأول على حذف مضاف ، أى : ليعلم رسولنا والمؤمنون . وأسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى لديه ، فيكون هذا من مجاز الحذف أوعلى إطلاق العلم على معنى التمييز ، لأن بالعلم يقع التمييز ، أى : لنميز التابع من الناكص ، كما قال تعالى : [حتى يميز الخبيث من الطيب] ويكون هذا من مجاز إطلاق السبب ، ويراد به المسبب ، وحكى هذا التأويل عن ابن عباس رضى الله عنهما أو على أنه أراد ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة أو المعصية إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب . أو أريد بالمستقبل هنا الماضى والتقدير : لما علمنا أو لعلمنا من يتبع الرسول ممن يخالف . اهـ . بتصرف .

واقتصر ابن كثير فى تفسيره على جعل المعنى ليعلم المؤمنون وينكشف حال ضعاف الإيمان فقال (يقول تعالى: إنا شرعنا لك يا محمد ، التوجه أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك ، حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبيه) . اهـ .

عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة ، أنه يستقبل الكعبة .

فالمنصف الذى مقصوده الحق ، مما يزيده ذلك إيماناً ، وطاعة للرسول .

وأما من انقلب على عقبيه ، وأعرض عن الحق ، واتبع هواه ، فإنه يزداد كفراً إلى كفره ، وحيرة إلى حيرته ، ويدلى بالحجة الباطلة ، المبنية على شبهة لا حقيقة لها .

[وإن كانت] أى : صرفك عنها [لكبيرة] أى : شاقة [إلا على الذين هدى الله] فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم ، وشكروا ، وأقروا له بالإحسان ، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم ، الذى فضله على سائر بقاع الأرض .

وجعل قصده ، ركناً من أركان الإسلام ، وهادماً للذنوب والآثام ، فلهذا خف عليهم ذلك ، وشق على من سواهم .

ثم قال تعالى [وما كان الله ليضيع إيمانكم] أى : ما ينبغى له ولا يليق به تعالى ، بل هو من الممتنعات عليه .

فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم .

وفى هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ، وحفظه نوعان :

حفظ عن الضياع والبطلان ، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيد له ، ومنقص من المحن المقلقة ، والأهواء الصادة .

. . . .

وحفظ بتنميته له ، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ، ويتم به إيقانهم .

فكما ابتدأكم ، بأن هداكم للايمان ، فسيحفظه لكم ، ويتم نعمته ، بتنميته وتنمية أجره ، وثوابه ، وحفظه من كل مكدر .

بل إذا وجدت المحن المقصود منها ، تبين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين ، وتظهر صدقهم .

وكأن فى هذا احترازاً ، عما قد يقال ، إن قوله : [وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه] قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم ، فدفع هذا الوهم بقوله [وما كان الله ليضيع إيمانكم] بتقديره لهذه المحنة أو غيرها .

ودخل فى ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة ، فإن الله لا يضيع إيمانهم ، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله فى وقتها .

وطاعة الله ، امتثال أمره فى كل وقت ، بحسب ذلك .

وفى هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .

وقوله [إن الله بالناس لرءوف رحيم] أى : شديد الرحمة بهم عظيمها.

فمن رأفته ورحمته بهم ، أن يتم عليهم نعمته التى ابتدأهم بها .

وأن ميز عنهم من دخل فى الإيمان بلسانه دون قلبه .

وأن امتحنهم امتحاناً ، زاد به إيمانهم ، وارتفعت به درجتهم .

وأن وجههم إلى أشرف البيوت ، وأجلها .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

يقول الله لنبيه [قد نرى تقلب وجهك فى السماء] أى : كثرة تردده فى جميع جهاته ، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحى باستقبال الكعبة .

وقال [وجهك] ولم يقل « بصرك » لزيادة اهتمامه . ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر .

[فلنولينك] أى : نوجهك لولايتنا إياك .

[قبلة ترضاها] أى : تحبها ، وهى الكعبة .

وفى هذا بيان لفضله وشرفه صلى الله عليه وسلم ، حيث إن الله تعالى ، يسارع فى رضاه ، ثم صرح له باستقبالها فقال :

[فول وجهك شطر المسجد الحرام] والوجه : ما أقبل من بدن الإنسان .

[وحيثما كنتم] أى : من بر وبحر ، وشرق وغرب ، جنوب وشمال .

[فولوا وجوهكم شطره] أى : جهته .

ففيها اشتراط استقبال الكعبة ، للصلوات كلها ، فرضها ، ونفلها ، وأنه إن أمكن استقبال عينها ، وإلا فيكفى شطرها وجهتها .

وأن الالتفات بالبدن ، مبطل للصلاة ، لأن الأمر بالشىء نهى عن ضده .

ولما ذكر تعالى فيما تقدم ، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ

وذكر جوابهم ، ذكر هنا ، أن أهل الكتاب والعلماء منهم ، يعلمون أنك فى ذلك على حق واضح ، لما يجدونه فى كتبهم ، فيعترضون عناداً وبغياً .

فإذا كانوا يغمون بخطاهم ، فلا تبالوا بذلك .

فإن الإنسان إنما يغمه ، اعتراض من اعترض عليه ، إذا كان الأمر مشتبها ، وكان ممكنا أن يكون معه صواب .

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه ، وأن المعترض معاند ، عارف ببطلان قوله ، فإنه لا محل للمبالاة ، بل ينتظر بالمعترض ، العقوبة الدنيوية والأخروية ، فلهذا قال تعالى [وما الله بغافل عما يعملون] بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها .

وفيها وعيد للمعترضين ، وتسلية للمؤمنين .

كان النبي صلى الله عليه وسلم — من كمال حرصه على هداية الخلق — يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة ، ويتلطف بهدايتهم ، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله .

فكان من الكفار ، من تمرد عن أمر الله ، واستكبر على رسل الله ، وترك الهدى ، عمداً وعدواناً .

فمنهم : اليهود والنصارى ، أهل الكتاب الأول ، الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم عن يقين ، لا عن جهل .

بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

فلهذا أخبره الله تعالى أنك [لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية] أى : بكل برهان ودليل ، يوضح قولك ، ويبين ما تدعو إليه .

[ما تبعوا قبلتك] أى : ما تبعوك ، لأن اتباع القبلة، دليل على اتباعه.

ولأن السبب هو شأن القبلة .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأنهم معاندون ، عرفوا الحق وتركوه .

فالآيات إنما ينتفع بها ، من يتطلب الحق ، وهو مشتبه عليه ، فتوضح له الآيات البينات .

وأما من جزم بعدم اتباع الحق ، فلا حيلة فيه .

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم، حاصل، وبعضهم ، غير تابع قبلة بعض.

فليس بغريب منهم — مع ذلك — أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد ، وهم الأعداء الحسدة حقيقة ، وقوله [ما أنت بتابع قبلتهم] أبلغ من قوله [ولا تتبع] لأن ذلك يتضمن أنه صلى الله عليه وسلم اتصف بمخالفتهم ، فلا يمكن وقوع ذلك منه .

ولم يقل « ولو أتوا بكل آية » لأنهم لا دليل لهم على قولهم .

وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية ، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه ، لأنها لا حد لها ، ولأنه يعلم بطلانها ، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح ، فهو باطل ، فيكون حل الشبه من باب التبرع .

[ولئن اتبعت أهواءهم] إنما قال « أهواءهم » ولم يقل « دينهم » لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم — فى قلوبهم — يعلمون أنه ليس بدين.

ومن ترك الدين ، اتبع الهوى ، لا محالة .

قال تعالى : [أفرأيت من اتخذ إلهه هواه]

[من بعد ما جاءك من العلم] بأنك على الحق ، وهم على الباطل .

[إنك إذاً] أى : إن اتبعتهم ، فهذا احتراز ، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ، ولو فى الأفهام .

[لمن الظالمين] أى : داخل فيهم ، ومندرج فى جملتهم .

وأى ظلم أعظم، من ظلم ، من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق.

وهذا ، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم ، فإن أمته داخلة فى ذلك .

وأيضاً ، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك — وحاشاه — صار ظالماً مع علو مرتبته ، وكثرة إحسانه — فغيره من باب أولى وأحرى.

* ثم قال تعالى [الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين] .

يخبر تعالى : أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم ، وعرفوا أن محمداً رسول الله ، وأن ما جاء به ، حق وصدق ، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون بغيره .

فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون .

أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

ولكن فريقاً منهم — وهم أكثرهم — الذين كفروا به ، كتموا **هذه** الشهادة مع تيقنها ، وهم يعلمون [ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله] .

وفى ضمن ذلك ، تسلية للرسول والمؤمنين ، وتحذير له من شرهم وشبههم .

وفريق منهم ، لم يكتموا الحق وهم يعلمون .

فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر به ، جهلا .

فالعالم ، عليه إظهار الحق ، وتبيينه وتزيينه ، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ، ومثال ، وغير ذلك ، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق ، وتشيينه ، وتقبيحه للنفوس ، بكل طريق مؤد لذلك .

فهؤلاء الكاتمون ، عكسوا الأمر ، فانعكست أحوالهم .

[الحق من ربك] أى : هذا الحق الذى هو أحق أن يسمى حقاً من كل شىء ، لما اشتمل عليه من المطالب العالية ، والأوامر الحسنة ، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ، ودفع مفاسدها ، لصدوره من ربك ، الذى — من جملة تربيته لك ، أن أنزل عليك هذا القرآن الذى فيه تربية العقول والنفوس ، وجميع المصالح .

[فلا تكونن من الممترين] أى : فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه .

بل تفكر فيه.وتأمل ، حتى تصل بذلك إلى اليقين ، لأن التفكر فيه لا محالة ، دافع للشك ، موصل لليقين .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أي : كل أهل دين وملة ، له وجهة يتوجه إليها فى عبادته .

وليس الشأن فى استقبال القبلة ، فإنه من الشرائع التى تتغير بها الأزمنة والأحوال ، ويدخلها النسخ والنقل ، من جهة إلى جهة .

ولكن الشأن كل الشأن ، فى امتثال طاعة الله ، والتقرب إليه ، وطلب الزلفى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية .

وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة. كما أنها إذا اتصفت به ، فهى الرابحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق ، وأمرهم به .

والأمر بالاستباق إلى الخيرات ، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات .

فإن الاستباق إليها ، يتضمن فعلها ، وتكميلها ، وإيقاعها على أكمل الأحوال ، والمبادرة إليها .

ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات ، فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات ، فالسابقون أعلى الخلق درجة .

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة ، وصيام ، وزكاة وحج ، وعمرة ، وجهاد ، ونفع متعد وقاصر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير ، وينشطها ، ما رتب الله عليها من الثواب قال : [أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير] فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته ، فيجازى كل عامل بعمله [ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى] .

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل.

كالصلاة فى أول وقتها ، والمبادرة إلى إبراء الذمة ، من الصيام ، والحج ، والعمرة، وإخراج الزكاة ، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية !!.

٭ أى : [ومن حيث خرجت] فى أسفارك وغيرها ، وهذا للعموم ، [فول وجهك شطر المسجد الحرام] أى : جهته .

ثم خاطب الأمة عموما فقال [وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره] ، وقال : [وإنه للحق من ربك] أكده بـ « إن » واللام ، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة ، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهى لا الامتثال .

[وما الله بغافل عما تعملون] بل هو مطلع عليكم فى جميع أحوالكم ، فتأدبوا معه ، وراقبوه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

فإن أعمالكم غير مغفول عنها ، بل مجازون عليها أتم الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شراً ، فشر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ

وقال هنا [لئلا يكون للناس عليكم حجة] أى : شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين.

فإنه لو بقى مستقبلا لبيت المقدس ، لتوجهت عليه الحجة .

فإن أهل الكتاب ، يجدون فى كتابهم أن قبلته المستقرة ، هى الكعبة البيت الحرام .

والمشركون يرون أن من مفاخرهم ، هذا البيت العظيم ، وأنه من ملة إبراهيم ، وأنه إذا لم يستقبله محمد صلى الله عليه وسلم ، توجهت نحوه حججهم ، وقالوا : كيف يدعى أنه على ملة إبراهيم ، وهو من ذريته ، وقد ترك استقبال قبلته ؟

فباستقبال القبلة ، قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين ، وانقطعت حججهم عليه .

[إلا الذين ظلموا منهم] أى : من احتج منهم بحجة ، هو ظالم فيها ، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم ، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه .

وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التى يوردونها على سبيل الاحتجاج ، محلا يؤبه لها ، ولا يلقى لها بال ، فلهذا قال تعالى :

[فلا تخشوهم] لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه، مخذول، مخذول صاحبه.

وهذا بخلاف صاحب الحق ، فإن للحق صولة وعزا ، يوجب خشية من هو معه ، وأمر تعالى بخشيته ، التى هى رأس كل خير .

حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

فمن لم يخش الله ، لم ينكف عن معصيته ، ولم يمتثل أمره .

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها أهل الكتاب ، والمنافقون ، والمشركون ، وأكثروا فيها من الكلام والشبه .

فلهذا بسطها الله تعالى ، وبينها أكمل بيان ، وأكدها بأنواع من التأكيدات ، التى تضمنتها هذه الآيات .

منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة .

ومنها : أن المعهود ، أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه الأمة ، أو للأمة عموماً .

وهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص فى قوله [فول وجهك] .

والأمة عموما فى قوله [فولوا وجوهكم] .

ومنها أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التى أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها .

ومنها : أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب .

ومنها قوله [وإنه للحق من ربك] .

فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف ، ولكن مع هذا قال : [وإنه للحق من ربك] .

ومنها : أنه أخبر — وهو العالم بالخفيات — أن أهل الكتاب متقرر عندهم ، صحة هذا الأمر ، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم .

. . . .

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة ، نعمة عظيمة ، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته ، لم يزل يتزايد ، وكلما شرع لهم شريعة ، فهى نعمة عظيمة قال [ولأتم نعمتى عليكم] .

فأصل النعمة ، الهداية لدينه ، بإرسال رسوله ، وإنزال كتابه .

ثم بعد ذلك ، النعم المتممات لهذا الأصل ، لا تعد كثرة ، ولا تحصر ، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا .

وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم ، وأعطى أمته ، ما أتم به نعمته عليه وعليهم ، وأنزل الله عليه [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا] .

فلله الحمد على فضله ، الذى لا نبلغ له عدا ، فضلا عن القيام بشكره .

[ولعلكم تهتدون] أى : تعلمون الحق ، وتعملون به .

فالله تبارك وتعالى — من رحمته — بالعباد ، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ، ونبههم على سلوك طرقها ، وبينها لهم ، أتم تبيين .

حتى أن فى جملة ذلك ، أنه يقيض للحق ، المعاندين له فيجادلون فيه ، فيتضح بذلك الحق ، وتظهر آياته وأعلامه ، ويتضح بطلان الباطل ، وأنه لا حقيقة له .

ولولا قيامه فى مقابلة الحق ، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق .

وبضدها تتبين الأشياء . فلولا الليل ، ما عرف فضل النهار .

ولولا القبيح ، ما عرف فضل الحسن .

ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور .

ولولا الباطل ، ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً . فلله الحمد على ذلك .

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم

يقول تعالى : إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع ، والنعم المتممة ، ليس ذلك ببدع من إحساننا ، ولا بأوله ، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتماتها ، فأبلغها، إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم ، تعرفون نسبه وصدقه ، وأمانته وكماله ونصحه .

[يتلو عليكم آياتنا] وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها .

فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، التي دلتكم أولا ، على توحيد الله وكماله ، ثم على صدق رسوله ، ووجوب الإيمان به ، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب ، حتى حصل لكم الهداية التامة ، والعلم اليقيني .

[ويزكيكم] أى يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتهم من الشرك ، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع ، إلى التحابب والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية .

[ويعلمكم الكتاب] أى : القرآن ، ألفاظه ومعانيه .

[والحكمة] قيل : هى السنة ، وقيل : الحكمة ، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها ، وتنزيل الأمور منازلها .

مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

فيكون — على هذا — تعليم السنة داخلا فى تعليم الكتاب ، لأن السنة ، تبين القرآن و تفسره ، و تعبر عنه .

[ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون] لأنهم كانوا قبل بعثته ، فى ضلال مبين ، لا علم ولا عمل .

فكل علم أو عمل ، نالته هذه الأمة فعلى يده صلى الله عليه وسلم ، وبسببه كان .

فهذه النعم هى أصول النعم على الإطلاق ، وهى أكبر نعم ينعم بها على عباده . فوظيفتهم شكر الله عليها و القيام بها .

فلهذا قال تعالى [فاذكرونى أذكركم] فأمر تعالى بذكره ، ووعد عليه أفضل جزاء ، وهو ذكره لمن ذكره ، كما قال تعالى على لسان رسوله ﴿ من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ﴾ .

وذكر الله تعالى ، أفضله ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وهو الذى يثمر معرفة الله ومحبته ، وكثرة ثوابه .

والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصا ، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال : [واشكروا لى] أى : على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم .

والشكر يكون بالقلب ، إقراراً بالنعم ، واعترافا ، وباللسان ، ذكراً وثناء ، وبالجوارح ، طاعة لله وانقياداً لأمره ، واجتناباً لنهيه .

. . . .

فالشكر فيه بقاء[١] النعمة الموجودة ، وزيادة فى النعم المفقودة .

قال تعالى [لئن شكرتم لأزيدنكم] .

وفى الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية ، من العلم وتزكية الأخلاق و التوفيق للأعمال ، بيان أنها أكبر النعم ، بل هى النعم الحقيقية ، التى تدوم ، إذا زال غيرها .

وأنه ينبغى لمن وفقوا لعلم أو عمل ، أن يشكروا الله على ذلك ، ليزيدهم من فضله ، وليندفع عنهم الإعجاب ، فيشتغلوا بالشكر .

ولما كان الشكر ضده الكفر ، نهى عن ضده فقال [ولا تكفرون] المراد بالكفر ههنا ، ما يقابل الشكر ، فهو كفر النعم وجحدها ، وعدم القيام بها .

ويحتمل أن يكون المعنى عاما ، فيكون الكفر أنواعا كثيرة ، أعظمه الكفر بالله ، ثم أنواع المعاصى ، على اختلاف أنواعها وأجناسها ، من الشرك ، فما دونه .

---

(١) قوله : (فالشكر فيه بقاء النعم الخ) عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم (الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين ، بالاستعانة على أمورهم الدنيوية [بالصبر والصلاة] .

فالصبر هو : حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :

صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها ، وعن معصية الله حتى تتركها ، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه .

وخصوصاً ، الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار ، إلى تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة .

فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة ، عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان .

وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد .

فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعي قلبه ونوازعها ، لله تعالى ، واستعانة بالله على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجأ إليه ، والافتقار على الدوام .

. . . .

فعلمت أن الصبر محتاج إليـه العبد ، بل مضطر إليه فى كل حالة من أحواله .

فلهذا أمر الله تعـالى به ، وأخبر أنه [مع الصابرين] أى : مع من كان الصبر لهم خلقا ، وصفة ، وملـكة — بمعونته وتوفيقه ، وتسديده .

فهانت عليهم بذلك ، المشـــاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة .

وهذه معية خاصة ، تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهـذه منقبة عظيمة للصابرين .

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله ، لـكفى بها فضلا وشرفا .

وأما المعية العامة ، فهى معية العلم والقدرة ، كما فى قوله تعالى : [وهو معكم أينما كنتم] وهذه عامة للخلق .

وأمر تعـــالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ،وهى الصلة بين العبد وبين ربه .

فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعاً فيها مايلزم فيها ، ومايسن ، وحصل فيها حضور القلب ، الذى هو لبها فصـــار العبد إذا دخل فيها ، استشعر دخوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضرا لـكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقا بمناجاة ربه ودعائه — لاجرم أن هذه الصلاة ، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنـكر .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ولأن هذا الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه ، وصفا ، وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه ، واجتناب نواهيه .

هذه هى الصلاة التى أمر الله ، أن نستعين بها على كل شىء .

* لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ، ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه ، وهو الجهاد فى سبيله ، وهو أفضل الطاعات البدنية ، وأشقها على النفوس ، لمشقته فى نفسه ، ولكونه مؤدياً للقتل ، وعدم الحياة ، التى إنما يرغب الراغبون فى هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها .

فكل ما يتصرفون به ، فإنه سعى لها ، ودفع لما يضادها .

ومن المعلوم ، أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم .

فأخبر تعالى : أن من قتل فى سبيله ، بأن قاتل فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه الظاهر ، لا لغير ذلك من الأغراض ، فانه لم تفته الحياة المحبوبة ، بل حصل له حياة أعظم وأكمل ، مما تظنون وتحسبون .

فالشهداء [أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين] .

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى ، وتمتعهم برزقه البدنى فى المأكولات والمشروبات اللذيذة ، والرزق الروحى ، وهو الفرح . وهو الاستبشار ، وزوال كل خوف وحزن .

. . . .

وهذه حياة برزخية ، أكمل من الحياة الدنيا .

بل قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش .

وفى هذه الآية ، أعظم حث على الجهاد فى سبيل الله ، وملازمة الصبر عليه .

فلو شعر العباد بما للمقتولين فى سبيل الله من الثواب ، لم يتخلف عنه أحد .

ولكن عدم العلم اليقينى التام ، هو الذى فتر العزائم ، وزاد نوم النائم ، وأفات الأجور العظيمة والغنائم .

لم لا يكون كذلك والله تعالى قد[... اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون] .

فوالله لو كان للانسان ألف نفس ، تذهب نفساً فنفساً فى سبيل الله ، لم يكن عظيما فى جانب هذا الأجر العظيم .

ولهذا لا يتمنى الشهداء ـ بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه ـ إلا أن يردوا إلى الدنيا ، حتى يقتلون فى سبيله مرة بعد مرة .

وفى الآية ، دليل على نعيم البرزخ وعذابه ، كما تكاثرت بذلك النصوص .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ

أخبر تعالى ، أنه لا بد أن يبتلى عباده بالمحن ، ليتبين الصادق من الكاذب ، والجازع من الصابر ، وهذه سنته تعالى فى عباده .

لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ، ولم يحصل معها محنة ، لحصل الاختلاط الذى هو فساد ، وحكمة الله تقتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر.

هذه فائدة المحن ، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ، ولا ردهم عن دينهم ، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين .

فأخبر فى هذه الآية أنه سيبتلى عباده [بشىء من الخوف] من الأعداء [والجوع] أى : بشىء يسير منهما .

لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله ، أو الجوع ، لهلكوا ، والمحن تمحص لا تهلك .

[ونقص من الأموال] وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال ، من جوائح سماوية ، وغرق ، وضياع ، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة ، وقطاع الطريق وغير ذلك .

[والأنفس] أى ذهاب الأحباب ،من الأولاد ، والأقارب ، والأصحاب ، ومن أنواع الأمراض فى بدن العبد ، أو بدن من يحبه .

[والثمرات] أى الحبوب ، وثمار النخيل ، والأشجار كلها ، والخضر ببرد ، أو برد ، أو حرق ، أو آفة سماوية ، من جراد ونحوه .

فهذه الأمور ،لابد أن تقع، لأن العليم الخبير،أخبر بها ، فوقعت كما أخبر.

أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

فاذا وقعت ، انقسم الناس قسمين : جازعين وصابرين .

فالجازع ،حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهووجود هذه المصيبة.

وفوات ماهو أعظم منها ، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر .

ففاز بالخسارة والحرمان ، ونقص ما معه من الإيمان .

وفاته الصبر والرضا والشكران ، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان .

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب ، فحبس نفسه عن التسخط ، قولا وفعلا ، واحتسب أجرها عند الله ، وعلم أن مايدركه من الأجر بصبره، أعظم من المصيبة التى حصلت له ، بل المصيبة تكون نعمة فى حقه ، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها ، فقد امتثل أمر الله ، وفاز بالثواب .

فلهذا قال تعالى [وبشر الصابرين] أى : بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب .

فالصابرين ، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .

ثم وصفهم بقوله [الذين إذا أصابتهم مصيبة] وهى كل مايؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره .

[قالوا إنا لله] أى : مملوكون لله ، مدبرون تحت أمره وتصريفه ، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شىء .

. . . .

فإذا ابتلانا بشىء منها ، فقد تصرف أرحم الراحمين، بماليكهوأموالهم، فلا اعتراض عليه .

بل من كمال عبودية العبد، علمه ، بأنوقوع البلية من المالك الحكيم، الذى هو أرحم بعبده من نفسه .

فيوجب له ذلك ، الرضا عن الله ، والشكر له على تدبيره ، لما هو خير لعبده ، وإن لم يشعر بذلك .

ومع أننا مملوكون لله ، فإنا إليه راجعون يوم المعاد ، فمجاز كل عامل بعمله . فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفوراً عنده .

وإن جزعنا وسخطنا ، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر .

فكون العبد لله ، وراجعا إليه ، من أقوى أسباب الصبر .

[أولئك] الموصوفون بالصبر المذكور[عليهم صلوات من ربهم] أى : ثناء وتنويه بحالهم [ورحمة] عظيمة .

ومن رحمته إياهم ، أن وفقهم للصبر الذى ينالون به كمال الأجر .

[وأولئك هم المهتدون] الذين عرفوا الحق ، وهو فى هذا الموضع ، علمهم بأنهم لله ، وأنهم إليه راجعون ، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله .

ودلت هذه الآية ، على أن من لم يصبر ، فله ضد مالهم ، فحصل له الذم من الله ، والعقوبة ، والضلال والخسارة .

فما أعظم الفرق بين الفريقين « وما أقل تعب الصابرين ، وأعظم عناء الجازعين » .

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها ، لتخف وتسهل ، إذا وقعت .

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

وبيان ماتقابل به ، إذا وقعت ، وهو الصبر .

وبيان مايعين على الصبر ، وما للصابرين من الأجر .

ويعلم حال غير الصابر ، بضد حال الصابر .

وأن هذا الابتلاء والامتحان ، سنة الله التى قد خلت ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وبيان أنواع المصائب .

* يخبر تعالى [إن الصفا والمروة] وهما معروفان [من شعائر الله] أى أعلام دينه الظاهرة، التى تعبد الله بها عباده ،

وإذا كانا من شعائر الله ، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال [ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب] .

فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله ، وأن تعظيم شعائره ، من تقوى القلوب .

والتقوى واجبة على كل مكلف،وذلك يدل على أن السعى بهما فرض لازم للحج والعمرة ، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي صلى الله عليه وسلم وقال « خذوا عني مناسككم » .

[فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما] .

هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما ، لكونهما فى الجاهلية تعبد عندهما الأصنام .

. . . .

فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم ، لا لأنه غير لازم .

ودل تقييد نفى الجناح فيمن تطوف بهما فى الحج والعمرة ، أنه لا يتطوع بالسعى مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة .

بخلاف الطواف بالبيت ، فإنه يشرع مع العمرة والحج ، وهو عبادة مفردة .

فأما السعى والوقوف بعرفة ومزدلفة ، ورمى الجمار فإنها تتبع النسك .

فلو فعلت غير تابعة للنسك ، كانت بدعة ، لأن البدعة نوعان .

نوع يتعبد لله بعبادة ، لم يشرعها أصلا .

ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة ، فتفعل على غير تلك الصفة ، وهذا منه .

وقوله [ومن تطوع] أى : فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى [خيرا] من حج وعمرة ، وطواف ، وصلاة ، وصوم وغير ذلك [فهو خير له] .

فدل هذا ، على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ، ازداد خيره وكماله ، ودرجته عند الله ، لزيادة إيمانه .

ودل تقييد التطوع بالخير ، أن من تطوع بالبدع ، التي لم يشرعها الله ولا رسوله ، أنه لا يحصل له إلا العناء ، وليس بخير له ، بل قد يكون شرا له إن كان متعمدا عالما بعدم[1] مشروعية العمل .

---

(١) فى الأصل (لعدم) وهو خطأ لأن (علم) لا تتعدى إلا بالباء كما قال تعالى (والله عليم بذات الصدور) .

. . . .

[فإن الله شاكر عليم] الشاكر والشكور ، من أسماء الله تعالى ، الذى يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويجازيهم عليه ،العظيم من الأجر ، الذى إذا قام عبده بأوامره ، وامتثل طاعته ، أعانه على ذلك ، وأثنى عليه ومدحه ، وجازاه فى قلبه نورا وإيمانا ، وسعة ، وفى بدنه قوة ونشاطاً ، وفى جميع أحواله زيادة بركة ونماء ، وفى أعماله زيادة توفيق .

ثم بعد ذلك ، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرا ، لم تنقصه هذه الأمور .

ومن شكره لعبده ، أن من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيراً منه .

ومن تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا ، تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشى ، أتاه هرولة ، ومن عامله ، ربح عليه أضعافا مضاعفة .

ومع أنه شاكر ، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل ، بحسب نيته وإيمانه وتقواه ، ممن ليس كذلك .

عليم بأعمال العباد ، فلا يضيعها ، بل يجدونها أوفر ما كانت ، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ

هذه الآية ، وإن كانت نازلة فى أهل الكتاب ، وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله [من البينات] الدالات على الحق المظهرات له .

[والهدى] وهو العلم الذى تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم ، ويتبين به طريق أهل النعيم ، من طريق أهل الجحيم .

فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم ، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه .

فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين ، كتم ما أنزل الله ، والغش لعباد الله فأولئك (يلعنهم الله) أى : يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته .

[ويلعنهم اللاعنون] وهم جميع الخليقة ، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة ، لسعيهم فى غش الخلق وفساد أديانهم ، وإبعادهم من رحمة الله ، فجوزوا من جنس عملهم .

كما أن معلم الناس الخير ، يصلى الله عليه وملائكته ، حتى الحوت فى جوف الماء ، لسعيه فى مصلحة الخلق ، وإصلاح أديانهم ، وقربهم من رحمة الله ، فجوزى من جنس عمله .

فالكاتم لما أنزل الله ، مضاد لأمر الله ، مشاق لله ، يبين الله الآيات للناس ويوضحها .

عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وهذا يسعى في طمسها وإخفائها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد .

[إلا الذين تابوا) أى رجعوا عماهم عليه من الذنوب ، ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة (وأصلحوا) ما فسد من أعمالهم .

فلا يكفى ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن .

ولا يكفى ذلك فى الكاتم أيضا ، حتى يبين ما كتمه ، ويبدى ضد ما أخفى .

فهذا يتوب الله عليه ، لأن توبة الله غير محجوب عنها .

فمن أتى بسبب التوبة ، تاب الله عليه ، لأنه [التواب] أى. الرجاع على عباده بالعفو والصفح ، بعد الذنب إذا تابوا ، وبالإحسان والنعم بعد المنع ، إذا رجعوا .

[الرحيم] الذى اتصف بالرحمة العظيمة ، التى وسعت كل شيء .

ومن رحمته ، أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم ، لطفاً وكرما ، هذا حكم التائب من الذنب .

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ، ولم ينب إليه ، ولم يتب عن قريب فأولئك [عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين] .

لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتاً ، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول ، لأن الحكم يدور مع علته ، وجوداً وعدما .

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

و [خالدين فيها] أى : فى اللعنة ، أو فى العذاب ، وهما متلازمان .

و[ولا يخفف عنهم العذاب]بل عذابهم دائم شديد مستمر[ولاهم ينظرون] أى : يمهلون ، لأن وقت الإمهال — وهو الدنيا — قد مضى ، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون .

* يخبر تعالى — وهو أصدق القائلين — أنه [إله واحد] أى : متوحد متفرد فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

فليس له شريك فى ذاته ، ولا سمى له ولا كفو له ، ولا مثل ، ولا نظير ، ولا خالق ، ولا مدبر غيره .

فإذا كان كذلك ، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ، ولا يشرك به أحد من خلقه ، لأنه [الرحمن الرحيم] المتصف بالرحمة العظيمة ، التي لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حى .

فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات .

وبرحمته اندفع عنها كل نقمة .

وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة ، فمن الله ، وأن أحدا من المخلوقين ، لا ينفع أحداً — علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة ، وأن يفرد بالمحبة والخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والتوكل ، وغير ذلك من أنواع الطاعات .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

وأن من أظلم الظلم ، وأقبح القبيح ، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوقين من تراب ، برب الأرباب ، أو يعبدالمخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه ، مع الخالق المدبر القادر القوى . الذى قهر كل شيء . ودان له كل شيء .

فى هذه الآية ، إثبات وحدانية البارى وإلهيته . وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم ، واندفاع جميع النقم . فهذا دليل إجمالى على وحدانيته تعالى .

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال :

[إن فى خلق السموات الأرض . الآية] .

* أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة،آيات أى أدلة على وحدانية البارى وإلهيته . وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته .

ولكنها [لقوم يعقلون] أى : لمن لهم عقول يعملونها . فيما خلقت له .

فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبيره .

ففى [خلق السموات] فى ارتفاعها واتساعها ، وإحكامها ،وإتقانها ، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر ، والنجوم ، وتنظيمها لمصالح العباد .

وفى خلق [الأرض] مهادا للخلق ، يمكنهم القرار عليها، والانتفاع

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

بما عليها ، والاعتبار ، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها ، وحكمته التي بها أتقنها ، وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع ، من منافع الخلق ومصالحهم ، وضروراتهم وحاجاتهم .

وفى ذلك أبلغ الدليل على كماله ، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة ، لانفراده بالخلق والتدبير ، والقيام بشئون عباده .

وفى [اختلاف الليل والنهار] ، وهو تعاقبهما على الدوام ، إذا ذهب أحدهما ، خلفه الآخر .

وفى اختلافهما فى الحر ، والبرد ، والتوسط ، وفى الطول ، والقصر ، والتوسط ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول ، التى بها انتظام مصالح بنى آدم وحيواناتهم ، وجميع ما على وجه الأرض ، من أشجار ونباتات .

كل ذلك بانتظام وتدبير ، وتسخير ، تنبهر له العقول ، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها ، وعلمه وحكمته ، ورحمته الواسعة ، ولطفه الشامل ، وتصريفه وتدبيره ، الذى تفرد به ، وعظمته ، وعظمة ملكه وسلطانه ، مما يوجب أن يؤله ويعبد ، ويفرد بالمحبة والتعظيم ، والخوف والرجاء ، وبذل الجهد فى محابه ومراضيه .

وفى [الفلك التى تجرى فى البحر] وهى السفن والمراكب ونحوها ، مما ألهم الله عبـــاده صنعتها ، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ، ما أقدرهم عليها .

ثم سخر لهـا هذا البحر العظيم والرياح ، التى تحملها بما فيها من الركاب

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

والأموال ، والبضائع التى هى من منافع الناس ، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم .

فمن الذى ألهمهم صنعتها ، وأقدرهم عليها ، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها ؟.

أم من الذى سخر لها البحر، تجرى فيه بإذنه وتسخيره ، والرياح ؟.

أم من الذى خلق للمراكب البرية والبحرية ، النار والمعادن المعينة على حملها ، وحمل ما فيها من الأموال ؟

فهل هـذه الأمور ، حصلت اتفاقا ، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز ، الذى خرج من بطن أمه ، لا علم له ولا قدرة ؟ ثم خلق له ربه القدرة ، وعلمه ما يشاء تعليمه ؟

أم المسـخر لذلك رب واحد ، حكيم عليم ، لا يعجزه شىء ، ولا يمتنع عليه شىء ؟

بل الأشياء قد دانت بربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته؟

وغاية العبـد الضعيف ، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب ، التى بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمـة الله وعنايته بخلقه ، وذلك يوجب أن تـكون المحبة كلها له ، والخوف والرجاء ، وجميع الطاعة ، والذل والتعظيم .

[وما أنزل الله من السماء من ماء] وهو المطر النازل من السحاب .

. . . .

[فأحيا به الأرض بعـــد موتها] فأظهرت من أنواع الأقوات ، وأصناف النباتات ، ماهو من ضرورات الخلائق، التى لا يعيشون بدونها .

أليس ذلك دليلا على قدرة من أنزله ، وأخرج به ما أخرج ورحمتـه ، ولطفه بعبـاده ، وقيامه بمصالحهم ، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه ؟

أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم ؟

أليس ذلك دليلا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ؟

[وبث فيها] أى : فى الأرض [من كل دابة] أى : نشر فى أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ، ماهو دليل على قدرته وعظمته ، ووحدانيته وسلطانه العظيم .

وسخرها للناس ، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع .

فمنها : ما يأكلون من لحمه ، ويشربون من دره .

ومنها : ما يركبون .

ومنها : ماهو ساع فى مصالحهم وحراستهم ، ومنها ما يعتبر به .

ومنها : أنه بث فيها من كل دابة .

فإنه سبحانه ، هو القائم بأرزاقهم ، المتـكفل بأقواتهم .

فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها

وفى [تصريف الرياح] باردة وحارة ، وجنوباً وشمـالا ، وشرقا ودبوراً وبين ذلك .

. . . .

وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه ، وتارة تدره ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة تكون رحمة ، وتارة ترسل بالعذاب .

فمن الذى صرفها هذا التصريف ، وأودع فيها من منافع العباد ، مالا يستغنون عنه ؟

وسخرها ، ليعيش فيها جميع الحيوانات ، وتصلح الأبدان والأشجار ، والحبوب والنباتات[1] ، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ، ومحبة وإنابة وعبادة ؟

وفى تسخير السحاب بين السماء والأرض — على خفته ولطافته — يحمل الماء الكثير ، فيسوقه الله إلى حيث شاء .

---

(١) فى الأصل (النوابت) وهو خطأ فى التعبير ، قال فى القاموس : والنوابت : الأغمار من الأحداث ، والأغمار : مفرد (غمر) بضم الغين وسكون الميم ، أى : من لم يجرب الأمور ، بين الغمارة ، من قوم أغمار . اهـ صحاح بتصرف يسير .

وفى المصباح : ورجل غمر ، لم يجرب الأمور ، وقوم أغمار ، مثل قفل وأقفال ، والمرأة غمرة بضم الغين وسكون الميم ، يقال فى الفعل غمر بضم الميم فى الماضى والمضارع ومصدره « غمارة » بفتح الغين ، وبنو عقيل تقول : غمر من باب تعب ، وأصله : الصبى الذى لا عقل له . اهـ بتصرف ، ومن هنا يعلم خطأ استعمال (النوابت) مراداً بها (النباتات) .

. . . .

فيحيي به البلاد والعباد ، ويروى التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه .

فإذا كان يضرهم كثرته ، أمسكه عنهم ، فينزله رحمة ولطفاً ، ويصرفه عناية وعطفاً .

فما أعظم سلطانه ، وأغزر إحسانه ، وألطف امتنانه !!

أليس من القبيح بالعباد ، أن يتمتعوا برزقه ، ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه .

أليس ذلك دليلا على حلمه وصبره ، وعفوه وصفحه ، وعظيم لطفه ؟

فله الحمد أولا وآخراً ، وباطنا وظاهرا .

والحاصل ، أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات ، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات ، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة ، علم بذلك ، أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب دلالات ، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته ، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مسخرات ، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوى والسفلى كلهم إليه مفتقرون ، وإليه صامدون وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات .

فلا إله إلا الله ، ولا رب سواه .

ثم قال تعالى [ومن الناس] إلى [وما هم بخارجين من النار] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ

---

* ما أحسن اتصال هذه الآية بالتى قبلها .

فإنه تعالى ، لما بين وحدانيته وأداتها القاطعة ، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين ، المزيلة لـكل شك .

ذكر هنا أن [من الناس] مع هذا البيان التام [من يتخذ من دون الله أندادا] لله أى : نظراء ومثلاء ، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة ، والتعظيم والطاعة .

ومن كان بهذه الحالة — بعد إقامة الحجة ، وبيان التوحيد — علم أنه معاند لله ، مشاق له ، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر فى مخلوقاته ، فليس له أدنى عذر فى ذلك ، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله ، لا يسوونهم بالله فى الخلق والرزق والتدبير ، وإنما يسوونهم به ، فى العبادة ، فيعبدونهم ليقربوهم إليه .

وفى قوله « اتخذوا » دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له ، تسمية مجردة ، ولفظاً فارغاً من المعنى . كما قال تعالى .

[وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول] .

[إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن] .

يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق ، وغيره مخلوق ، والرب هو الرازق . ومن عداه مرزوق ، والله هو الغني وأنتم الفقراء .

وهو الكامل من كل الوجوه ، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه .

والله هو النافع الضار ، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء .

فعلم علماً يقينا ، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً .

سواء كان ملكا أو نبياً ، أو صالحا ، صنما ، أو غير ذلك .

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة ، والذل التام .

فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله [والذين آمنوا أشد حباً لله] أى: من أهل الأنداد لأندادهم ، لأنهم أخلصوا محبتهم له ، وهؤلاء أشركوا بها .

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه .

والمشركون أحبوا من لايستحق من الحب شيئاً ، ومحبته عين شقاء العبد وفساده ، وتشتت أمره .

فلهذا توعدهم الله بقوله .

[ولو يرى الذين ظلموا] باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله ، وسعيهم فيما يضرهم .

ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

[إذ يرون العذاب] أى : يوم القيامة عيانا بأبصارهم .

[أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب] أى : لعلموا علماً جازما ، أن القوة والقدرة لله كلها ، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء .

فتبين لهم فى ذلك فى اليوم ، ضعفها وعجزها ، لا كما اشتبه عليهم فى الدنيا ، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً ، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه .

نخاب ظنهم ، وبطل سعيهم ، وحق عليهم شدة العذاب ، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً ، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع .

بل يحصل لهم الضرر منها ، من حيث ظنوا نفعها .

وتبرأ المتبعون من التابعين ، وتقطعت بينهم الوصل ، التى كانت فى الدنيا ، لأنها كانت لغير الله ، وعلى غير أمر الله ، ومتعلقة بالباطل الذى لاحقيقة له ، فاضمحلت أعمالهم ، وتلاشت أحوالهم .

وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين ، وأن أعمالهم التى يؤملون نفعها وحصول نتيجتها ، انقلبت عليهم حسرة وندامة ، وأنهم خالدون فى النار لايخرجون منها أبداً .

فهل بعد هذا الخسران خسران ؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل ، ورجوا غير مرجو ، وتعلقوا بغير متعلق ، فبطلت الاعمال ببطلان متعلقها .

ولما بطلت ، وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها ، فضرتهم غاية الضرر .

تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين ، وأخلص العمل لوجهه ، ورجا نفعه .

فهذا قد وضع الحق فى موضعه ، فكانت أعماله حقاً ، لتعلقها بالحق ، ففاز بنتيجة عمله ، ووجد جزاءه عند ربه ، غير منقطع كما قال تعالى .

[الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم] .

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم ، بأن يتركوا الشرك بالله ، ويقبلوا على إخلاص العمل لله .

وهيهات ، فات الأمر ، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار .

ومع هذا ، فهم كذبة ، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وإنما هو قول يقولونه ، وأمانى يتمنونها ، حنقاً وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم .

فرأس المتبوعين على الشر ، إبليس ، ومع هذا يقول لأتباعه .

[لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا

هذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم .

[فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما فى الأرض ، من حبوب ، وثمار ، وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها [حلالا] .

أى : محللا لكم تناوله . ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصلا بمعاملة محرمة أو على وجه محرم أو معينا على محرم .

[طيباً] أى ليس : بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث كلها .

ففى هذه الآية ، دليل على أن الأصل فى الأعيان الإباحة . أكلا وانتفاعا ، وأن المحرم نوعان :

إما محرم لذاته ، وهو الخبيث الذى هو ضد الطيب .

وإما محرم لما عرض له ، وهو المحرم لتعلق حق الله ، أوحق عباده به ، وهو ضد الحلال .

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب ، يأثم تاركه لظاهر الأمر .

ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به . إذ هو عين صلاحهم ، نهاهم عن اتباع [خطوات الشيطان] أى : طرقه التي يأمر بها ، وهى جميع المعاصى ، من كفر ، وفسوق ، وظلم .

يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا

[ويدخل فى ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك .

ويدخل فيه تناول المأكولات المحرمة .

[إنه لكم عدو مبين] أى : ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم ، إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير .

فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته ، حتى أخبرنا — وهو أصدق القائلين ـ بعداوته الداعية للحذر منه ، ثم لم يكتف بذلك ، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به ، وأنه أقبح الأشياء ، وأعظمها مفسدة فقال :

[إنما يأمركم بالسوء] أى : الشر الذى يسوء صاحبه ، فيدخل فى ذلك ، جميع المعاصى .

فيكون قوله : [والفحشاء] من باب عطف الخاص على العام ، لأن الفحشاء من المعاصى ، ما تناهى قبحه ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والقتل ، والقذف ، والبخل ونحو ذلك ، مما يستفحشه من له عقل .

[وأن تقولوا على الله مالا تعلمون] فيدخل فى ذلك ، القول على الله بلا علم ، فى شرعه ، وقدره .

فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه ، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن زعم أن لله نداً ، وأوثانا ، تقرب من عبدها من الله ، فقد قال على الله تعالى بلا علم .

عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ومن قال : إن الله أحل كذا ، أو حرم كذا ، أو أمر بكذا ، أو نهى عن كذا ، بغير بصيرة ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن قال : الله خلق هذا الصنف من المخلوقات،للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن أعظم القول على الله بلا علم ، أن يتأول المتأول كلامه ، أوكلام رسوله ، على معانى اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال ، ثم يقول : إن الله أرادها .

فالقول على الله بلا علم ، من أكبر المحرمات ، وأشملها ، وأكبر طرق الشيطان التى يدعو إليها ،

فهذه طرق الشيطان التى يدعو إليها هو وجنوده ، ويبذلون مكرهم وخداعهم ، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه .

وأما الله تعالى ، فإنه يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

فلينظر العبد نفسه ، مع أى الداعيين ، ومن أى الحزبين ؟

أتتبع داعى الله الذى يريد لك الخير والسعادة الدنوية والأخروية ، الذى كل الفلاح بطاعته ، وكل الفوز فى خدمته ، وجميع الأرباح فى معاملة

. . . .

المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، الذى لا يأمر إلا بالخير ، ولاينهى إلا عن الشر .

أم تتبع داعى الشيطان ، الذى هو عدو الإنسان ، الذى يريد لك الشر ، ويسعى — بجهده — على إهلاكك فى الدنيا والآخرة .

الذى كل الشر فى طاعته ، وكل الخسران فى ولايته .

والذى لا يأمر إلا بشر ، ولا ينهى إلا عن خير .

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله ، مما تقدم وصفه ، رغبوا عن ذلك وقالوا .

[بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا] .

فاكتفوا بتقليد الآباء ، وزهدوا فى الإيمان بالأنبياء .

ومع هـذا ، فآباؤهم أجهل الناس ، وأشدهم ضلالا وهذه شبهة لرد الحق ، واهية .

فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ، ورغبتهم عنه ، وعدم إنصافهم.

فلو هدوا ، لرشدهم ، وحسن قصدهم ، لكان الحق هو القصد .

ومن جعل الحق قصده ، ووازن بينه وبين غيره ، تبين له الحق قطعا ، واتبعه ، إن كان منصفاً .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

ثم قال تعالى [ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون] .

لما بين تعالى ، عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل ، وردهم لذلك ، بالتقليد ، وعلم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ، ولا مستجيبين له ، بل كان معلوما لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم — أخبر تعالى ، أن مثلهم- عند دعاء الداعى لهم إلى الإيمان- كمثل البهائم التى ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها .

فهم يسمعون مجرد الصوت ، الذى تقوم به عليهم الحجة ، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم ، فلهذا كانوا صما، لايسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميا ، لاينظرون نظر اعتبار ، بكما ، فلا ينطقون بما فيه خير لهم .

والسبب الموجب لذلك كله ، أنه ليس لهم عقل صحيح ، بل هم أسفه السفهاء ، وأجهل الجهلاء .

فهل يستريب العاقل ، أن من دعى إلى الرشاد ، وذيد عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب ، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه ، وفوزه ،ونعيمه فعصى الناصح ، وتولى عن أمر ربه ، واقتحم النار على بصيرة ، واتبع الباطل ، ونبذ الحق — أن هذا ليس له مسكة من عقل ، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء ، فإنه من أسفه السفهاء .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ

هذا أمر للمؤمنين خاصة ، بعد الأمر العام ، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة — بالأوامر والنواهى ، بسبب إيمانهم ،

فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، والشكر لله على إنعامه ، باستعمالها بطاعته ، والتقوى بها على مايوصل إليه .

فأمرهم بما أمر به المرسلين فى قوله [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا] .

فالشكر فى هذه الآية ، هو العمل الصالح .

وهنا لم يقل « حلالا » لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق ، خالصة من التبعة .

ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له .

وقوله [إن كنتم إياه تعبدون] أى : فاشكروه .

فدل على أن من لم يشكر الله ، لم يعبده وحده ، كما أن من شكره ، فقد عبده ، وأتى بما أمر به .

ويدل أيضا على أن أكل الطيب ، سبب للعمل الصالح وقبوله .

والأمر بالشكر ،عقيب النعم ، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة .

ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

كما أن الكفر، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة[1].

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال [إنما حرم عليكم الميتة] وهى : ما مات بغير تذكيه شرعية ، لأن الميتة خبيثة مضرة ، لرداءتها فى نفسها ، ولأن الأغلب ، أن تكون عن مرض ، فيكون زيادة مرض .

واستثنى الشارع من هذا العموم ، ميتة الجراد ، وسمك البحر ، فإنه حلال طيب .

[والدم] أى : المسفوح كما قيد فى الآية الأخرى .

[وما أهل به لغير الله] أى : ذبح لغير الله ، كالذى يذبح للاصنام والأوثان ، من الأحجار ، والقبور ونحوها ، وهذا المذكور غير خاص للمحرمات .

وجىء به، لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله [طيبات].

فعموم المحرمات ، تستفاد من الآية السابقة ، من قوله : [حلالا طيبا] كما تقدم .

---

(١) وقوله (أن الكفر ينفر النعم المفقودة الخ) عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله .

إذَا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ۞ فَإِنَّ ٱلْمَعَاصِى تُزِيلُ ٱلنِّعَمْ

. . . .

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها ، لطفا بنا ، وتنزيها عن المضر .
ومع هذا [فمن اضطر] أى : ألجئ إلى المحرم ، بجوع وعدم ، وإكراه .
[غير باغ] أى : غير طالب المحرم ، مع قدرته على الحلال ، أو مع عدم جوعه .
[ولا عاد] أى : متجاوز الحد فى تناول ما أبيح له ، اضطراراً .
[فلا إثم] أى: جناح وذنب [عليه] .
وإذا ارتفع الإثم ، رجع الأمر إلى ما كان عليه .
والإنسان بهذه الحالة ، مأمور بالأكل ، بل منهى أن يلقى بيده إلى التهلكة ، وأن يقتل نفسه .
فيجب ، إذا ، عليه الأكل ، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ، فيكون قاتلا لنفسه .
وهذه الإباحة والتوسعة ، من رحمته تعالى بعباده ،
فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال :
[إن الله غفور رحيم] .
ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين ، وكان الإنسان فى هذه الحالة ، ربما لا يستقصى تمام الاستقصاء فى تحقيقها — أخبر ، أنه غفور ، فيغفر ما أخطأ فيه فى هذه الحال ، خصوصاً وقد غلبته الضرورة ، وأذهبت حواسه المشقة .
وفى هذه الآية ، دليل على القاعدة المشهورة « الضرورات تبيح المحظورات » .
فكل محظور، اضطر إليه الإنسان ، فقد أباحه له ، الملك الرحمن .
فله الحمد والشكر ، أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله ، من العلم الذى أخذ الله الميثاق على أهله ، أن يبينوه للناس ولا يكتموه .

فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوى ، ونبذ أمر الله ، فأولئك .

[ما يأكلون فى بطونهم إلا النار] ، لأن هذا الثمن الذى اكتسبوه ، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب ، وأعظم المحرمات ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم .

[ولا يكلمهم الله يوم القيامة] بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم .

فهذا أعظم عليهم من عذاب النار .

[ولا يزكيهم] أى : لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة ، وليس(١) لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها .

وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التى أعظم أسبابها ، العمل بكتاب الله ، والاهتداء به ، والدعوة إليه .

فهؤلاء نبذوا كتاب الله ، وأعرضوا عنه ، واختاروا الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة .

---

(١) قوله : (وليس لهم أعمال إلخ) هكذا فى الأصل والصواب أن يقال : (إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح الخ) لأن المقام يقتضى التعليل بدليل قوله : (لأنهم فعلوا أسباب التزكية الخ) .

أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النـــار ، فـكيف يصبرون عليها ، وأنى لهم الجلد عليها ؟ !!

[ذلك] المذكور ، وهو مجازاته بالعدل ، ومنعه أسباب الهداية ، ممن أباها واختار سواها .

[بأن الله نزل الـكتاب بالحق] ومن الحق ، مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وأيضاً ففي قوله : [نزل الـكتاب بالحق] مايدل على أن الله أنزله لهداية خلقه ، وتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال .

فمن صرفه عن مقصوده ، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة .

[وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد] أى : وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه .

والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم [لفى شـــقاق] أى : محادة .

[بعيد] من الحق لأنهم قد خالفوا الـكتاب الذى جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض .

فمرج أمرهم ، وكثر شقاقهم ، وترتب على ذلك افتراقهم .

بخلاف أهل الـكتاب الذين آمنوا به ، وحكموه فى كل شيء ، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه .

﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ

وقد تضمنت هذه الآيات ، الوعيد للكاتمين لما أنزل الله ، المؤثرين عليه ، عرض الدنيا — بالعذاب والسخط ، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ، ولا بالمغفرة .

وذكر السبب فى ذلك وهو إيثارهم الضلالة على الهدى .

فترتب على ذلك ، اختيار العذاب على المغفرة .

ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار ، لعلمهم بالأسباب التى يعلمون أنها موصلة إليها .

وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه ، وعدم الافتراق .

وأن كل من خالفه ، فهو فى غاية البعد عن الحق ، والمنازعة والمخاصمة ، والله أعلم .

* يقول تعالى: [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب] أى : ليس هذا هو البر المقصود من العباد ، فيكون كثرة البحث فيه والجدال ، من العناء الذى ليس تحته إلا الشقاق والخلاف .

وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » ونحو ذلك .

[ولكن البر من آمن بالله] أى : بأنه إله واحد ، موصوف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص .

[واليوم الآخر] وهو كل ما أخبر الله به فى كتابه ، أو أخبر به الرسول ، مما يكون بعد الموت .

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ

[والملائكة] الذين وصفهم الله لنا فى كتابه ، ووصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

[والكتاب] أى : جنس الكتب التى أنزلها الله على رسوله ، وأعظمها القرآن ، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام .

[والنبيين] عموماً ، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم

[وآتى المال] وهو كل ما يتموله الإنسان من مال ، قليلا كان أو كثيرا .

أى : أعطى المال [على حبه] أى : حب المال [على حبه] أى : حب المال .

بين به أن المال محبوب للنفوس ، فلا يكاد يخرجه العبد .

فمن أخرجه مع حبه له ، تقرباً إلى الله تعالى ، كان هذا برهانا لإيمانه.

ومن إيتاء المال على حبه ، أن يتصدق وهو صحيح شحيح ، يأمل الغنى ، ويخشى الفقر .

وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة ، كان أفضل ، لأنه فى هذه الحال، يحب إمساكه ، لما يتوهمه من العدم والفقر .

وكذلك إخراج النفيس من المال ، وما يحبه من ماله كما قال تعالى :

[لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] .

فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه .

ثم ذكر المنفق عليهم ، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك .

من [ذوى القربى] الذين تتوجع لمصابهم ، وتفرح بسرورهم ، الذين يتناصرون ويتعاقلون .

وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

فمن أحسن البر وأوفقه ، تعاهد الأقارب بالإحسان المالى والقولى ، على حسب قربهم وحاجتهم .

[واليتامى] الذين لا كاسب لهم ، وليس لهم قوة يستغنون بها .

وهذا من رحمته تعالى بالعباد ، الدالة على أنه تعالى ، أرحم بهم من الوالد بولده .

فالله قد أوصى العباد ، وفرض عليهم فى أموالهم ، الإحسان إلى من فقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه .

ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره ، رحم يتيمه .

[والمساكين] وهم الذين أسكنتهم الحاجة ، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء ، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها ، بما يقدرون عليه ، وبما يتيسر .

[وابن السبيل] وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده .

فحث الله عباده على إعطائه من المال ، ما يعينه على سفره ، لكونه مظنة الحاجة ، وكثرة المصارف .

فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته ، وخوله من نعمته ، أن يرحم أخاه الغريب ، الذى بهذه الصفة ، على حسب استطاعته ، ولو بتزويده ، أو إعطائه آلة لسفره ، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها .

[والسائلين] أى : الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج ، توجب السؤال .

كمن ابتلى بأرش جناية ، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور ، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة ، كالمساجد ، والمدارس ، والقناطر ، ونحو ذلك ،

فهذا له الحق ، وإن كان غنياً [وفى الرقاب] فيدخل فيه العتق والإعانة عليه ، وبذل مال للمكاتب ، ليوفى سيده ، وفداء الأسرى عند الكفار ، أو عند الظلمة .

[وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة] قد تقدم مرارا ، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة ، لكونهما أفضل العبادات ، وأكمل القربات ، عبادات قلبية ، وبدنية ، ومالية ، وبهما يوزن الإيمان ، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان .

[والموفون بعهدهم إذا عاهدوا] والعهد ، هو ، الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه .

فدخل فى ذلك حقوق الله كلها ، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها ، ودخلوا تحت عهدتها ، ووجب عليهم أداؤها ، وحقوق العباد ، التى أوجبها الله عليهم ، والحقوق التى التزمها العبد كالأيمان والنذور ، ونحو ذلك .

[والصابرين فى البأساء] أى : الفقر ، لأن الفقير يحتاج الى الصبر من وجوه كثيرة ، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ، ما لا يحصل لغيره .

فإن تنعم الأغنياء ، بما لا يقدر عليه ، تألم .

وإن جاع ، أو جاعت عياله ، تألم .

وإن أكل طعاما ، غير موافق لهواه ، تألم .

وإن عرى ، أو كاد ، تألم ، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذى يستعد له تألم ، وإن أصابه البرد الذى لا يقدر على دفعه ، تألم .

ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

فـكل هذه ونحوها ، مصائب ، يؤمر بالصبر عليها ، والاحتساب ، ورجاء الثواب من الله عليها .

[والضراء] أى : المرض على اختلاف أنواعه ، من حمى ، وقروح ، ورياح ، ووجع عضو ، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك ، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك .

لأن النفس تضعف ، والبدن ، يألم ، وذلك فى غاية المشقة على النفوس، خصوصا مع تطاول ذلك ، فإنه يؤمر بالصبر ، احتسابا لثواب الله تعالى .

[وحين البأس] أى : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلاد، يشق غاية المشقة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح، أو الأسر ، فاحتيج إلى الصبر فى ذلك ، احتسابا ، ورجاء لثواب الله تعالى ، الذى منه النصر والمعونة ، التى وعدها الصابرين .

[أولئك] أى : المتصفون بما ذكر ، من العقائد الحسنة ، والأعمال التى هى آثار الإيمان ، وبرهانه ونوره ، والأخلاق التى هى جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية .

فأولئك [الذين صدقوا] فى إيمانهم ، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم .

[وأولئك هم المتقون] لأنهم تركوا المحظور ، وفعلوا المأمور .

لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير ، تضمنا ولزوما ، لأن الوفاء بالعهد ، يدخل فيه الدين كله .

ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة ، من الثواب الدنيوى والأخروى ، مما لا يمكن تفصيله فى مثل هذا الموضع .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ

يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم [القصاص فى القتلى] أى : المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل على الصفة ، التى قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين ، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه ـ إعانة ولى المقتول ، إذا طلب القصاص ويمكنه من القاتل، وأنه لايجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولى من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ، ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم بين تفصيل ذلك فقال [الحر بالحر] يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر .

[والأنثى بالأنثى] والأنثى بالذكر ، والذكر بالأنثى ، فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله « الأنثى بالأنثى » مع دلالة السنة ، على أن الذكر يقتل بالأنثى .

وخرج من عموم هذا ، الأبوان وإن علوا .

فلا يقتلان بالولد ، لورود السنة بذلك .

مع أن فى قوله [القصاص] ما يدل على أنه ليس من العدل ، أن يقتل الوالد بولده .

ولأن فى قلب الوالد من الشفقة والرحمة ، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال فى عقله ، أو أذية شديدة جداً من الولد له .

وخرج من العموم أيضاً ، الكافر بالسنة ، مع أن الآية فى خطاب المؤمنين خاصة .

مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولى الله بعدوه .

والعبد بالعبد ، ذكراً كان أو أنثى ، تساوت قيمتهما أو اختلفت .

ودل بمفهومها على أن الحر ، لايقتل بالعبد ، لكونه غير مساو له .

والأنثى بالأنثى ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الأصل وجوب القود فى القتل ، وأن الدية بدل عنه .

فلهذا قال [فمن عفى له من أخيه شيء] أى عفا ولى المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص ، وتجب الدية ، وتكون الخيرة فى القود ، واختيار الدية إلى الولى .

فإذا عفا عنه ، وجب على الولى ، أى : ولى المقتول أن يتبع القاتل [بالمعروف] من غير أن يشق عليه ، ولايحمله مالا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ، ولا يحرجه .

وعلى القاتل [أداء إليه بإحسان] من غير مطل ولا نقص ، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء .

وهذا مأمور به فى كل ما يثبت فى ذمم الناس للانسان .

مأمور من له الحق ، بالاتباع بالمعروف .

ومن عليه الحق ، بالأداء بالاحسان .

وفى قوله [فمن عفى له من أخيه] ترقيق وحث على العفو إلى الدية .

وأحسن من ذلك ، العفو مجانا .

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

وفى قوله [أخيه] دليل على أن القاتل ، لايكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا ، أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها .

ومن باب أولى ، أن سائر المعاصى ، التى هى دون الكفر ، ولايكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

وإذا عفا أولياء المقتول ، أو عفا بعضهم ، احتقن دم القاتل ، وصار معصوما منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال [فمن اعتدى بعد ذلك] أى : بعد العفو [فله عذاب أليم] أى : فى الآخرة .

وأما قتله وعدمه ، فيؤخذ مما تقدم ، لأنه قتل مكافئا له ، فيجب قتله بذلك .

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل ، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ، ولايجوز العفو عنه ، وبذلك قال بعض العلماء .

والصحيح الأول ، لأن جنايته لاتزيد على جناية غيره .

ثم بين تعالى حكمته العظيمة فى مشروعية القصاص فقال :

[ولكم فى القصاص حياة] أى : تنحقن بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل ، لايكاد يصدر منه القتل ، وإذا رؤى القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره ، وانزجر ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذى يحصل بالقتل .

وهكذا سائر الحدود الشرعية ، فيها من النكاية والانزجار ، مايدل على حكمة الحكيم الغفار .

ونكر « الحياة » لإفادة التعظيم والتكثير .

ولما كان هذا الحكم ، لايعرف حقيقته ، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة ، خصهم بالخطاب دون غيرهم .

وهذا يدل على أن الله تعالى ، يحب من عباده ، أن يعملوا أفكارهم وعقولهم ، فى تدبر ما فى أحكامه ، من الحكم ، والمصالح الدالة على كماله ، وكمال حكمته وحمده ، وعدله ورحمته الواسعة وأن من كان بهذه المثابة ، فقد استحق المدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب ، وكفى بذلك فضلا وشرفا ، لقوم يعقلون .

وقوله [لعلكم تتقون] وذلك أن من عرف ربه وعرف ما فى دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة ، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله ، ويعظم معاصيه ، فيتركها ، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين .

☆ أى. فرض الله عليكم ، يا معشر المؤمنين [إذا حضر أحدكم الموت] أى : أسبابه ، كالمرض المشرف على الهلاك ، وحضور أسباب المهالك .

وكان قد [ترك خيراً] وهو المال الكثير عرفا ، فعليه أن يوصى لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف ، على قدر حاله من غير سرف ، ولا اقتصار على الأبعد ، دون الأقرب .

بل يرتبهم على القرب والحاجة ، ولهذا أتى بأفعل التفضيل .

وقوله [حقاً على المتقين] دل على وجوب ذلك ، لأن الحق هو : الثابت وقد جعله الله من موجبات التقوى .

خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث.

وبعضهم يرى أنها فى الوالدين والأقربين غير الوارثين ، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل .

والأحسن فى هذا أن يقال : إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجارى .

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف فى آيات المواريث ، بعد أن مجملا .

وبقى الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف ، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره .

وهذا القول تتفق عليه الأمة ، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين ، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظا ، واختلف المورد .

فبهذا الجمع ، يحصل الاتفاق ، والجمع بين الآيات ، فإنه أمكن الجمع ، كان أحسن من ادعاء النسخ ، الذى لم يدل عليه دليل صحيح .

ولما كان الموصى قد يمتنع من الوصية ، لما يتوهمه أن من بعده ، قد يبدل ما وصى به قال تعالى .

[فمن بدله] أى : أى الإيصاء للمذكورين أو غيرهم [بعد ما سمعه] أى : بعد ما عقله ، وعرف طرقه وتنفيذه .

عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

[فإنما إثمه على الذين يبدلونه] وإلا فالموصى وقع أجره على الله ، وإنما الإثم على المبدل المغير .

[إن الله سميع] يسمع سائر الأصوات ، ومنه سماعه لمقالة الموصى ووصيته .

فينبغى له أن يراقب من يسمعه ويراه ، وأن لا يجور فى وصيته .

[عليم] بنيته ، وعليم بعمل الموصى إليه .

فإذا اجتهد الموصى ، وعلم الله من نيته ذلك ، أثابه ولو أخطأ .

وفيه ، التحذير للموصى إليه من التبديل .

فإن الله عليم به ، مطلع على فعله ، فليحذر من الله . هذا حكم الوصية العادلة .

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف ، وإثم .

فينبغى لمن حضر الموصى وقت الوصية بها ، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل ، وأن ينهاه عن الجور .

والجنف ، وهو : الميل بها عن خطأ ، من غير تعمد ، والاثم : وهو التعمد لذلك .

فإن لم يفعل ذلك ، فينبغى له أن يصلح بين الموصى إليهم ، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضى والمصالحة ، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفاً عظيما ، وليس عليهم ، كما على مبدل الوصية الجائرة ولهذا قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

[إن الله غفور] أى : يغفر جميع الزلات ، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه ، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه ، وترك بعض حقه لأخيه ، لأن من سامح ، سامحه الله .

غفور لميتهم الجائر فى وصيته ، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته .

رحيم بعباده ، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون .

فدلت هذه الآيات ، على الحث على الوصية ، وعلى بيان من هى له ، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب فى الإصلاح فى الوصية الجائرة.

☆ يخبر تعالى، بما من الله به على عباده ، بأنه فرض عليهم الصيام ، كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع والأوامر ، التي هى مصلحة للخلق فى كل زمان .

وفيه تنشيط لهذه الأمة ، بأنه ينبغى لكم أن تنافسوا غيركم فى تكميل الأعمال ، والمسارعة إلى صالح الخصال ، وأنه ليس من الأمور الثقيلة ، التي اختصصتم بها .

ثم ذكر تعالى حكمته فى مشروعية الصيام فقال [لعلكم تتقون] .

فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه .

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

فما اشتمل عليه من التقوى ، أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها ، التي تميل إليها نفسه ، متقرباً بذلك إلى الله ، راجيا بتركها ، ثوابه . فهذا من التقوى .

ومنها أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى ، فيترك ما تهوى نفسه ، مع قدرته عليه ، لعلمه باطلاع الله عليه .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان ، فإنه يجرى من ابن آدم ، مجرى الدم ، فبالصيام ، يضعف نفوذه ، وتقل منه المعاصى .

ومنها : أن الصائم فى الغالب ، تكثر طاعته ، والطاعات من خصال التقوى .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع ، أوجب له ذلك ، مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام ، أخبر أنه أيام معدودات ، أى : قليلة فى غاية السهولة .

ثم سهل تسهيلا آخر . فقال [فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر] وذلك للمشقة ، فى الغالب ، رخص الله لهما ، فى الفطر .

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن ، أمرهما أن يقضياه فى أيام أخر إذا زال المرض ، وانقضى السفر ، وحصلت الراحة .

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

وفى قوله [فعدة من أيام] فيه دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان ، كاملا كان ، أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماقصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وقوله [وعلى الذين يطيقونه] أى : يطيقون الصيام [فدية] عن كل يوم يفطرونه [طعام مسكين] .

وهذا فى ابتداء فرض الصيام ، لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان فرضه حتما ، فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم ، بأسهل طريق .

وخير المطيق للصوم ، ، بين أن يصوم ، وهو أفضل ، أو يطعم .

ولهذا قال : [وأن تصوموا خير لكم] .

ثم بعد ذلك ، جعل الصيام حتما على المطيق وغير المطيق ، يفطر ويقضيه فى أيام أخر .

وقيل [وعلى الذين يطيقونه] أى يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة ، كالشيخ الكبير ، فدية عن كل يوم ، طعام مسكين ، وهذا هو الصحيح .

[شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن] أى : الصوم المفروض عليكم ، هو شهر رمضان ، الشهر العظيم ، الذى قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم .

. . . .

وهو القرآن الـكريم ، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان ، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال ، وأهل السعادة وأهل الشقاوة .

لحقيق بشهر ، هذا فضله ، وهذا إحسان الله عليـكم فيه ، أن يكون موسماً للعباد ومفروضاً فيه الصيام .

فلما قرره ، وبين فضيلته ، وحكمة الله تعالى فى تخصيصه قال :

[فمن شهد منكم الشهر فليصمه] هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر .

ولما كان النسخ للتخيير ، بين الصيام والفداء خاصة ، أعاد الرخصة للمريض والمسافر ، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضا منسوخة فقال :

[يريد الله بكم اليسر ولا يريد بـكم العسر] أى : يريد الله تعالى ، أن ييسر عليـكم الطرق الموصلة إلى رضوانه ، أعظم تيسير ، ويسهلها أبلغ تسهيل .

ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده فى غاية السهولة فى أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله ، سهله تسهيلا آخر ، إما بإسقاطه ، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات .

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها ، لأن تفاصيلها ، جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات .

[ولتـكملوا العدة] وهذا — والله أعلم — لئلا يتوهم متوهم ، أن صيام رمضان ، يحصل المقصود منه ببعضه ، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

عدته ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده ، وبالتكبير عند انقضائه ، ويدخل فى ذلك ، التكبير عند رؤية هلال شوال، إلى فراغ خطبة العيد .

* هذا جواب سؤال سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا : يارسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل .

[وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب] لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ، المطلع على السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو قريب أيضاً من داعيه ، بالإجابة .

ولهذا قال [أجيب دعوة الداع إذا دعان] .

والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة ، والمعونة والتوفيق .

فمن دعا ربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة .

وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهى الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ، الموجب للاستجابة .

فلهذا قال : [فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون] أى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟

يحصل لهم الرشد ، الذى هو الهداية للايمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم البغى ، المنافى للايمان والأعمال الصالحة .

ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما قال تعالى .

[يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] .

ثم قال تعالى [أحل لكم] إلى قوله [لعلهم يتقون] .

* كان فى أول فرض الصيام ، يحرم على المسلمين ، الأكل ، والشرب ، والجماع فى الليل بعد النوم ، فحصلت المشقة لبعضهم .

فخفف الله تعالى عنهم ذلك ، وأباح فى ليالى الصيام كلها ، الأكل ، والشرب ، والجماع . سواء نام أو لم ينم ، لكونهم يختانون أنفسهم ، بترك بعض ما أمروا به .

[فتاب] الله [عليكم] بأن وسع لكم أمراً كان — لولا توسعته — موجباً للاثم [وعفا عنكم] ماسلف من التخون .

[فالآن] بعد هذه الرخصة والسعة من الله [باشروهن] وطئا وقبلة ولمسا وغير ذلك .

[وابتغوا ما كتب الله لكم] أى : انووا فى مباشرتكم لزوجاتكم ، التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء ، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه ، وفرج زوجته ، وحصول مقاصد النكاح .

مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالى صيام رمضان فلاينبغى لكم ، أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها ، وتضيعوها .

فاللذة مدركة ، وليلة القدر — إذا فاتت — لم تدرك .

[وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر] هذا غاية للأكل والشرب والجماع .

وفيه أنه إذا أكل ونحوه ، شاكا فى طلوع الفجر ، فلا بأس عليه .

وفيه دليل على استحباب السحور ، للأمر ، وأنه يستحب تأخيره ، أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد .

وفيه أيضاً ، دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر ، وهو جنب من الجماع ، قبل أن يغتسل ، ويصح صيامه ، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر ، أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق .

[ثم] إذا طلع الفجر [أتموا الصيام] أى : الإمساك عن المفطرات [إلى الليل] وهو غروب الشمس .

ولما كان إباحة الوطء فى ليالى الصيام ، ليست إباحة عامة لكل أحد ، فإن المعتكف لايحل له ذلك ، استثناه بقوله .

[ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد] أى : وأنتم متصفون بذلك .

حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ، وهو لزوم المسجد ، لطاعة الله[1] تعالى ، وانقطاعا إليه وأن الاعتكاف لايصح إلا فى مسجد .

ويستفاد من تعريف المساجد ، أنها المساجد المعروفة عندهم ، وهى التى تقام فيها الصلوات الخمس .

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

تلك المذكورات — وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات فى الصيام ، وتحريم الفطر على غير المعذور ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات [حدود الله] التى حدها لعباده ، ونهاهم عنها فقال :

[فلا تقربوها] أبلغ من قوله « فلا تفعلوها » لأن القربان ، يشمل النهى عن فعل المحرم بنفسه ، والنهى عن وسائله الموصلة إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها ، غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليه .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » فنهى عن مجاوزتها .

---

(١) قوله (لطاعة الله) الأنسب (طاعة لله) ليتناسب مع قوله (انقطاعا) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ

[كذلك] أى : يبين(١) الله لعباده الأحكام السابقة ، أتم تبيين ، وأوضحها لهم ، أكمل إيضاح .

[يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون] فإنهم إذا بان لهم الحق ، اتبعوه وإذا تبين لهم الباطل ، اجتنبوه .

فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله .

فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سببا للتقوى .

﴿ أى : ولا تأخذوا أموالكم أى : أموال غيركم .

أضافه إليهم ، لأنه ينبغى للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله ، كما يحترم ماله ولأن أكله لمال غيره يجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعا بحق ، ونوعا بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده الله تعالى بذلك .

ويدخل بذلك ، أكلها على وجه الغصب ، والسرقة ، والخيانة فى وديعة أو عارية ، أو نحو ذلك .

ويدخل فيه أيضاً ، أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا ، والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس فى مقابلة عوض مباح .

---

(١) قوله « يبين » كذا فى الأصل وهو تحريف بدليل ما بعد وهو (وأوضحها) ولذلك أصلحناها بـ « بين » .

بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

ويدخل فى ذلك أخذها ، بسبب غش فى البيع ، والشراء، والإجارة، ونحوها .

ويدخل فى ذلك ، استعمال الأجرار ، وأكل أجرتهم .

وكذلك أخذهم أجرة على عمل ، لم يقوموا بواجبه .

ويدخل فى ذلك ، أخذ الأجرة على العبادات والقربات، التى لاتصح، حتى يقصد بها وجه الله تعالى .

ويدخل فى ذلك ، الأخذ من الزكوات والصدقات ، والأوقاف ، والوصايا ، لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه ، من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه .

حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة ، غلبت حجة المحق ، وحكم له الحاكم بذلك .

فإن حكم الحاكم ، لا يبيح محرماً ، ولا يحلل حراما ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية .

فليس فى حكم الحاكم للمبطل راحة ، ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة ، وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون آكلا لمال غيره ، بالباطل والإثم ، وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ فى عقوبته ، وأشد فى نكاله .

وعلى هذا ، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل فى دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى [ولا تكن للخائنين خصيما]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ

فقوله تعالى [يسألونك عن الأهلة] جمع — هلال — مافائدتها وحكمتها، أو عن ذاتها .

[قل هى مواقيت للناس] أى جعلها الله تعالى ، بلطفه ورحمته ، على هذا التدبير .

يبدو الهلال ضعيفاً فى أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع فى النقص إلى كماله[1] ، وهكذا ، ليعرف الناس بذلك ، مواقيت عباداتهم ، من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع فى أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتا كثيرة قال : [والحج] وكذلك تعرف بذلك ، أوقات الديون المؤجلات ، ومدة الإجارات ، ومدة العدد[2] والحمل ، وغير ذلك ، مما هو من حاجات الخلق.

فجعله تعالى ، حساباً ، يعرفه كل أحد ، من صغير ، وكبير ، وعالم ، وجاهل .

فلو كان الحساب بالسنة الشمسية ، لم يعرفه إلا النادر من الناس .

[وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها] وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب ، إذا أحرموا ، لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبداً بذلك ، وظناً أنه بر .

---

(١) قوله [إلى كماله] يعنى : أن الهلال لايزال يتناقص إلى نهاية الشهر ، حتى ينمحق فلا يرى منه شىء .

(٢) قوله « والعدد » جمع « عدة » أى عدة الطلاق وعدة المتوفى عنها زوجها .

وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

فأخبر تعالى ، أنه ليس من البر ، لأن الله تعالى ، لم يشرعه لهم .

وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة .

وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي فى كل أمر من الأمور ، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذى قد جعل له موصلا .

فالآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، ينبغي أن ينظر فى حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة ، التى بها يحصل المقصود أو بعضه .

والمتعلم والمعلم ، ينبغى أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده .

وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه ، وثابر عليه ، فلابد أن يحصل له المقصود ، بعون الملك المعبود .

[واتقوا الله] هذا هو البر ، الذى أمر الله به ، وهو لزوم تقواه على الدوام ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإنه سبب الفلاح ، الذى هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

فمن لم يتق الله تعالى ، لم يكن له سبيل إلى الفلاح ، ومن اتقاه ، فاز بالفلاح والنجاح .

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ

هذه الآيات ، تتضمن الأمر بالقتال فى سبيل الله ، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة ، لما قوى المسلمون للقتال ، أمرهم الله به ، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم .

وفى تخصيص القتال [فى سبيل الله] حث على الإخلاص ، ونهى عن الاقتتال فى الفتن بين المسلمين .

[الذين يقاتلونكم] أى . الذين هم مستعدون لقتالكم ، وهم المكلفون الرجال ، غير الشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال .

والنهى عن الاعتداء ، يشمل أنواع الاعتداء كلها ، من قتل من لا يقاتل ، من النساء ، والمجانين والأطفال ، والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى ، وقتل الحيوانات ، وقطع الأشجار ونحوها ، لغير مصلحة تعود للمسلمين .

ومن الاعتداء ، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها ، فإن ذلك لا يجوز .

[واقتلوهم حيث ثقفتموهم] هذا أمر بقتالهم ، أينما وجدوا فى كل وقت ، وفى كل زمان قتال مدافعة ، وقتال مهاجمة .

ثم استثنى من هذا العموم قتالهم [عند المسجد الحرام] وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال ، فإنهم يقاتلون ، جزاء لهم على اعتدائهم .

وهذا مستمر فى كل وقت ، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا ، فإن الله

وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

يتوب عليهم ، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله، والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده .

ولما كان القتال عند المسجد الحرام ، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك ، والصد عن دينه ، أشد من مفسدة القتل ، فليس عليكم — أيها المسلمون — حرج في قتالهم .

ويستدل من هذه الآية — على القاعدة المشهورة — وهي : أنه يرتكب أخف المفسدتين ، لدفع أعلاهما .

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله ، وأنه ليس المقصود به ، سفك دماء الكفار ، وأخذ أموالهم .

ولكن المقصود به أن [يكون الدين لله] تعالى ، فيظهر دين الله تعالى ، على سائر الأديان ، ويدفع كل ما يعارضه ، من الشرك وغيره ، وهو المراد بالفتنة .

فإذ حصل هذا المقصود ، فلا قتل ولا قتال .

[فإن انتهوا] عن قتالكم عند المسجد الحرام [فلا عدوان إلا على الظالمين] أي : فليس عليهم منكم اعتداء ، إلا من ظلم منهم ، فإنه يستحق المعاقبة ، بقدر ظلمه .

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ

يقول تعالى : «الشهر الحرام بالشهر الحرام» ، يحتمل أن يكون المراد به ، ما وقع من صد المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية ، عن الدخول لمكة ، وقاضوهم على دخولها من قابل ، وكان الصد والقضاء فى شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، فيكون هذا بهذا .

فيكون فيه ، تطييب لقلوب الصحابة ، بتمام نسكهم ، وكماله .

ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إن قاتلتموهم فى الشهر الحرام ، فقد قاتلوكم فيه ، وهم المعتدون ، فليس عليكم فى ذلك حرج .

وعلى هذا فيكون قوله : [والحرمات قصاص] من باب عطف العام على الخاص .

أى : كل شىء يحترم من شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو إحرام ، أو ما هو أعم من ذلك ، جميع ما أمر الشرع باحترامه ، فمن تجرأ عليها ، فإنه يقتص منه .

فمن قاتل فى الشهر الحرام ، قوتل .

ومن هتك البلد الحرام ، أخذ منه الحد ، ولم يكن له حرمة .

ومن قتل مكافئاً له قتل به ، ومن جرحه أو قطع عضوا ، منه ، اقتص منه .

ومن أخذ مال غيره المحترم ، أخذ منه بدله .

ولكن هل لصاحب الحق ، أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا ؟

خلاف بين العلماء ، الراجح من ذلك ، أنه ، إن كان سبب الحق ظاهرا

فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

كالضيف ، إذا لم يقره غيره ، والزوجة ، والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه ، فإنه يجوز أخذه من ماله .

وإن كان السبب خفياً ، كمن جحد دين غيره ، أو خانه فى وديعة ، أو سرق منه ونحو ذلك ، فإنه لايجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له ، جمعا بين الأدلة ، ولهذا قال تعالى ، توكيداً وتقوية لما تقدم :

[فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم] .

هذا تفسير لصفة المقاصة ، وأنها هى المماثلة فى مقابلة المعتدى .

ولما كانت النفوس — فى الغالب — لا تقف على حدها إذا رخص لها فى المعاقبة لطلبها التشفى ، أمر تعالى بلزوم تقواه ، التى هى الوقوف عند حدوده ، وعدم تجاوزها ، وأخبر تعالى أنه [مع المتقين] أى : بالعون ، والنصر ، والتأييد ، والتوفيق .

ومن كان الله معه ، حصل له السعادة الأبدية .

ومن لم يلزم التقوى ، تخلى عنه وليه ، وخذله ، فوكله إلى نفسه ، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد .

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده بالنفقة فى سبيله ، وهو إخراج الأموال فى الطرق الموصلة إلى الله .

وهى كل طرق الخير ، من صدقة على مسكين ، أو قريب ، أو إنفاق على من تجب مؤنته .

وأعظم ذلك ، وأول ما دخل فى ذلك الإنفاق فى الجهاد فى سبيل الله .

فإن النفقة فيه ، جهاد بالمال ، وهو فرض كالجهاد بالبدن .

وفيها من المصالح العظيمة ، الإعانة على تقوية المسلمين ، وتوهين الشرك وأهله ، وعلى إقامة دين الله واعزازه .

فالجهاد فى سبيل الله ، لا يقوم إلا على ساق النفقة .

فالنفقة له ، كالروح ، لا يمكن وجوده بدونها .

وفى ترك الإنفاق فى سبيل الله ، إبطال للجهاد ، وتسليط للأعداء ، وشدة تكالبهم .

فيكون قوله تعالى : [ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة] كالتعليل لذلك .

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين : لترك(١) ما أمر به العبد ، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح .

وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح ، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة .

---

(١) فى الأصل (اترك) وهو خطأ .

. . . .

فمن ذلك ، ترك الجهاد فى سبيل الله ، أو النفقة فيه ، الموجب لتسلط الأعداء .

ومن ذلك ، تغرير الإنسان بنفسه ، فى مقاتلة ، أو سفر مخوف ، أو محل مسبعة[1] أو حيات ، أو يصعد شجرا ، أو بنيانا خطرا ، أو يدخل تحت شىء فيه خطر ونحو ذلك .

فهذا ونحوه ، ممن ألقى بيده إلى التهلكة .

ومن ذلك الإقامة على معاصى الله ، واليأس من التوبة .

ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض ، التى فى تركها(٢) هلاك للروح والدين .

ولما كانت النفقة فى سبيل الله ، نوعاً من أنواع الإحسان ، أمر بالإحسان عموما فقال : [وأحسنوا إن الله يحب المحسنين] وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيده بشىء دون شىء .

فيدخل فيه ، الإحسان بالمال كما تقدم .

ويدخل فيه ، الإحسان بالجاه ، بالشفاعات ونحو ذلك .

ويدخل فى ذلك ، الإحسان بالأمر المعروف ، والنهى عن المنكر ، وتعليم العلم النافع .

ويدخل فى ذلك ، قضاء حوائج الناس ، من تفريج كرباتهم ، وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وارشاد ضالهم ، وإعانة

---

(١) مسبعة : أرض يكثر فيها السباع .

(٢) فى الأصل (التى تركها) وهو خطأ .

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن

من يعمل عملا ، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك ، مما هو من الإحسان الذى أمر الله به .

ويدخل فى الإحسان أيضاً ، الإحسان فى عبادة الله تعالى ، وهو كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

فمن اتصف بهذه الصفات ، كان من الذين قال الله فيهم [للذين أحسنوا الحسنى وزيادة] وكان الله معه يسدده ويرشده ، ويعينه على كل أموره .

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ، ذكر أحكام الحج فقال :

[وأتموا الحج والعمرة لله . الآية] .

يستدل بقوله [وأتموا الحج والعمرة] على أمور :

أحدها ، وجوب الحج والعمرة ، وفرضيتهما .

الثانى : وجوب إتمامهما ، بأركانهما ، وواجباتهما ، التي قد دل عليها فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله « خذوا عنى مناسككم » .

الثالث : أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة

الرابع : أن الحج والعمرة ، يجب إتمامهما بالشروع فيهما ، ولو كانا نفلا .

الخامس : الأمر بإتقانهما وإحسانهما ، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما .

كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ

السادس : وفيه الأمر بإخلاصهما [لله] تعالى .

السابع : أنه لايخرج المحرم بهما ، بشيء من الأشياء حتى يكملهما ، إلا بما استثناه الله ، وهو الحصر ، فلهذا قال :

[فإن أحصرتم] أى : منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما ، بمرض ، أو ضلالة ، أو عدو ، ونحو ذلك من أنواع الحصر ، الذى هو المنع.

[فما استيسر من الهدى] أى : فاذبحوا ما استيسر من الهدى ، وهو سبع بدنة ، أو سبع بقرة ، أو شاة يذبحها المحصر ، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لما صدهم المشركون عام الحديبية .

فإن لم يجد الهدى ، فليصم بدله ، عشرة أيام كما فى المتمتع ثم يحل .

ثم قال تعالى [ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله] .

وهذا من محظورات الإحرام ، ازالة الشعر ، بحلق أو غيره ، لأن المعنى واحد من الرأس ، أو من البدن ، لأن المقصود من ذلك ، حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته ، وهو موجود فى بقية الشعر .

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر ، تقليم الأظفار بجامع الترفه .

ويستمر المنع مما ذكر ، حتى يبلغ الهدى محله ، وهو يوم النحر .

تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

والأفضل ، أن يكون الحلق بعد النحر ، كما تدل عليه الآية .

ويستدل بهذه الآية ، على أن المتمتع إذا ساق الهدى ، لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر .

فإذا طاف وسعى للعمرة ، أحرم بالحج ، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى .

وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك ، لما فيه من الذل والخضوع لله ، والانكسار له ، والتواضع الذى هو عين مصلحة العبد ، وليس عليه فى ذلك من ضرر .

فإذا حصل الضرر[١] بأن كان به أذى من مرض ، ينتفع بحلق رأسه له ، أو قروح ، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية ، من صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أو نسك مايجزى فى أضحية ، فهو مخير .

والنسك أفضل ، فالصدقة ، فالصيام .

ومثل هذا ، كل ما كان فى معنى ذلك ، من تقليم الأظفار ، أو تغطية الرأس ، أو لبس المخيط ، أو الطيب ، فإنه يجوز عند الضرورة ، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع ، إزالة مابه يترفه .

---

(١) قوله (فإذا حصل) الخ. فى العبارة شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال (فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض فى رأسه أوقروح أو قمل فله أن يحلق رأسه .

. . . .

ثم قال تعالى [فإذا أمنتم] أى : بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره .

[فمن تمتع بالعمرة إلي الحج] بأن توصل بها إليه ، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها .

[فما استيسر من الهدى] أى : فعليه ما تيسر من الهدى ، وهو مايجزى فى أضحية .

وهذا دم نسك ، مقابلة لحصول النسكين له فى سفرة واحدة ، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة، بعد فراغ العمرة ، وقبل الشروع فى الحج .

ومثلها ، القران لحصول النسكين له .

ويدل مفهوم الآية ، على أن المفرد للحج ، ليس عليه هدى .

ودلت الآية ، على جواز ، بل فضيلة المتعة ، وعلى جواز فعلها فى أشهر الحج .

[فمن لم يجد] أى الهدى أو ثمنه [فصيام ثلاثة أيام فى الحج .

أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة ، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر ، أيام رمى الجمار ، والمبيت بـ « منى » .

ولـكن الأفضل منها ، أن يصوم السابع ، والثامن ، والتاسع .

[وسبعة إذا رجعتم] أى : فرغتم من أعمال الحج ، فيجوز فعلهـا فى مـكة ، وفى الطريق ، وعند وصوله إلى أهله .

. . . .

[ذلك] المذكور من وجوب الهدى على المتمتع .

[لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام] بأن كان عند مسافة قصر فأكثر ، أو بعيداً عند عرفات ، فهذا الذى يجب عليه الهدى ، لحصول النسكين له فى سفر واحد .

وأما من كان أهله من حاضرى المسجد الحرام ، فليس عليه هدى ، لعدم الموجب لذلك .

[واتقوا الله] أى : فى جميع أموركم ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ومن ذلك ، امتثالكم لهذه المأمورات ، واجتناب هذه المحظورات المذكورة فى هذه الآية .

[واعلموا أن الله شديد العقاب] أى : لمن عصاه ، وهذا هو الموجب للتقوى ، فإن من خاف عقاب الله ، انكف عما يوجب العقاب .

كما أن من رجا ثواب الله ، عمل لما يوصله إلى الثواب .

ومن لم يخف العقاب ، ولم يرج الثواب ، اقتحم المحارم ، وتجرأ على ترك الواجبات .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أن [الحج] واقع فى [أشهر معلومات] عند المخاطبين ، مشهورات ، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص . كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس .

وأما الحج ، فقد كان من ملة إبراهيم ، التي لم تزل مستمرة فى ذريته معروفة بينهم .

والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور ، شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة ، فهى التى يقع فيها الإحرام بالحج غالباً .

[فمن فرض فيهن الحج] أى : أحرم به ، لأن الشروع فيه . يصيره فرضا ، ولو كان نفلا .

واستدل بهذه الآية ، الشافعى ومن تابعه ، على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره .

قلت لو قيل: فيها دلالة لقول الجمهور، بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً .

فإن قوله [فمن فرض فيهن الحج]دليل على أن الفرض قد يقع فىالأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها ، وإلا لم يقيده .

وقوله [فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج] أى : يجب أن تعظموا الإحرام بالحج ، وخصوصا ، الواقع فى أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه ، من الرفث وهو : الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ، خصوصا عند النساء ، بحضرتهن .

. . . .

والفسوق وهو : جميع المعاصى ، ومنها محظورات الإحرام .

والجدال ، وهو : المماراة والمنازعة والمخاصمة ، لكونها تثير الشر ، وتوقع العداوة .

والمقصود من الحج ، الذل والانكسار لله ، والتقرب إليه بما أمكن من القربات ، والتنزه عن مقارفة السيئات ، فإنه بذلك ، يكون مبروراً والمبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة .

وهذه الأشياء ، وإن كانت ممنوعة فى كل مكان وزمان ، فإنه يتغلظ المنع عنها فى الحج .

واعلم أنه لايتم التقرب إلى الله بترك المعاصى حتى يفعل الأوامر .

ولهذا قال تعالى [وما تفعلوا من خير يعلمه الله] .

[أتى بـ « من » للتنصيص على[1] العموم فكل خير وقربة وعبادة ، داخل فى ذلك .

أى : فإن الله به عليم ، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير ، خصوصا فى تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة ، فإنه ينبغى تدارك ما أمكن تداركه فيها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وطواف ، وإحسان قولى وفعلى .

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك ، فإن التزود فيه ، الاستغناء عن المخلوقين ، والكف عن أموالهم ، سؤالا واستشرافاً .

---

(١) فى الأصل (لتنصيص العموم) فأصلحناه كما ترى لتستقيم العبارة.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ

وفى الإكثار منه ، نفع وإعانة للمسافرين ، وزيادة قربة لرب العالمين .

وهذا الزاد الذى المراد منه ، إقامة البنية — بلغة ومتاع .

وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه ، فى دنياه ، وأخراه ، فهو زاد التقوى الذى هو زاد إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة ، وأجل نعيم دائماً أبدا .

ومن ترك هذا الزاد ، فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين . فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولى الألباب فقال [واتقونى ياأولى الألباب] .

أى: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم ، الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على الجهل ، وفساد الرأى .

☆ لما أمر تعالى بالتقوى ، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب فى مواسم الحج وغيره ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج ، وكان الكسب حلالا منسوبا إلى فضل الله ، لا منسوبا إلى حذق العبد ، والوقوف مع السبب ، ونسيان المسبب ، فإن هذا هو الحرج بعينه .

وفى قوله [فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام] دلالة على أمور :

أحدها : الوقوف بعرفة ، وأنه كان معروفا أنه ركن من أركان الحج.

وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

فالإفاضة من عرفات، لاتكون إلا بعد الوقوف.

الثانى: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر بائتا بها، وبعد صلاة الفجر، يقف فى المزدلفة داعيا، حتى يسفر جداً، ويدخل فى ذكر الله عنده، إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة، متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع، والخامس: أن عرفات ومزدلفة، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها، وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة فى الحرم، كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة فى الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ « مزدلفة ».

[واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين] أى: اذكروا الله تعالى، كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فهذه من أكبر النعم، التى يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

[ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس] أى: ثم أفيضوا من مزدلفة، من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن.

رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا

والمقصود من هذه الإفاضة ، كان معروفا عندهم، وهو رمى الجمار ، وذبح الهدايا ، والطواف ، والسعى ، والمبيت بـ « منى » ليالى التشريق وتكميل باقى المناسك .

ولما كانت هذه الإفاضة ، يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها ، باستغفاره والإكثار من ذكره .

فالاستغفار للخلل الواقع من العبد ، فى أداء عبادته وتقصيره فيها .

وذكر الله ، شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة .

وهكذا ينبغى للعبد ، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير ، ويشكره على التوفيق ، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ، ومن بها على ربه ، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمقت ، ورد الفعل .

كما أن الأول ، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ، ولكن مقاصدهم تختلف .

فمنهم [من يقول ربنا آتنا فى الدنيا] أى : يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته ، وليس له فى الآخرة من نصيب ، لرغبته عنها ، وقصر همته على الدنيا .

وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر إليه فى مهمات دينه ودنياه .

وكل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم تعالى ، على حسب أعمالهم ، وهماتهم ونياتهم ، جزاء دائرا بين العدل والفضل ، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع ، مسلما أو كافراً ، أو فاسقاً .

ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه ، دليلا على محبته له وقربه منه ، إلا فى مطالب الآخرة ، ومهمات الدين .

والحسنة المطلوبة فى الدنيا ، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنى واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقر به العين ، وراحة ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ونحو ذلك ، من المطالب المحبوبة والمباحة .

وحسنة الآخرة ، هى السلامة من العقوبات ، فى القبر ، والموقف ، والنار ، وحصول رضا الله ، والفوز بالنعيم المقيم ، والقرب من الرب الرحيم .

فصار هذا الدعاء ، أجمع دعاء وأكمله ، وأولاه بالإيثار ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به ، والحث عليه .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

يأمر تعالى بذكره فى الأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق الثلاثة بعد العيد ، لمزيتها وشرفها ، وكون بقية المناسك تفعل بها ، ولكون الناس أضيافا لله فيها ، ولهذا حرم صيامها .

فللذكر فيها مزية ، ليست لغيرها ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق ، أيام أكل وشرب ، وذكر الله » .

ويدخل فى ذكر الله فيها ، ذكره عند رمى الجمار ، وعند الذبح ، والذكر المقيد عقب الفرائض .

بل قال بعض العلماء : إنه يستحب فيها التكبير المطلق ، كالعشر ، وليس ببعيد .

[فمن تعجل فى يومين] أى خرج من « منى » ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثانى .

[فلا إثم عليه ومن تأخر] بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد [فلا إثم عليه] وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده ، فى إباحة كلا الأمرين .

ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين ، فالمتأخر أفضل ، لأنه أكثر عبادة .

ولما كان نفى الحرج ، قد يفهم منه نفى الحرج فى ذلك المذكور وفى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ

غيره ، والحال[١] أن الحرج منفى عن المتقدم والمتأخر فقط ـ قيده بقوله .

[لمن اتقى] أى : اتقى الله فى جميع أموره ، وأحوال الحج .

فمن اتقى الله فى كل شىء ، حصل له نفى الحرج فى كل شىء .

ومن اتقاه فى شىء دون شىء ، كان الجزاء من جنس العمل .

[واتقوا الله] بامتثال أوامره واجتناب معاصيه .

واعلموا أنكم إليه تحشرون] فمجازيكم بأعمالكم .

فمن اتقاه ، وجد جزاء التقوى عنده ، ومن لم يتقه ، عاقبه أشد العقوبة .

فالعلم بالجزاء ، من أعظم الدواعى لتقوى الله ، فلهذا حث تعالى ، على العلم بذلك .

* لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره ، وخصوصا فى الأوقات الفاضلة ، الذى هو خير مصلحة وبر ، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله ، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال :

[ومن الناس من يعجبك قوله ، فى الحياة الدنيا] أى : إذا تكلم ، راق كلامه للسامع[٢] .

وإذا نطق ، ظننته يتكلم بكلام نافع ، ويؤكد مايقول بأنه [يشهد

---

(١) فى الأصل (والحاصل) وهو خطأ .

(٢) فى الأصل (السامع) وما أثبتناه أوضح .

سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

الله على ما فى قلبه] بأن يخبر أن الله يعلم ، أن ما فى قلبه موافق لما نطق به ، وهو كاذب فى ذلك ، لأنه يخالف قوله فعله .

فلو كان صادقا ، لتوافق القول والفعل ، كحال المؤمن غير المنافق ، ولهذا قال :

[وهو ألد الخصام] أى : إذا خاصمته ، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب ، وما يترتب على ذلك ، ما هو من مقابح الصفات ، ليس كأخلاق المؤمنين ، الذين جعلوا السهولة مركبهم ، والانقياد للحق وظيفتهم ، والسماحة سجيتهم .

[وإذا تولى] هذا الذى يعجبك قوله إذا حضر عندك [سعى فى الأرض ليفسد فيها] أى : يجتهد على أعمال المعاصى ، التى هى إفساد فى الأرض [ويهلك] بسبب ذلك [الحرث والنسل] فالزروع والثمار والمواشى ، تتلف وتنقص ، وتقل بركتها ، بسبب العمل فى المعاصى .

[والله لا يحب الفساد] فإذا كان لا يحب الفساد ، فهو يبغض العبد المفسد فى الأرض ، غاية البغض ، وإن قال بلسانه قولا حسنا .

ففى هذه الآية دليل على أن الأقوال التى تصدر من الأشخاص ، ليست دليلا على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

لها، المزكى لها[1] وأنه ينبغى اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس، ببر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم .

ثم ذكر أن هذا المفسد فى الأرض بمعاصى الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف .

[وأخذته العزة بالإثم] فيجمع بين العمل بالمعاصى والتكبر على الناصحين.

[فحسبه جهنم] التى هى دار العاصين والمتكبرين .

[ولبئس المهاد] أى : المستقر والمسكن ، عذاب دائم ، وهم لاينقطع ، ويأس مستمر ، لايخفف عنهم العذاب ، ولايرجون الثواب ، جزاء لجنايتهم ومقابلة لأعمالهم .

فعياذاً بالله ، من أحوالهم .

☆ معانى المفردات . قال فى الصحاح : شريت الشىء أشريه شراء : إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً ، وهو من الأضداد .

قال الله تعالى [ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله] أى : يبيعها .

[وقال تعالى : [وشروه بثمن بخس دراهم معدودة] أى : باعوه اهـ ومثله فى القاموس .

هذه الآية نزلت فى صهيب بن سنان الرومى حين أراده المشركون

---

(١) قوله (المصدق لها المزكى) تكرار (لا) بعد (المصدق) و (المزكى) لاداعى له . فالأنسب أن يقال (المصدق والمزكى لها) .

. . . .

على ترك الإسلام ، كما رواه ابن عباس وأنس ، وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة غيرهم .

وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ، منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر : فعل .

فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة ، إلى طرف الحرة ، فقالوا له : ربح البيع ربح البيع

فقال : وأنتم ، فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ؟

فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب ».

وحدث أبو عثمان النهدى عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لى قريش :

ياصهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ؟ والله لا يكون ذلك أبداً .

فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى ؟ قالوا : نعم .

فدفعت إليهم مالى ، فخلوا عنى ، فخرجت حتى قدمت المدينة .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ربح صهيب ربح صهيب » مرتين .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب قال :

. . . .

أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فاتبعه نفر من قريش.
فنزل عن راحلته ، ونثل ما فى كنانته ، ثم قال :
يامعشر قريش ، قد علمتم أنى من أرماكم رجلا .
وأنتم — والله — لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى ، ما بقى فى يدى منه شىء ثم افعلوا ما شئتم .
وإن شئتم دللتكم على مالى وقنيتى بمكة ، وخليتم سبيلى ، قالوا له : نعم .
فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ربح البيع » قال: ونزلت
ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد(١).
وأما الأكثرون ، فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن،ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم].
ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين ، أنكر عليه بعض الناس .
فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما ، وتلوا هذه الآية .
ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد اهـ.
من تفسير ابن كثير بتصرف يسير .

---

(١) قال أبو السعود فى تفسيره : فـ «يشرى» حينئذ بمعنى « يشترى » لجريان الحال على صورة الشرى اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا [فى السلم كافة] أى : فى جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئا ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه ، تركه .

بل الواجب ، أن يكون الهوى ، تبعاً للدين ، وأن يفعل كل مايقدر عليه ، من أفعال الخير ، وما يعجز عنه ، يلتزمه وينويه ، فيدركه بنيته .

ولما كان الدخول فى السلم كافة ، لايمكن ولايتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال :

[ولا تتبعوا خطوات الشيطان] أى : فى العمل بمعاصى الله [إنه لكم عدو مبين] ظاهر العداوة .

والعدو المبين ، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم .

ولما كان العبد لابد أن يقع منه خلل وزلل ، قال تعالى [فإن زللتم] أى أخطأتم ووقعتم فى الذنوب . [من بعد ما جاءتكم البينات] أى : على علم ويقين [فاعلموا أن الله عزيز حكيم] .

وفيه من الوعيد الشديد ، والتخويف ، مايوجب ترك الزلل ، فإن العزيز القاهر الحكيم ، إذا عصاه العاصى ، قهره بقوته ، وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته ، تعذيب العصاة والجناة .

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴿٢١٠﴾﴾

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ، ما تنخلع له القلوب.

يقول تعالى : هل ينتظر الساعون فى الفساد فى الأرض ، المتبعون لخطوات الشيطان ، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال ، الذى قد حشى من الأهوال والشدائد والفظائع ، ما يقلقل قلوب الظالمين ، ويحيق به الجزاء السيىء على المفسدين .

وذلك أن الله تعالى يطوى السموات والأرض ، وتنتثر الكواكب ، وتكور الشمس والقمر ، وتنزل الملائكة الكرام ، فتحيط بالخلائق ، وينزل البارى تبارك وتعالى [فى ظلل من الغمام] ليفصل بين عباده بالقضاء العدل .

فتوضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة ، ويتميز أهل الخير من أهل الشر .

وكل يجازى بعمله .

فهنالك يعض الظالم على يديه ، إذا علم[1] حقيقة ما هو عليه .

وهذه الآية وما أشبهها ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، المثبتين

---

(١) قوله (إذا علم إلخ) تعبير فيه نظر ، لأن العلم فى عرصات القيامة متحقق لجميع المخلوقين ، فالأنسب أن يقال (حينما يرى ما هو فيه من سوء الحال ، وتنكشف حالته التى فارق عليها الدنيا ، فيشاهدها متجسدة وماثلة أمام ناظريه) .

. . . .

للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجىء ، ونحو ذلك من الصفات التى أخبر بها تعالى ، عن نفسه ، وأخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

فيثبتونها لمعانيها على وجه يليق بجلال الله وعظمته ، من غير تشبيه ولا تحريف . ولا تعطيل .

خلافا للمعطلة ، على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ونحوهم ، ممن ينفى هذه الصفات ، ويتأول — لأجلها — الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، بل حقيقتها ، القدح فى بيان الله وبيان رسوله ، والزعم بأن كلامهم ، هو الذى تحصل به الهداية فى هذا الباب .

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلى ، بل ولا دليل عقلى .

أما النقلى ، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة فى الكتاب والسنة ، ظاهرها ، بل صريحها ، دال على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل ، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص .

وهذا كما ترى ، لا يرتضيه من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقل ، فليس فى العقل ما يدل على نفى هذه الصفات .

بل العقل دل على أن الفاعل ، أكمل من الذى لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى ، المتعلق بنفسه ، والمتعلق بخلقه ، هو كمال .

فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه .

قيل لهم : الكلام على الصفات ، يتبع الكلام على الذات .

فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات ، فلله صفات لا تشبهها الصفات .

فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه ، تبع لذواتهم ، فليس فى إثباتها ، ما يقتضى التشبيه بوجه .

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

ويقال أيضاً ، لمن أثبت بعض الصفات ، ونفى بعضاً ، أو أثبت الأسماء دون الصفات :

إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه ، وأثبته رسوله .

وإما أن تنفى الجميع ، وتكون منكراً لرب العالمين .

وأما إثباتك بعض ذلك ، ونفيك لبعضه ، فهذا تناقض .

ففرق بين ما أثبته ، وبين ما نفيته ، ولن تجد إلى الفرق سبيلا .

فإن قلت : ما أثبته لا يقتضى تشبيها .

قال لك أهل السنة والإثبات : لما نفيته لا يقتضى تشبيها .

فإن قلت : لا أعقل من الذى نفيته إلا التشبيه .

قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذى أثبته إلا التشبيه .

فما أجبت به النفاة ، أجابك به أهل السنة ، لما نفيته .

والحاصل أن من نفى شيئاً ، مما دل الكتاب والسنة على إثباته ، فهو متناقض ، لا يثبت له دليل شرعى ولا عقلى ، بل قد خالف المعقول والمنقول .

* يقول تعالى : [سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة] تدل على الحق ، وعلى صدق الرسل ، فتيقنوها وعرفوها ، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة ، التى تقتضى القيام بها .

بل كفروا بها ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه .

وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلا لها ، لأن من أنعم الله عليه نعمة

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

دينية أو دنيوية ، فلم يشكرها ، ولم يقم بواجبها ، اضمحلت عنه وذهبت ، وتبدلت بالكفر والمعاصى ، فصار الكفر بدل النعمة .

وأما من شكر الله تعالى ، وقام بحقها ، فإنها تثبت وتستمر ، ويزيده الله منها .

* يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ، ولم ينقادوا لشرعه ، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا .

فزينت فى أعينهم وقلوبهم ، فرضوا بها ، واطمأنوا بها[1] فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها ، فأقبلوا عليها ، وأكبوا على تحصيلها ، وعظموها ، وعظموا من شاركهم فى صنيعهم ، واحتقروا المؤمنين ، واستهزأوا بهم وقالوا :

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر ، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران .

بل المؤمن فى الدنيا ، وإن ناله مكروه ، فإنه يصبر ويحتسب ، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ، ما لا يكون لغيره .

وإنما الشأن كل الشأن ، والتفضيل الحقيقى ، فى الدار الباقية ، فلهذا قال تعالى :[والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة] فيكون المتقون فى أعلى الدرجات ،

---

(١) قوله « اطمأنوا بها » الأوضح أن يقال « اطمأنوا إليها » على تضمين « اطمأن » كلمة « ارتاح » أو « استكان » وهذا مايقتضيه سياق الكلام وسباقه.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

متمتعين بأنواع النعيم والسرور ، والبهجة والحبور .

والكفار تحتهم فى أسفل الدركات ، معذبين بأنواع العذاب والإهانة ، والشقاء السرمدى ، الذى لا منتهى له .

ففى هذة الآية تسلية للمؤمنين ، ونعى على الكافرين .

ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية ، لا تحصل إلا بتقدير الله ، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى :[والله يرزق من يشاء بغير حساب] فالرزق الدنيوى ، يحصل للمؤمن والكافر .

وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ، ومحبة الله ، وخشيته ورجائه ونحو ذلك ، فلا يعطيها إلا من يحبه .

☆ أى : كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ، ليس لهم نور ولا إيمان .

فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم [مبشرين] من أطاع الله بثمرات الطاعات ، من الرزق ، والقوة فى البدن والقلب ، والحياة الطيبة ، وأعلى ذلك ، الفوز برضوان الله والجنة .

[ومنذرين] من عصى الله ، بثمرات المعصية ، من حرمان الرزق ، والضعف ، والإهانة ، والحياة الضيقة ، وأشد ذلك ، سخط الله والنار .

[وأنزل معهم الكتاب بالحق] وهو الإخبارات الصادقة ، والأوامر العادلة .

فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية ، فهو حق، يفصل بين المختلفين فى الأصول والفروع .

وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع ، أن يرد الاختلاف والتنازع ، إلى الله وإلى رسوله .

ولولا أن فى كتابه ، وسنة رسوله ، فصل النزاع ، لما أمر بالرد إليهما .

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب ، وكان هذا يقتضى اتفاقهم عليها واجتماعهم ـ أخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض ، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف .

فاختلفوا فى الكتاب الذى ينبغى أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه ، وذلك من بعد ماعلموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالا بعيدا .

[وهدى الله الذين آمنوا] من هذه الأمة [لما اختلفوا فيه من الحق] فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب ، وأخطأوا فيه الحق والصواب ، هدى الله للحق فيه هذه الأمة [بإذنه] تعالى وتيسيره لهم ورحمته .

[والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم] .

فعم الخلق تعالى ، بالدعوة إلى الصراط المستقيم ، عدلا منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا « ماجاءنا من بشير ولا نذير » .

وهدى — بفضله ورحمته ، وإعانته ولطفه — من شاء من عباده .

فهذا فضله وإحسانه ، وذاك عدله وحكمته ، تبارك وتعالى .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

يخبر تبارك وتعالى ، أنه لابد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم ، فهى سنته الجارية ، التى لا تتغير ولا تتبدل ، أن من قام بدينه وشرعه ، لابد أن يبتليه .

فإن صبر على أمر الله ، ولم يبال بالمكاره الواقعة فى سبيله،فهو الصادق الذى قد نال من السعادة كمالها ، ومن السيادة آلتها .

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله ، بأن صدته المكاره عما هو بصدده وثنته المحن عن مقصده ، فهو الكاذب فى دعوى الإيمان .

فإنه ليس الإيمان بالتحلى والتمنى،ومجرد الدعاوى ، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه .

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم [مستهم البأساء والضراء] أى : الفقر والأمراض فى أبدانهم .

[وزلزلوا] بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل ، والنفى ، وأخذ الأموال ، وقتل الأحبة ، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال ، وآل بهم الزلزال ، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به .

ولكن لشدة الأمر وضيقه [يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله] .

فلما كان الفرج عند الشدة ، وكلما ضاق الأمر اتسع . قال تعالى :

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

[ألا إن نصر الله قريب] فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن .

فكلما اشتدت عليه وصعبت — إذا صابر وثابر على ما هو عليه — انقلبت المحنة فى حقه منحة ، والمشقات راحات ، وأعقبه ذلك ، الانتصار على الأعداء وشفاء ما فى قلبه من الداء .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين] .

وقوله تعالى [الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] فعند الامتحان ، يكرم المرء أو يهان .

* أى : يسألونك عن النفقة ، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه .

فأجابهم عنهما فقال : [قل ما أنفقتم من خير] أى : مال قليل أو كثير ، فأولى الناس به ، وأحقهم بالتقديم ، أعظمهم حقاً عليك ، وهم الوالدان الواجب برهما ، والمحرم عقوقهما .

ومن أعظم برهما ، النفقة عليهما ، ومن أعظم العقوق ، ترك الإنفاق عليهما .

ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة ، على الولد الموسر .

ومن بعد الوالدين ، الأقربون ، على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب فالأقرب ، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليه صدقة وصلة .

[واليتامى] وهم الصغار الذين لا كاسب لهم ، فهم فى مظنة الحاجة ،

لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم ، وفقد المكاسب ، فوصى الله بهم العباد ، رحمة منه بهم ولطفاً .

[والمساكين] وهم أهل الحاجات ، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة ، فينفق عليهم ، لدفع حاجاتهم وإغنائهم .

[وابن السبيل] أى : الغريب المنقطع به فى غير بلده ، فيعان على سفره بالنفقة ، التى توصله إلى مقصده .

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف ، لشدة الحاجة ، عمم تعالى فقال :

[وما تفعلوا من خير] من صدقة على هؤلاء وغيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات ، لأنها تدخل فى اسم الخير .

[فإن الله به عليم] فيجازيكم عليه ، ويحفظه لكم ، كل على حسب نيته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلتها ، وشدة الحاجة إليها ، وعظم وقعها ونفعها .

☆ هذه الآية ، فيها فرض القتال فى سبيل الله ، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكثر المسلمون ، وقووا أمرهم الله تعالى بالقتال .

وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف .

ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مربٍ ، على ما فيه من الكراهة .

أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

و[وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم] وذلك مثل القعود عن الجهاد لطالب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقب الخذلان ، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات ، عامة مطردة ، فى أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس — لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة — فهى شر ، بلا شك .

وأما أحوال الدنيا ، فليس الأمر مطرداً ، ولكن الغالب على العبد المؤمن ، أنه إذا أحب أمراً من الأمور ، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له ، فالأوفق له فى ذلك ، أن يشكر الله ، ويعتقد الخير فى الواقع ، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأقدر على مصلحة عبده منه ، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى [والله يعلم وأنتم لا تعلمون] .

فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سرتكم أو ساءتكم .

ولما كان الأمر بالقتال ، لو لم يتقيد ، لشمل الأشهر الحرم وغيرها ، استثنى تعالى ، القتال فى الأشهر الحرم فقال :[يسألونك عن الشهر الحرام . الآية] .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ

الجمهور على أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ، منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا .

وقال بعض المفسرين : إنه لم ينسخ ، لأن المطلق محمول على المقيد .

وهذه الآية مقيدة ، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً .

ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم : بل أكبر مزاياها ، تحريم القتال فيها ، وهذا إنما هو فى قتال الابتداء .

وأما قتال الدفع . فإنه يجوز فى الأشهر الحرم ، كما يجوز فى البلد الحرام .

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل ، لسرية عبدالله بن جحش ، وقتلهم عمرو بن الحضرمى ، وأخذهم أموالهم ، وكان ذلك — على ما قيل فى شهر رجب — عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم ، وكانوا فى تعييرهم ظالمين ، إذ فيهم من القبائح ، ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين ، قال تعالى فى بيان ما فيهم .

[وصد عن سبيل الله] أى : صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله ، وفتنتهم من آمن به ، وسعيهم فى ردهم عن دينهم ، وكفرهم الحاصل فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، الذى هو بمجرده ، كاف فى الشر .

فكيف ، وقد كان فى شهر حرام وبلد حرام ؟ !! .

[وإخراج أهله] أى : أهل المسجد الحرام ، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأنهم أحق به من المشركين ، وهم عماره على الحقيقة ، فأخرجوهم

يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

[منه] ولم يمكنوهم من الوصول إليه ، مع أن هذا البيت ، سواء العاكف فيه والباد .

فهذه الأمور كل واحد منها [أكبر من القتال] فى الشهر الحرام ، فكيف وقد اجتمعت فيهم ؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة ، فى تعييرهم المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين .

وليس غرضهم فى أموالهم وقتلهم ، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم ، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير .

فهم باذلون قدرتهم فى ذلك ، ساعون بما أمكنهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

وهذا الوصف ، عام لكل الكفار ، لا يزالون يقاتلون غيرهم ، حتى يردوهم عن دينهم .

وخصوصاً ، أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ألفوا الجمعيات ، ونشروا الدعاة ، وبثوا الأطباء ، وبنوا المدارس ، لجذب الأمم إلى دينهم ، وإدخالهم عليهم ، كل ما يمكنهم من الشبه ، التى تشككهم فى دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى ، الذى من على المؤمنين بالإسلام ، واختار

. . . .

لهم دينه القيم ، وأكمل لهم دينه — أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام ، وأن يخذل كل من أراد أن يطفىء نوره ، ويجعل كيدهم فى نحورهم ، وينصر دينه ، ويعلى كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار ، كما صدقت على من قبلهم .

[إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون] .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام ، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً .

[فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة] لعدم وجود شرطها ، وهو الإسلام .

[وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] .

ودلت الآية بمفهومها ، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، أنه يرجع إليه عمله .

وكذلك من تاب من المعاصى ، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

هذه الأعمال الثلاثة، هى عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران.

فأما الإيمان، فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شىء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟

وهو الذى إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه، لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل.

وأما الهجرة، فهى مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى.

فيترك المهاجر وطنه، وأمواله، وأهله، وخلانه، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد، فهو بذل الجهد فى مقارعة الأعداء، والسعى التام، فى نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان.

وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء.

وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين. على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة — على لأوائها ومشقتها — كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

. . . .

فحقيق بهؤلاء ، أن يكونوا هم الراجين رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة .

وفى هذا دليل على أن الرجاء ، لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة.

وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز وتمن وغرور .

وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر ، وسقى ، ونحو ذلك .

وفى قوله [أولئك يرجون رحمة الله] إشارة إلى أن العبد — ولو أتى من الأعمال بما أتى به — لا ينبغى له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه .

ولهذا قال [والله غفور] أى : لمن تاب توبة نصوحا [رحيم] وسعت رحمته كل شىء ، وعم جوده وإحسانه ، كل حى .

وفى هذا دليل [على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة ، حصل له مغفرة الله ، إذ [الحسنات يذهبن السيئات] وحصلت له رحمة الله .

وإذا حصلت له المغفرة ، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة . التي هى آثار الذنوب ، التي قد غفرت واضمحلت آثارها .

وإذا حصلت له الرحمة ، حصل على كل خير فى الدنيا والآخرة .

بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم ، فلولا توفيقه إياهم، لم يريدوها ، ولولا إقدارهم عليها ، لم يقدروا عليها ، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم .

فله الفضل ، أولا وآخراً ، وهو الذى من بالسبب والمسبب .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

ثم قال تعالى [يسألونك عن الخمر الآية] أي يسألك — يا أيها الرسول — المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر ، وقد كانا مستعملين فى الجاهلية وأول الإسلام ، فكأنه وقع فيهما إشكال فلهذا سألوا عن حكمهما .

فأمر الله تعالى نبيه ، أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما ، وتحتيم تركهما .

فأخبر أن إثمهما ومضارهما ، وما يصدر عنهما ، من ذهاب العقل والمال ، والصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، والعداوة ، والبغضاء — أكبر مما يظنونه من نفعهما ، من كسب المال بالتجارة بالخمر ، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس ، عند تعاطيهما .

وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما ، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته ، ويجتنب ما ترجحت مضرته .

ولكن لما كانوا قد ألفوهما ، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة ، قدم هذه الآية ، مقدمة للتحريم ، الذى ذكره فى قوله .

[يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان] .

إلى قوله [فهل أنتم منتهون] وهذا من لطفه ورحمته وحكمته .

ولهذا لما نزلت ، قال عمر رضى الله عنه : انتهينا انتهينا .

فأما الخمر ، فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه ، من أى نوع كان .

وأما الميسر ، فهو كل المغالبات التى يكون فيها عوض من الطرفين ، من النرد ، والشطرنج ، وكل مغالبة قولية أو فعلية ، تعوض بعوض ، سوى مسابقة الخيل ، والإبل ، والسهام ، فإنها مباحة ، لكونها معينة على الجهاد ، فرخص فيها الشارع.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم .

فيسر الله لهم الأمر ، وأمرهم أن ينفقوا العفو ، وهوالمتيسر من أموالهم، الذى لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم .

وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه ، من غنى وفقير ومتوسط ، كل له قدرة على إنفاق ما عنا من ماله ، ولو شق تمرة .

ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم ، ولا يكلفهم ما يشق عليهم .

ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا ، أو تكليفا لنا بما يشق .

بل أمرنا بما فيه سعادتنا ، وما يسهل علينا ، وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحق على ذلك ، أتم الحمد .

ولما بين تعالى هذا البيان الشافى ، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال:

[كذلك يبين الله لكم الآيات] أى : الدالات على الحق ، المحصلات للعلم النافع والفرقان .

[لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة] أى : لكى تستعملوا أفكاركم فى أسرار شرعه ، وتعرفوا أن أوامره ، فيها مصالح الدنيا والآخرة .

وأيضاً لكى تتفكروا فى الدنيا وسرعة انقضائها ، وفى الآخرة وبقائها ، وأنها دار الجزاء فتعمروها .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

لما نزل قوله تعالى [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً] شق ذلك على المسلمين ، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى ، خوفا على أنفسهم من تناولها ، ولو فى هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها ، وسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

فأخبرهم تعالى أن المقصود ، إصلاح أموال اليتامى ، بحفظها وصيانتها ، والاتجار فيها وأن خالطتهم إياهم فى طعام وغيره ، جائز على وجه لا يضر باليتامى ، لأنهم إخوانكم ، ومن شأن الأخ ، مخالطة أخيه ، والمرجع فى ذلك إلى النية والعمل .

فمن علم من نيته ، أنه مصلح لليتيم ، وليس له طمع فى ماله ، فلو دخل عليه شيء — من غير قصد — لم يكن عليه بأس .

ومن علم الله من نيته ، أن قصده بالمخالطة ، التوصل إلى أكلها ، فذلك الذى حرج وأثم ، و« الوسائل لها أحكام المقاصد » .

وفى هذه الآية ، دليل على جواز أنواع المخالطات ، فى المآكل والمشارب ، والعقود وغيرها ، وهذه الرخصة ، لطف من الله تعالى ، وإحسان ، وتوسعة على المؤمنين .

وإلا [لو شاء الله لأعنتكم] أى : شق عليكم بعدم الرخصة بذلك ، فحرجتم . وشق عليكم وأثمتم .

[إن الله عزيز] أى : له القوة الكاملة ، والقهر لكل شىء .

ولكنه — مع ذلك (حكيم) لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة ، فعزته لا تنافى حكمته .

فلا يقال : إنه ما شاء فعل ، وافق الحكمة أو خالفها :

بل يقال ، إن أفعاله وكذلك أحكامه ، تابعة لحكمته ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، بل لا بد له من حكمة ، عرفناها ، أم لم نعرفها .

وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة .

فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة ، أو راجحة ، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة ، لتمام حكمته ورحمته .

✲ أى [ولا تنكحوا] النساء [المشركات] ما دمن على شركهن .

[حتى يؤمن] لأن المؤمنة — ولو بلغت من الدمامة ما بلغت — خير من المشركة ، ولو بلغت من الحسن ما بلغت ، وهذه عامة فى جميع النساء المشركات .

وخصصتها آية المائدة ، فى إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى : [والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب] .

[ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا] وهذا عام لا تخصيص فيه .

ثم ذكر تعالى ، الحكمة فى تحريم نكاح المسلم أو المسلمة ، لمن خالفهما فى الدين فقال :

[أولئك يدعون إلى النار] أى : فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فمخالطتهم على خطر منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية ، إنما هو الشقاء الأبدى .

خَيْرٌ مِن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

ويستفاد من تعليل الآية ، النهى عن مخالطة كل مشرك ومبتدع ، لأنه إذا لم يجز التزوج — مع أن فيه مصالح كثيرة — فالخلطة المجردة من باب أولى ، وخصوصاً ، الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم ، كالخدمة ونحوها .

وفى قوله [ولا تنكحوا المشركين] دليل على اعتبار الولى فى النكاح .

[والله يدعو إلى الجنة والمغفرة] أى : يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة ، التي من آثارها ، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة ، والتوبة النصوح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

[ويبين آياته] أى : أحكامه وحكمها [للناس لعلهم يتذكرون] فيوجب لهم ذلك ، التذكر لما نسوه ، وعلم ما جهلوه ، والامتثال لما ضيعوه .

ثم قال تعالى [ويسألونك عن المحيض الآيات] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ

يخبر تعالى ، عن سؤالهم عن المحيض ، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض ، كما كانت قبل ذلك ، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود ؟ .

فأخبر تعالى أن الحيض أذى ، وإذا كان أذى ، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذي وحده ، ولهذا قال : [فاعتزلوا النساء فى المحيض].

أي : مكان الحيض ، وهو الوطء فى الفرج خاصة ، فهذا هو المحرم إجماعا .

وتخصيص الاعتزال فى المحيض ، يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها ، فى غير الوطء فى الفرج ، جائز .

لكن قوله [ولا تقربوهن حتى يطهرن] يدل على ترك المباشرة فيما قرب من الفرج ، وذلك فيما بين السرة والركبة ، فينبغى تركه كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأته وهى حائض ، أمرها أن تتزر ، فيباشرها .

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض [حتى يطهرن] أي : ينقطع دمهن ، فإذا انقطع الدم ، زال المنع الموجود وقت جريانه ، الذى كان لحله شرطان ، انقطاع الدم ، والاغتسال منه .

فلما انقطع الدم ، زال الشرط الأول وبقى الثانى ، فلهذا قال :

[فإذا تطهرن] أي : اغتسلن [فأتوهن من حيث أمركم الله] أى : فى القبل لا فى الدبر ، لأنه محل الحرث .

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ

وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض ، وأن انقطاع الدم ، شرط لصحته .

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده ، وصيانة عن الأذي قال تعالى:

[إن الله يحب التوابين] أى : من ذنوبهم على الدوام [ويحب المتطهرين] أى : المتنزهين عن الآثام

وهذا يشمل التطهر الحسى من الأنجاس والأحداث .

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً ، لأن الله تعالى يحب المتصف بها ، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً ، شرطاً لصحة الصلاة والطواف ، وجواز مس المصحف .

ويشمل التطهر المعنوى عن الأخلاق الرذيلة ، والصفات القبيحة ، والأفعال الخسيسة .

* [نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم] مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا فى القبل ، لكونه موضع الحرث ، وهو الموضع الذى يكون منه الولد .

وفيه دليل على تحريم الوطء فى الدبر ، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا فى الموضع الذي منه الحرث .

وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تحريم ذلك، ولعن فاعله .

شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

[وقدموا لأنفسكم] أى : من التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ، ويجامعها على وجه القربة والاحتساب ، وعلى رجاء تحصيل الذرية ، الذين ينفع الله بهم .

[واتقوا الله] أى : فى جميع أحوالكم ، كونوا ملازمين لتقوى الله ، مستعينين على ذلك بعلمكم [واعلموا أنكم ملاقوه] ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها .

[وبشر المؤمنين] لم يذكر المبشر به ، ليدل على العموم ، وأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

وكل خير ، واندفاع كل ضير ، رتب على الإيمان — فهو داخل فى هذه البشارة .

وفيها محبة الله المؤمنين ، ومحبة ما يسرهم ، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوى والأخروى .

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

المقصود من اليمين والقسم ، تعظيم المقسم به ، وتأكيد المقسم عليه .

وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان ، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء .

ولكن الله تعالى استثنى من ذلك ، إذا كان البر باليمين ، يتضمن ترك ما هو أحب إليه .

فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة ، أي : مانعة وحائلة عن أن يبروا أي : يفعلوا خيراً ، ويتقوا شراً ، ويصلحوا بين الناس .

فمن حلف على ترك واجب ، وجب حنثه ، وحرم إقامته على يمينه .

ومن حلف على ترك مستحب ، استحب له الحنث .

ومن حلف على فعل محرم ، وجب الحنث ، أو على فعل مكروه ، استحب الحنث .

وأما المباح ، فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث .

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، أنه « إذا تزاحمت المصالح ، قدم أهمها » .

فهنا تتميم اليمين ، مصلحة ، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء ، مصلحة أكبر من ذلك ، فقدمت لذلك .

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال :

[والله سميع] أي . لجميع الأصوات [عليم] بالمقاصد والنيات ، ومنه ، سماعه لأقوال الحالفين ، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر .

وفي ضمن ذلك ، التحذير من مجازاته ، وأن أعمالكم ونياتكم ، قد استقر علمها عنده .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن

ثم قال تعالى [لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حليم] .

* أى : لا يؤاخذكم بما يجرى على ألسنتكم من الأيمان اللاغية ، التى يتكلم بها العبد ، من غير قصد منه ولا كسب قلب ، ولكنها جرت على لسانه كقول الرجل فى عرض كلامه : « لا والله » و « بلى والله » ، وكحلفه على أمر ماض ، يظن صدق نفسه . وإنما المؤاخذة ، على ما قصده القلب .

وفى هذا ، دليل على اعتبار المقاصد فى الأقوال ، كما هى معتبرة فى الأفعال .

والله « غفور » لمن تاب إليه ، « حليم » بمن عصاه ، حيث لم يعاجله بالعقوبة ، بل حلم عنه وستر ، وصفح مع قدرته عليه ، وكونه بين يديه .

* وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة ، فى أمر خاص وهو حلف الرجل ، على ترك وطء زوجته مطلقاً . أو مقيداً . بأقل من أربعة أشهر أو أكثر .

فمن آلى من زوجته خاصة ـــ فإن كان لدون أربعة أشهر ، فهذا مثل سائر الأيمان ، إن حنث كفر ، وإن أتم يمينه ، فلا شىء عليه ، وليس لزوجته عليه سبيل ، لأنه ملكه أربعة أشهر .

وإن كان أبداً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر ، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه ، إذا طلبت زوجته ذلك ، لأنه حق لها .

فَـآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

فإذا تمت ، أمر بالفيئة ، وهو الوطء .

فإن وطيء ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين .

وإن امتنع ، أجبر على الطلاق ، فإن امتنع ، طلق عليه الحاكم .

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته ، أحب إلى الله تعالى ، ولهذا قال :

[فإن فاءوا] أى : رجعوا إلى ما حلفوا على تركه ، وهو الوطء .

[فإن الله غفور] يغفر لهم ماحصل منهم من الحلف ، بسبب رجوعهم .

[رحيم] حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ، ولم يجعلها لازمة لهم ، غير قابلة للانفكاك ، ورحيم بهم أيضاً ، حيث فاءوا إلى زوجاتهم ،وحنوا عليهن ورحموهن .

[وإن عزموا الطلاق] أى : امتنعوا من الفيئة ، فكان ذلك دليلا على رغبتهم عنهن ، وعدم إرادتهم لأزواجهم ، وهذا لا يكون إلا عزما على الطلاق .

فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة ، وإلا أجبره الحاكم عليه ، أو قام به .

[فإن الله سميع عليم] فيه وعيد وتهديد ، لمن يحلف هذا الحلف ، ويقصد بذلك ، المضارة والمشاقة .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الإيلاء ، خاص بالزوجة ، لقوله « من نسائهم ، وعلى وجوب الوطء فى كل أربعة أشهر مرة ، لأنه بعد الأربعة ، يجبر ، إما على الوطء ، أو على الطلاق ، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا .

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ

أي : النساء اللاتى طلقهن أزواجهن [يتربصن بأنفسهن] أى : ينتظرن ويعتددن مدة [ثلاثة قروء] أي : حيض ، أو أطهار على اختلاف العلماء فى المراد بذلك ، مع أن الصحيح أن القرء ، الحيض ، ولهذه العدة ، عدة حكم .

منها : العلم ببراءة الرحم ، إذا تكرر عليها ثلاثة الأقراء ، علم أنه ليس فى رحمها حمل ، فلا يفضى إلى اختلاط الأنساب .

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن [ما خلق الله فى أرحامهن] وحرم عليهن ، كتمان ذلك ، من حمل أو حيض ، لأن كتمان ذلك ، يفضى إلى مفاسد كثيرة .

فكتمان الحمل ، موجب أن تلحقه بغير من هو له ، رغبة فيه ، أو استعجالا لانقضاء العدة .

فإذا ألحقته بغير أبيه ، حصل من قطع الرحم والإرث ، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه ، وربما تزوج ذوات محارمه .

وحصل فى مقابلة ذلك ، إلحاقه بغير أبيه ، وثبوت توابع ذلك ، من الإرث منه وله ، ومن جعل أقارب الملحق به ، أقارب له .

وفى ذلك من الشر والفساد ، مالا يعلمه إلا رب العباد .

ولو لم يكن فى ذلك ، إلا إقامتها مع من نكاحها باطل فى حقه ، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة ، وهى الزنا ـ لكفى بذلك شراً .

وأما كتمان الحيض ، فإن استعجلت فأخبرت به وهى كاذبة ، ففيه من

انقطاع حق الزوج عنها ، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر ، كما ذكرنا .

وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض ، لتطول العدة ، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه ، بل هى سحت عليها محرمة من جهتين :

من كونها لاتستحقه ، ومن كونها ، نسبته إلى حكم الشرع وهى كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة ، فيكون ذلك سفاحا ، لكونها أجنبية منه(١) ، فلهذا قال تعالى :

[ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر] .

فصدور الكتمان منهن ، دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر ، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر ، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن ، لم يصدر منهن شىء من ذلك .

وفى ذلك دليل على قبول خبر المرأة ، عما تخبر بها عن نفسها ، من الأمر الذى لايطلع عليها غيرها ، كالحمل والحيض ونحوها .

ثم قال تعالى [وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك] أى : لأزواجهن ما دامت متربصة فى تلك العدة ، أن يردوهن إلى نكاحهن [إن أرادوا إصلاحاً أى : رغبة وألفة ومودة .

---

(١) جواب (إن) فى قوله (وإن كذبت الخ) لم يذكره والمقام يقتضى أن يذكر الجواب بعد قوله (أجنبية منه) وهو (فبذلك تكون قد ارتكبت إثما عظيما فلهذا قال تعالى الخ وبهذا ينتظم الكلام ويتضح المعنى .

ٱلْأَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح ، فليسوا بأحق بردهن ، فلا يحل لهم أن يراجعوهن ، لقصد المضارة لها ، وتطويل العدة عليها .

وهل يملك ذلك ، مع هذا القصد ؟ فيه قولان .

الجمهور على أنه يملك ذلك ، مع التحريم .

والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح ، لا يملك ذلك ، كما هو ظاهر الآية الكريمة ، وهذه حكمة أخرى فى هذا التربص .

وهى : أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها ، فجعلت له هذه المدة ، ليتروى بها ويقطع نظره .

وهذا يدل على محبته تعالى ، للألفة بين الزوجين ، وكراهته للفراق ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وهذا خاص فى الطلاق الرجعى .

وأما الطلاق البائن ، فليس البعل بأحق برجعتها .

بل إن تراضيا على التراجع ، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط .

ثم قال تعالى [ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف] أى : وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم ، مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة .

ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف ، وهو :

العادة الجارية فى ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله .

ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، والأشخاص والعوائد .

مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

فى هذا دليل على أن النفقة والكسوة، والمعاشرة، والمسكن، وكذلك الوطء ـ الكل يرجع إلى المعروف.

فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالا.

[وللرجال عليهن درجة] أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى:

[الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم].

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات بالرجال.

وله ضعفا ما لها فى كثير من الأمور، كالميراث ونحوه.

[والله عزيز حكيم] أى: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذى دانت له جميع الأشياء، ولكنه ـ مع عزته ـ حكيم فى تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية، الحوامل، فعدتهن وضع الحمل.

واللاتى لم يدخل بهن، فليس لهن عدة.

والإماء، فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضى الله عنهم.

وسياق الآية، يدل على أن المراد بها، الحرة.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا

كان الطلاق فى الجاهلية ، واستمر أول الإسلام ، هو أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية .

فكان إذا أراد مضارتها ، طلقها ، فإذا شارفت[1] انقضاء عدتها ، راجعها ، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً ، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم .

فأخبر تعالى أن [الطلاق] أى الذى تحصل به الرجعة [مرتان] .

ليتمكن الزوج — إن لم يرد المضارة — من ارتجاعها ، ويراجع رأيه فى هذه المدة .

وأما ما فوقها ، فليس محلا لذلك ، لأن من زاد على الثنتين ، فإما متجرىء على المحرم ، أو ليس له رغبة فى إمساكها ، بل قصده المضارة .

فلهذا أمر تعالى الزوج ، أن يمسك زوجته [بمعروف] أى : عشرة حسنة ، ويجرى مجرى أمثاله مع زوجاتهم ، وهذا هو الأرجح ، وإلا يسرحها ويفارقها [بإحسان] ،

ومن الإحسان ، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من ماله ، لأنه ظلم ، وأخذ المال فى غير مقابلة بشىء ، فلهذا قال :

[ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما

---

(١) شارفت . أى : قاربت .

يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

حدود الله] وهى المخالعة بالمعروف ، بأن كرهت الزوجة زوجها ، لخلقه أو خلقه أو نقص دينه ، وخافت أن لا تطيع الله فيه .

[فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به] لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة .

وفى هذا مشروعية الخلع ، إذا وجدت هذه الحكمة .

[تلك] أى ما تقدم من الأحكام الشرعية [حدود الله] أى: أحكامه التى شرعها لكم ، وأمر بالوقوف معها .

[ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون] وأى ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال ، وتعدى منه إلى الحرام ، فلم يسعه ما أحل الله ؟

والظلم ثلاثة أقسام :

ظلم العبد فيما بينه وبين الله ، وظلم العبد الأكبر[1] الذي هو الشرك ، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق .

فالشرك ، لا يغفره الله بالتوبة ، وحقوق العباد ، لا يترك الله منها شيئاً .

والظلم الذى بين العبد وربه فيما دون الشرك ، تحت المشيئة والحكمة[2]

---

(١) قوله : الأكبر ، صفة لـ « ظلم » والمعنى : والظلم الأكبر الصادر من العبد هو الشرك بالله .

(٢) وفى هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد .

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ   فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا

يقول تعالى : [فإن طلقها] أى : الطلقة الثالثة [فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره] أى : نكاحاً صحيحاً ويطأها ، لأن النكاح الشرعى(١) لا يكون صحيحاً ، ويدخل فيه العقد والوطء ، وهذا بالاتفاق .

ويتعين أن يكون نكاح الثانى ، نكاح رغبة .

فإن قصد به تحليلها للأول ، فليس بنكاح ، ولا يفيد التحليل .

ولا يفيد وطء السيد ، لأنه ليس بزوج .

فإذا تزوجها الثانى راغباً ووطئها ، ثم فارقها وانقضت عدتها [فلا جناح عليهما] أى : على الزوج الأول والزوجة [أن يتراجعا] أى : يجددا عقدا جديدا بينهما ، لإضافته التراجع إليهما ، فدل على اعتبار التراضى .

ولكن يشترط فى التراجع أن يظنا [أن يقيما حدود الله] بأن يقوم كل منهما ، بحق صاحبه .

وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق ، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة ، فهنا لا جناح عليهما فى التراجع .

ومفهوم الآية الكريمة ، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله ، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية ، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما فى ذلك جناحا ، لأن جميع الأمور ، إن لم يقم فيها أمر الله ، ويسلك بها طاعته ، لم يحل الإقدام عليها .

---

(١) قوله (لأن النكاح الشرعى الخ) فى العبارة اضطراب . والصواب أن يقال (لأن النكاح الشرعى الصحيح ، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء).

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

وفى هذا دلالة على أنه ينبغى للإنسان ، إذا أراد أن يدخل فى أمر من الأمور ، خصوصاً الولايات ، الصغار ، والكبار ، أن ينظر فى نفسه .

فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ، ووثق بها ، أقدم ، وإلا أحجم .

ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة قال :

[وتلك حدود الله] أى : شرائعه التى حددها وبينها ووضحها .

[يبينها لقوم يعلمون] لأنهم هم المنتفعون بها ، النافعون لغيرهم .

وفى هذا من فضيلة أهل العلم ، مالا يخفى ، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده ، خاصا بهم ، وأنهم المقصودون بذلك .

وفيه أن الله تعالى يحب من عباده ، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها .

ثم قال تعالى : [وإذا طلقتم النساء] أى : طلاقا رجعياً بواحدة أو اثنتين .

[فبلغن أجلهن] أى : قارين انقضاء عدتهن .

[فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف] أى : إما أن تراجعوهن ، ونيتكم القيام بحقوقهن ، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ، ولهذا قال :

[ولا تمسكوهن ضرارا] أى : مضارة بهن [لتعتدوا] فى فعلكم هذا الحلال ، إلى الحرام .

عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

فالحلال : الإمساك بالمعروف ، والحرام : المضارة .

[ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه] ولو كان الحق يعود المخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار .

[ولا تتخذوا آيات الله هزوا] لما بين تعالى حدوده غاية التبيين ، وكان المقصود ، العلم بها والعمل ، والوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً ، بل أنزلها بالحق والصدق والجد ، نهى عن اتخاذها هزوا ، أى : لعبا بها ، وهو التجرى عليها ، وعدم الامتثال لواجبها .

مثل استعمال المضارة فى الإمساك ، أو الفراق ، أو كثرة الطلاق ، أو جمع الثلاث .

والله — من رحمته — جعل له واحدة بعد واحدة ، رفقا به وسعياً فى مصلحته .

[واذكروا نعمة الله عليكم] عموما باللسان ، حمداً وثناء .

وبالقلب ، اعترافا ، وإقراراً ، وبالأركان ، بصرفها فى طاعة الله .

[وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة] أى : السنة اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها ، وطرق الشر وحذركم إياها ، وعرفكم نفسه ووقائعه فى أوليائه وأعدائه ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وقيل : المراد بالحكمة : أسرار الشريعة ، فالكتاب فيه ، الحكم .

والحكمة فيها ، بيان حكمة الله فى أوامره ونواهيه . وكلا المعنيين صحيح.

ولهذا قال [يعظكم به] أى : بما أنزل عليكم ، وهذا مما يقوى أن

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

المراد بالحكمة ، أسرار الشريعة ، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة ، والترغيب ، أو الترهيب ، فالحكم به ، يزول الجهل .

والحكمة مع الترغيب ، يوجب الرغبة .

والحكمة مع الترهيب ، يوجب الرهبة [واتقوا الله] فى جميع أموركم [واعلموا أن الله بكل شىء عليم] فلهذا بين لكم هذه الأحكام ، التى هى جارية مع المصالح فى كل زمان ومكان ، فله الحمد والمنة .

* هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة ، وأراد زوجها أن ينكحها ، ورضيت بذلك ، فلا يجوز لوليها ، من أب وغيره ؛ أن يعضلها ؛ أى : يمنعها من التزوج به حنقاً عليه ؛ وغضباً ؛ واشمئزازا لما فعل من الطلاق الأول .

وذكر أن [من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر] فإيمانه يمنعه من العضل .

[ذلكم أزكى لكم وأطهر] وأطيب مما يظن الولى أن عدم تزويجه ، هو الرأى واللائق وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه ، كما هو عادة المترفعين المتكبرين .

فإن كان يظن أن المصلحة ، فى عدم تزويجه ، فإن [الله يعلم وأنتم لاتعلمون] .

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ

فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم ، مريد لها ، قادر عليها ، ميسر لها من الوجه الذى تعرفون وغيره .

وفى هذه الآية ، دليل على أنه لابد من الولى فى النكاح ، لأنه نهى الأولياء عن العضل ، ولا ينهاهم إلا عن أمر ، هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق . ثم قال تعالى [والوالدات يرضعن . الآية] .

﴿ هذا خبر بمعنى الأمر ، تنزيلا له منزلة المتقرر ، الذى لايحتاج إلى أمر بأن [يرضعن أولادهن حولين] .

ولما كان الحول ، يطلق على الكامل ، وعلى معظم الحول قال :

[كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة] فإذا تم للرضيع حولان ، فقد تم رضاعه وصار اللبن بعد ذلك ، بمنزلة سائر الأغذية ، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين ، غير معتبر ، فلا يحرم[(١)] .

ويؤخذ من هذا النص ، ومن قوله تعالى [وحمله وفصاله ثلاثون شهراً] .

أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأنه يمكن وجود الولد بها .

---

(١) قوله (فلا يحرم) أى : لاتثبت به الأخوة ولا النسب من الرضاعة بعد الحولين الكاملين ، وعلى هذا فيجوز أن يتزوج كل منهما بالآخر .

بِوَلَدِهِ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ

[وعلى المولود له] أي : الأب [رزقهن وكسوتهن بالمعروف] وهذا شامل لما إذا كانت فى حباله أو مطلقة ، فإن على الأب رزقها ، أى : نفقتها وكسوتها ، وهى الأجرة للرضاع .

ودل هذا ، على أنها إذا كانت فى حباله ، لايجب لها أجرة ، غير النفقة والكسوة ، وكل بحسب حاله ، فلهذا قال :

[لا تكلف نفس إلا وسعها] ، فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغنى ، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد .

[لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده] أى : لايحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها ، إما أن تمنع من إرضاعه ، أو لاتعطى ما يجب لها من النفقة ، والكسوة أو الأجرة .

[ولا مولود له بولده] بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة ، أو تطلب زيادة عن الواجب ، ونحو ذلك من أنواع الضرر .

ودل قوله [مولود له] أن الولد لأبيه ، لأنه موهوب له ، ولأنه من كسبه .

فلذلك جاز له الأخذ من ماله ، رضى أو لم يرض ، بخلاف الأم .

وقوله [وعلى الوارث مثل ذلك] أى : على وارث الطفل إذا عدم الأب ، وكان الطفل ليس له مال ، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين ، على القريب الوارث الموسر .

[فإن أرادا] أى : الأبوان [فصالا] أى فطام الصبى قبل الحولين .

[عن تراض منهما] بأن يكونا راضيين [وتشاور] فيما بينهما ، هل هو مصلحة للصبى أم لا ؟ .

فإن كان مصلحة ورضيا [فلا جناح عليهما] فى فطامه قبل الحولين .
فدلت الآية بمفهومها ، على أنه إن رضى أحدهما دون الآخر ، أو لم يكن مصلحة للطفل ، أنه لا يجوز فطامه .

وقوله : [وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم] أى : تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة [فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف] أى : المرضعات ، [والله بما تعملون بصير] فمجازيكم على ذلك بالخير والشر .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

أى : إذا توفى الزوج ، مكثت زوجته ، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا .

والحكمة فى ذلك ، ليتبين الحمل فى مدة الأربعة الأشهر ، ويتحرك فى ابتدائه ، فى الشهر الخامس .

وهذا العام مخصوص بالحوامل ، فإن عدتهن بوضع الحمل .

وكذلك الأمة ، عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمسة أيام .

وقوله : [فإذا بلغن أجلهن] أى : انقضت عدتهن [فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن] أى : من مراجعتها للزينة والطيب .

[بالمعروف] أى : على وجه غير محرم ولا مكروه .

وفى هذا وجوب الإحداد ، مدة العدة ، على المتوفى عنها زوجها ، دون غيرها من المطلقات والمفارقات ، وهو مجمع عليه بين العلماء .

[والله بما تعملون خبير] أى : عالم بأعمالكم ، ظاهرها وباطنها ، جليلها وخفيها ، فمجازيكم عليها .

وفى خطابه للأولياء بقوله : [فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن] دليل على أن الولى ينظر على المرأة ، ويمنعها مما لايجوز فعله ويجبرها على ما يجب ، وأنه مخاطب بذلك ، واجب عليه .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

هذا حكم المعتدة من وفاة ، أو المبانة فى الحياة .

فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها فى الخطبة ، وهو المراد بقوله [ولكن لاتواعدوهن سراً] .

وأما التعريض ، فقد أسقط تعالى فيه الجناح .

والفرق بينهما : أن التصريح ، لايحتمل غير النكاح ، فلهذا حرم ، خوفا من استعجالها ، وكذبها فى انقضاء عدتها ، رغبة فى النكاح .

ففيه دلالة على منع وسائل المحرم ، وقضاء ، لحق زوجها الأول ، بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها .

وأما التعريض ، وهو : الذى يحتمل النكاح وغيره ، فهو جائز للبائن كأن يقول : إنى أريد التزوج ، وإنى أحب أن تشاورينى عند انقضاء عدتك ، ونحو ذلك ، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح ، وفى النفوس داع قوى إليه .

وكذا إضمار الإنسان فى نفسه أن يتزوج من هى فى عدتها ، إذا انقضت .

ولهذا قال [أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن] هذا التفصيل كله ، فى مقدمات العقد .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾

وأما عقد النكاح فلا يحل [حتى يبلغ الكتاب أجله] .

أى : تنقضى العدة .

واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم] أى : فانووا الخير ، ولا تنووا الشر ، خوفا من عقابة ورجاء لثوابه .

[واعلموا أن الله غفور] لمن صدرت منه الذنوب ، فتاب منها ،ورجع إلى ربه [حليم] حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم ، مع قدرته عليهم .

* أى : ليس عليكم ـ يامعشر الأزواج ـ جناح وإثم ، بتطليق النساء قبل المسيس ، وفرض المهر ، وإن كان فى ذلك كسر لها ، فإنه ينجبر بالمتعة.

فعليكم أن [تمتعوهن] بأن تعطوهن شيئا من المال ، جبراً لخواطرهن .

[على الموسع قدره وعلى المقتر] أى : المعسر [قدره] .

وهذا يرجع إلى العرف ، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال :

[متاعا بالمعروف]فهذا حق واجب [على المحسنين] ليس لهم أن يبخسوهن .

فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن ، وتعلق قلوبهن ، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه ، فعليهم ـ فى مقابلة ذلك ـ المتعة .

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهى ، وأدله على حكمة شارعه ورحمته !!

ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ !!

فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر .

ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

أي : إذا طلقتم النساء قبل المسيس ، وبعد فرض المهر ، فللمطلقات من المهر المفروض ، نصفه ، ولكم نصفه .

وهــــذا هو الواجب مالم يدخله عفو ومسامحة ، بأن تعفو عن نصفها لزوجها ، إذا كان يصح عفوها ، [أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح] وهو الزوج على الصحيح ، لأنه الذى بيده حل عقدته .

ولأن الولى ، لايصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة ، لكونه غير مالك ولا وكيل .

ثم رغب فى العفو ، وأن من عفا ، كان أقرب لتقواه ، لكونه إحسانا موجباً لشرح الصدر ، ولكون الإنسان لا ينبغى أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف ، وينسى الفضل الذى هو أعلى درجات المعاملة ، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين :

إما عدل وإنصاف واجب ، وهو : أخذ الواجب ، وإعطاء الواجب .

وإما فضل وإحسان ، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح فى الحقوق ، والغض مما فى النفس .

فلا ينبغى للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ، ولو فى بعض الأوقات ، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة ، أو مخالطة ، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم .

ولهذا قال : [إن الله بما تعملون بصير] .

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

ثم قال تعالى : [حافظوا على الصلوات الخ الآيتين] .

يأمر تعالى بالمحافظة [على الصلوات] عموما وعلى [الصلاة الوسطى] وهى العصر خصوصاً .

والمحافظة عليها : أداؤها بوقتها ، وشروطها ، وأركانها ، وخشوعها ، وجميع مالها ، من واجب ومستحب .

وبالمحافظة على الصلوات ، تحصل المحافظة على سائر العبادات ، وتفيد النهى عن الفحشاء والمنكر ، وخصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله :

[وقوموا لله قانتين] أي ذليلين مخلصين ؛ خاشعين .

فإن القنوت : دوام الطاعة مع الخشوع .

وقوله : [فإن خفتم] حذف المتعلق ، ليعم الخوف من العدو ، والسبع ، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا ، [رجالا] ماشين على أرجلكم .

[أو ركبانا] على الخيل والإبل ، وسائر المركوبات ، وفى هذه الحال ، لا يلزمه الاستقبال .

فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف . فاذا حصل الأمن ، صلى صلاة كاملة .

ويدخل فى قوله [فإذا أمنتم فاذكروا الله] تكميل الصلوات .

ويدخل فيه أيضاً ، الإكثار من ذكر الله ، شكراً له على نعمة التعليم ، لما فيه سعادة العبد .

وفى الآية الكريمة ، فضيلة العلم ، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم ، الإكثار من ذكر الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

وفيه الإشعار أيضاً بأن الإكثار من ذكره ، سبب لتعليم علوم أخرى، لأن الشكر مقرون بالمزيد .

ثم قال تعالى : [والذين يتوفون منكم الآية] .

* اشتهر عند كثير من المفسرين ، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التى قبلها وهى قوله تعالى .

[والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً] وأن الأمر كان على الزوجة ، أن تتربص حولا كاملا ، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر .

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة ، أن ذلك تقدم فى الوضع،لافى النزول. لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ .

وهذا القول لا دليل عليه .

ومن تأمل الآيتين ، اتضح له أن القول الآخر فى الآية، هو الصواب .

وأن الآية الأولى فى وجوب التربص أربعة أشهر وعشرا ، على وجه التحتيم ، على المرأة .

وأما فى هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت ، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم ، حولا كاملا ، جبرا لخاطرها ، وبراً بميتهم .

ولهذا قال [وصية لأزواجهم] أى : وصية من الله لأهل الميت ، أن يستوصوا بزوجته ، ويمتعوها ولا يخرجوها .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

فإن رغبت ، أقامت فى وصيتها ، وإن أحبت الخروج ، فلا حرج عليها ، ولهذا قال : [فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن] .

أي : من التجمل واللباس .

لكن الشرط ، أن يكون بالمعروف ، الذى لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار .

وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين ، الدالين على كمال العزة ، وكمال الحكمة ، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته ، ودلت على كمال حكمته ، حيث وضعها فى مواضعها اللائقة بها .

* لما بين فى الآية السابقة ، إمتاع المفارقة بالموت ، ذكر هنا أن كل مطلقة ، فلها على زوجها ، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها ، وأنه حق ، إنما يقوم به المتقون ، فهو من خصال التقوى الواجبة والمستحبة .

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق ، وطلقها قبل الدخول ، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره .

وإن كان مسمى لها ، فمتاعها نصف المسمى .

وإن كانت مدخولا بها ، صارت المتعة مستحبة ، فى قول جمهور العلماء .

ومن العلماء من أوجب ذلك ، استدلالا بقوله [حقاً على المتقين] والأصل فى « الحق » أنه واجب ، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين ، وأصل التقوى ، واجبة .

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين ، أثنى على أحكامه

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

وعلى بيانه لها وتوضيحه ، وموافقتها للعقول السليمة ، وأن القصد من بيانه لعباده ، أن يعقلوا عنه ما بينه ، فيعقلونها حفظا ، وفهماً وعملا بها ، فإن ذلك من تمام عقلها .

* أى : ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بنى إسرائيل ، حيث حل الوباء بديارهم ، فخرجوا بهذه الكثرة ، فرارا من الموت ، فلم ينجهم الفرار ، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون .

فعاملهم بنقيض مقصودهم ، وأماتهم الله عن آخرهم .

ثم تفضل عليهم ، فأحياهم ، إما بدعوة نبي ، كما قاله كثير من المفسرين ، وإما بغير ذلك .

ولكن ذلك ، بفضله وإحسانه ، وهولا زال فضله على الناس ، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله . بالاعتراف بها وصرفها فى مرضاة الله .

ومع ذلك ، فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر .

وفى هذه القصة ، عبرة بأنه على كل شىء قدير ، وذلك آية محسوسة على البعث .

فإن هذه القصة معروفة منقولة ، نقلا متواتراً عند بنى إسرائيل ، ومن اتصل بهم .

ولهذا أتى بها تعالى ، بأسلوب الأمر الذى قد تقرر عند المخاطبين .

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ، خوفا من الأعداء ، وجبناً عن لقائهم .

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً
وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

ويؤيد هذا ؛ أن الله ذكر بعدها . الأمر بالقتال وأخبر عن بنى إسرائيل ؛ أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم .

وعلى الاحتمالين ؛ فإن فيها ترغيباً فى الجهاد ؛ وترهيبا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغنى عن الموت شيئاً .

[قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم].

* جمع الله بين الأمر بالقتال فى سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين .

وحث على الإخلاص فيه ، بأن يقاتل العبد ، لتكون كلمة الله هى العليا .

فإن الله [سميع] للأقوال وإن خفيت [عليم] بما تحتوى عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها .

وأيضاً ، فإنه إذا علم المجاهد فى سبيله ، أن الله سميع عليم ، هان عليه ذلك ، وعلم أنه ، بعينه ، ما يتحمل المتحملون من أجله ، وأنه لابد أن يمدهم بعونه ولطفه .

. . . .

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة ، وأن المنفق قد أقرض الله الملى ، الكريم ، ووعده المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى :

[مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم] .

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق ، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله ، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ، ويبسطه على من يشاء .

فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر ، ولا يظن أنه ضائع بل مرجع العباد كلهم إلى الله .

فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده ، مدخرا ، أحوج ما يكونون إليه .

ويكون له من الوقع العظيم ، مالا يمكن التعبير عنه .

والمراد بالقرض الحسن : هو ماجمع أوصاف الحسن ، من النية الصالحة ، وسماحة النفس ، بالنفقة ، ووقوعها فى محلها وأن لا يتبعها المنفق ، منا ولا أذى ؛ ولا مبطلا ومنقصاً .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً

يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ؛ ليعتبروا وليرغبوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عنه .

فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة فى الدنيا والآخرة ؛ والناكلين ؛ خسروا الأمرين .

فأخبر تعالى أن أهل الرأى من بنى إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ؛ تراودوا فى شأن الجهاد ، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا ؛ لينقطع النزاع بتعيينه ، وتحصل الطاعة التامة ؛ ولا يبقى لقائل مقال .

وأن نبيهم خشى ؛ أن طلبهم هذا ، مجرد كلام لا فعل معه .

فأجابوا نبيهم ، بالعزم الجازم ؛ وأنهم التزموا ذلك التزاما تاما .

وأن القتال متعين عليهم ، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم .

مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

وأنه عين لهم نبيهم ؛ طالوت ملكا ؛ يقودهم فى هذا الأمر الذى لابد له من قائد يحسن القيادة .

وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت ؛ وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالا.

فأجابهم نبيهم : إن الله اختاره عليكم ؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة ؛ وقوة الجسم ؛ اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة ، وحسن التدبير .

وأن الملك ليس بكثرة المال ؛ ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة فى بيوتهم . فالله يؤتى ملكه من يشاء .

ثم لم يكتف ذلك النبى الكريم بإقناعهم بما ذكره ؛ من كفاءة طالوت ، واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم .

[إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون] .

فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء .

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية فى طالوت ، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم ، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة ، ولهذا قال :

[إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين] فحينئذ سلموا وانقادوا .

فلما ترأس فيهم طالوت ، وجندهم ، ورتبهم ، وفصل بهم إلى قتال عدوهم ، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ، مايحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل قال : [إن الله مبتليكم بنهر] تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء .

[فمن شرب منه فليس منى] أى : لايتبعنى ، لأن ذلك برهان على قلة صبره ، ووفور جزعه [ومن لم يطعمه فإنه منى] لصدقه وصبره [إلا من اغترف غرفة بيده] أى : فإنه مسامح فيها .

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء ، شربوا كلهم منه [إلا قليلا منهم] فإنهم صبروا ولم يشربوا .

[فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا] أى : الناكلون أو الذين عبروا : [لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] .

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ

فإن كان القائلون ، هم الناكاين ، فهذا قول يبررون به نكولهم .

وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت ، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم .

ولكن شجعهم على الثبات والإقدام ، أهل الإيمان الكامل حيث قالوا : [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن والله مع الصابرين] بعونه وتأييده ، ونصره ، فثبتوا ، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده .

[وقتل داود] صلى الله عليه وسلم [جالوت] وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم .

[وآتاه الله] أي : داود [الملك والحكمة] النبوة والعلوم النافعة وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب .

ثم بين تعالى ، فائدة الجهاد فقال :

[ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض] باستيلاء الكفرة والفجار ، وأهل الشر والفساد .

[ولكن الله ذو فضل على العالمين] حيث لطف بالمؤمنين ، ودافع عنهم ، وعن دينهم ، بما شرعه وبما قدره

فلما بين هذه القصة قال لرسوله صلى الله عليه وسلم .

[تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين] .

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

ومن جملة الأدلة على رسالته ، هذه القصة ، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع . وفى هذه القصة ، عبر كثيرة للأمة .

منها : فضيلة الجهاد فى سبيله ، وفوائده ، وثمراته ، وأنه السبب الوحيد فى حفظ الدين ، وحفظ الأوطان ، وحفظ الأبدان والأموال .

وأن المجاهدين ، ولو شقت عليهم الأمور ، فإن عواقبهم حميدة ، كما أن الناكلين ، ولو استراحوا قليلا ، فإنهم سيتعبون طويلا .

ومنها : الانتداب لرياسة من فيه كفاءة ، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين.

إلى العلم الذى هو علم السياسة والتدبير .

وإلى القوة التى ينفذ بها الحق .

وأن من اجتمع فيه الأمران ، فهو أحق من غيره .

ومنها الاستدلال بهذه القصة ، على ما قاله العلماء ، أنه ينبغى للأمير للجيوش ، أن يتفقدها عند فصولها ، فيمنع من لا يصلح للقتال ، من رجال وخيل وركاب ، لضعفه ، أو ضعف صبره ، أو لتخذيله ، أو خوف الضرر بصحبته . فإن هذا القسم ضرر محض على الناس .

ومنها : أنه ينبغى عند حضور اليأس ، تقوية المجاهدين ، وتشجيعهم ، وحثهم على القوة الإيمانية ، والاتكال الكامل على الله ، والاعتماد عليه ، وسؤال الله التثبيت ، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء .

ومنها : أن العزم على القتال والجهاد ، غير حقيقته .

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم

فقد يعزم الإنسان ، ولكن عند حضوره ، تنحل عزيمته ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم .

« أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد » .

فهؤلاء الذين عزموا على القتال ، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت ، نكص أكثرهم .

ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وسلم « وأسألك الرضا بعد القضاء » .

لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس ، هو الرضا الحقيقى .

۞ يخبر البارى أنه فاوت بين الرسل فى الفضائل الجليلة ، والتخصيصات الجميلة ، بحسب ما من الله به عليهم ، وقاموا به من الإيمان الكامل ؛ واليقين الراسخ ، والأخلاق العالية ، والآداب السامية ، والدعوة ،والتعليم والنفع العميم :

فمنهم : من اتخذه خليلا ، ومنهم : من كلمه تكليما ، ومنهم : من رفعه فوق الخلائق درجات .

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر ، إلى الوصول ،لفضلهم الشامخ .

وخص عيسى بن مريم ، أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقا، وعبده صدقاً ، وأن ما جاء به عن عند الله كله حق .

فجعله يبرىء الأكمة والأبرص ؛ ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس فى المهد صبياً ، وأيده بروح القدس ، أى : بروح الإيمان .

مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له بذلك ، القوة والتأييد ، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاما لكل مؤمن ، بحسب إيمانه كما قال [وأيدهم بروح منه]

لكن ما لعيسى أعظم ، مما لغيره ، لهذا خصه الله بالذكر .

وقيل : إن روح القدس — هنا — جبريل ، أيده الله بإعانته ومؤازرته لكن المعنى الأصح ، هو الأول .

ولما أخبر عن كمال الرسل ، وما أعطاهم من الفضل والخصائص ، وأن دينهم واحد ، ودعوتهم إلى الخير واحدة ، كان موجب ذلك ومقتضاه ، أن تجتمع الأمم على تصديقهم ، والانقياد لهم ، لما آتاهم من البينات التى على مثلها ، يؤمن البشر .

لكن أكثرهم ، انحرفوا عن الصراط المستقيم ، ووقع الاختلاف بين الأمم .

فمنهم من آمن ؛ ومنهم من كفر .

ووقع لأجل ذلك ؛ الاقتتال الذى ؛ هو موجب الاختلاف والتعادى .

ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ؛ فما اختلفوا .

ولو شاء الله أيضاً ـ بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ـ ما اقتتلوا .

ولكن حكمته ؛ اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب .

ففى هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى ، يتصرف فى جميع الأسباب لمسبباتها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

وأنه إن شاء أبقاها ، وإن شاء منعها .

وكل ذلك تبع لحكمته وحده ، فإنه فعال لما يريد .

فليس لإرادته ومشيئته ، ممانع ولا معارض ولا معاون .

* يحث الله المؤمنين على النفقات ، فى جميع طرق الخير .

لأن حذف المعمول ، يفيد التعميم .

ويذكرهم نعمته عليهم ، بأنه هو الذى رزقهم ، ونوع عليهم النعم .

وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما فى أيديهم ، بل أتى بـ « من » الدالة على التبعيض .

فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق .

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات ، مدخرة عند الله ، فى يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ، ولا التبرعات ، ولا الشفاعات .

فكل أحد يقول : ما قدمت لحياتى(١) .

فتنقطع الأسباب كلها ، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الفجر الآية ٢٤ [ياليتنى قدمت لحياتى] .

[وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا] .

[ثم قال تعالى : [والكافرون هم الظالمون] وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ، ورزقهم وعافاهم ، ليستعينوا بذلك على طاعته .

فخرجوا عما خلقهم الله له ، وأشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا .

واستعانوا بنعمه ، على الكفر والفسوق والعصيان .

فلم يبقوا للعدل موضعاً ، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم .

✡ أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أعظم آيات القرآن ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة ، وسعة الصفات للبارى تعالى .

فأخبر أنه [الله] الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو .

فألوهية غيره ، وعبادة غيره ، باطلة .

وأنه [الحى] الذى له جميع معانى الحياة الكاملة ، من السمع ، والبصر ، والقدرة ، والإرادة وغيرها ، والصفات الذاتية .

كما أن [القيوم] تدخل فيه جميع صفات الأفعال ، لأنه القيوم الذى قام بنفسه ، واستغنى عن جميع مخلوقاته ، وقام بجميع الموجودات ، فأوجدها وأبقاها ، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه فى وجودها وبقائها .

وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ

ومن كمال حياته وقيوميته ، أنه [لا تأخذه سنة] أى : نعاس [ولا نوم] .

لأن السنة والنوم ، إنما يعرضان للمخلوق ، الذى يعتريه الضعف ، والعجز ، والانحلال .

ولا يعرضان ، لذى العظمة ، والكبرياء ، والجلال .

وأخبر أنه مالك جميع مافى السموات والأرض .

فكلهم عبيد لله مماليك ، لايخرج أحد منهم عن هذا الطور .

[إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا] . فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذى له صفات الملك والتصرف ، والسلطان ، والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا [يشفع عنده] أحد [إلا بإذنه] .

فكل الوجهاء والشفعاء ، عبيد له مماليك ، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم .

[قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض] .

والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا توحيده ، واتباع رسله .

فمن لم يتصف بهذا ، فليس له فى الشفاعة نصيب .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدى الخلائق ، من

مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

الأمور المستقبلة، التى لا نهاية لها [وما خلفهم] من الأمور الماضية، التى لا حد لها.

وأنه لا تخفى عليه خافية [يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور] .

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته [إلا بما شاء] منها .

وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جداً مضمحل فى علوم البارى ومعلوماته ، كما قال أعلم الخلق به ، وهم الرسل والملائكة [سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا] .

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه ، وسع السموات والأرض ، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم ، بالأسباب والنظامات ، التى جعلها الله فى المخلوقات .

ومع ذلك ، فلا يئوده ، أى : يثقله حفظهما ، لكمال عظمته ، واقتداره ، وسعة حكمته فى أحكامه .

[وهو العلى] بذاته ، على جميع مخلوقاته ، وهو العلى بعظمة صفاته .

وهو العلى الذى قهر المخلوقات ، ودانت له الموجودات ، وخضعت له الصعاب ، وذلت له الرقاب .

[العظيم] الجامع ، لجميع صفات العظمة والكبرياء ، والمجد والبهاء ، الذى تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل شىء ، وإن جلت عن الصفة ، فإنها مضمحلة فى جانب عظمة العلى العظيم .

فآية ، احتوت على هذه المعانى التى هى أجل المعانى ، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن ، ويحق لمن قرأها ، متدبراً متفهما ، أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون محفوظا بذلك ، من شرور الشيطان .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامى ، وأنه — لكمال [1] براهينه ، واتضاح آياته ، وكونه هو دين العقل والعلم ، ودين الفطرة والحكمة ، ودين الصلاح والإصلاح ، ودين الحق والرشد ، فلكماله وقبول الفطر له — لا يحتاج إلى الإكراه عليه .

لأن الإكراه ، إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ، ويتنافى مع الحقيقة والحق ، أو لما تخفى براهينه وآياته .

وإلا فمن جاءه هذا الدين ، ورده ولم يقبله ، فإنه لعناده .

فإنه قد تبين الرشد من الغى ، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة ، إذا رده ولم يقبله .

ولا منافاة بين هذا المعنى ، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد .

فإن الله أمر بالقتال ، ليكون الدين كله لله ، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين .

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ، ماض مع البر والفاجر ، وأنه من الفروض المستمرة ، الجهاد القولى الفعلى .

---

(١) قوله (لكمال) هذا الجار والمجرور متعلق بقوله الآتى (لا يحتاج).

. . . .

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية ، تنافى آيات الجهاد ، فجزم بأنها منسوخة — فقوله ضعيف ، لفظاً ومعنى ، كما هو واضح بين ، لمن تدبر الآية الكريمة ، كما نبهنا عليه .

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين :

قسم آمن بالله وحده لاشريك له ، وكفر بالطاغوت — وهو كل ماينافى الإيمان بالله من الشرك وغيره — فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى ، التى لا انفصام لها ، بل هو مستقيم على الدين الصحيح ، حتى يصل به إلى الله ؛ وإلى دار كرامته .

ويؤخذ القسم الثانى ، من مفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل كفر به ، وآمن بالطاغوت ، فإنه هالك هلاكا أبديا ، ومعذب عذابا سرمدياً .

وقوله : [والله سميع] أى : لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، وسميع لدعاء الداعين ، وخضوع المتضرعين .

[عليم] بما أكنته الصدور ، وما خفى من خفايا الأمور .

فيجازى كل أحد ، بحسب ما يعلمه ، من نياته وعمله .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها .

فالسابقة ، هي الأساس ، وهذه هي الثمرة .

فأخبر تعالى ، أن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان ، وترك كل ماينافيه ، أنه وليهم ، بتولاهم بولايته الخاصة ، ويتولى تربيتهم ، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض ، إلى نور العلم واليقين والإيمان ، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم .

وينور قلوبهم ، بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان ، وييسرهم لليسرى ، ويجنبهم العسرى .

وأما الذين كفروا ، فإنهم لما تولوا غير وليهم ، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم ، وخذلهم ، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم ، ممن ليس عنده نفع ولا ضر .

فأضلوهم ، وأشقوهم ، وحرموهم هداية العلم النافع ، والعمل الصالح .

وحرموهم السعادة ، وصارت النار مثواهم ، خالدين فيها مخلدين .

اللهم تولنا فيمن توليت .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ

يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد .

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، حيث حاج هـذا الملك الجبار ، وهو نمرود البـابلى ، المعطل المنـكر لرب العالمين ، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته فى هذا الأمر ، الذى لا يقبل شـكا ، ولا إشكالا ، ولا ريباً ، وهو توحيد الله وربوبيته ، الذى هو أجلى الأمور وأوضحها .

ولـكن هذا الجبار ، غره ملـكه وأطغاه ، حتى وصلت به الحال ، إلى أن نفاه ، وحاج إبراهيم الرسول العظيم ، الذى أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحدا من الرسل ، سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال إبراهيم مناظراً له [ربى الذى يحيي ويميت] أى : هو المنفرد بالخلق والتدبير ، والإحياء والإماتة .

فذكر من هذا الجنس أظهرها ، وهو الإحياء والإماتة .

فقال ذلك الجبار مباهتا [أنا أحيي وأميت] .

وعنى بذلك أنى أقتل من أردت قتله ، وأستبقى من أردت استبقاءه .

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير ، وحيدة عن المقصود .

وأن المقصود ، أن الله تعالى هو الذى تفرد بإيجاد الحياة فى المعدومات ، وردها على الأموات .

قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

وأنه هو الذى يميت العباد والحيوانات بآجالها ، بأسباب ربطها وبغير أسباب .

فلما رآه الخليل مموها تمويهاً ، ربما راج على الهمج الرعاع .

قال إبراهيم ـ ملزماله بتصديق قوله إن كان كما يزعم :

[فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر] أى : وقف ، وانقطعت حجته ، واضمحلت شبهته .

وليس هذا من الخليل ، انتقالا من دليل إلى آخر .

وإنما هو إلزام لنمرود ، بطرد دليله إن كان صادقاً .

وأتى بهذا الذى لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه .

فجميع الأدلة ، السمعية والعقلية ، والفطرية ، قد قامت شاهدة بتوحيد الله ، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير .

وأن من هذا شأنه ، لا يستحق العبادة إلا هو .

وجميع الرسل ، متفقون على هذا الأصل العظيم .

ولم ينكره إلا معاند مكابر ، مماثل لهذا الجبار العنيد .

فهذا من أدلة التوحيد .

ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال : [أو كالذى مر على قرية ـ الآية] .

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ

هذان دليلان عظيمان ، محسوسان فى الدنيا قبل الآخرة – على البعث والجزاء .

واحد أجراه الله على يد رجل شاك فى البعث على الصحيح ، كما تدل عليه الآية الكريمة .

والآخر ، على يد خليله إبراهيم .

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده .

فهذا الرجل ، مر على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها .

قد مات أهلها وخربت عمارتها ، فقال – على وجه الشك والاستبعاد :

[أنى يحيى هذه الله بعد موتها] ؟

أى : ذلك بعيد ، وهى فى هذه الحال .

يعنى : وغيرها مثلها ، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة .

فأراد الله رحمته ورحمة الناس ، حيث أماته الله مائة عام .

وكان معه حمار ، فأماته معه .

ومعه طعام وشراب ، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة .

فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال :

[كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم] وذلك بحسب ماظنه .

فقال الله [بل لبثت مائة عام] .

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ

والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام .

ومن تمام رحمة الله به وبالناس ، أنه أراه الآية عيانا ، ليقتنع بها .

فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله ، قيل له :

[فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه] أى : لم يتغير فى هذه المدد الطويلة .

وذلك من آيات قدرة الله ، فإن الطعام والشراب ـ خصوصاً ماذكره المفسرون : أنه فاكهة وعصير ـ لا يلبث أن يتغير ، وهذا قد حفظه الله ، مائة عام وقيل له :

[انظر إلى حمارك] ، فإذا هو قد تمزق وتفرق ، وصار عظاما نخرة .

[وانظر إلى العظام كيف ننشزها] أى : نرفع بعضها إلى بعض ، ونصل بعضها ببعض ، بعد ما تفرقت وتمزقت .

[ثم نكسوها] بعد الالتئام [لحما] ثم ، نعيد فيه الحياة .

[فلما تبين له] رأى عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه .

[قال أعلم أن الله على كل شىء قدير] .

فاعترف بقدرة الله على كل شىء وصار آية للناس ، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره ، وعرفوا قضيته ، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى .

هذا هو الصواب فى هذا الرجل .

إِبْرَٰهِمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ

وأما قول كثير من المفسرين : إن هذا الرجل ، مؤمن ، أو نبى من الأنبياء ، إما عزيز أو غيره ، وأن قوله [أنى يحيى هذه الله بعد موتها] ، يعنى كيف تعمر هذه القرية ، بعد أن كانت خراباً ، وأن الله أماته ، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق ، وأنها عمرت فى هذه المدة ،وتراجع الناس إليها وصارت عامرة ، بعد أن كانت دامرة ـ فهذا لايدل عليه اللفظ بل ينافيه ، ولايدل عليه المعنى .

فأى آية وبرهان ، برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة ، وهذه لم تزل تشاهد ، تعمر قرى ومساكن ، وتخرب أخري .

وإنما الآية العظيمة ، فى إحيائه بعد موته ، وإحياء حماره ، وإبقاء طعامه وشرابه ، لم يتعفن ولم يتغير .

ثم قوله [فلما تبين له] صريح فى أنه لم يتبين له إلا بعد ماشاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عيانا .

وأما البرهان الآخر ، فإن إبراهيم قال طالباً من الله ، أن يريه كيف يحيي الموتى :

فقال الله له : [أو لم تؤمن] ليزيل الشبهة عن خليله .

[قال] إبراهيم : [بلى] يارب ، قد آمنت أنك على كل شىء قدير ، وأنك تحيي الموتى ، وتجازى العباد .

ولـكن أريد أن يطمئن قلبى ، وأصل إلى درجة عين اليقين .

ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

فأجاب الله دعوته ، كرامة له ، ورحمة بالعباد .

[قال فخذ أربعة من الطير] ولم يبين أى الطيور هى .

فالآية حاصلة بأى نوع منها ، وهو المقصود .

[فصرهن إليك] ضمهن ، واذبحهن ، ومزقهن .

[ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم] .

ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال ، التى حوله،ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه ، أى : سريعات ، لأن السعى : السرعة .

وليس المراد ، أنهن جئن على قوائمهن ، وإنما جئن طائرات ، على أكمل ما يكون من الحياة .

وخص الطيور بذلك ، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن .

وأيضاً أزال فى هذا كل وهم ، ربما يعرض للنفوس المبطلة .

فجعلهن متعددات أربعة ، ومزقهن جميعاً ، وجعلهن على رءوس الجبال ليكون ذلك ظاهراً علنا ، يشاهد من قرب ومن بعد ، وأنه نحاهن عنه كثيراً ، لئلا يظن أن يكون عاملا حيلة من الحيل .

وأيضاً أمره أن يدعوهن ، فجئن مسرعات .

فصارت هذه الآية ، أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته .

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه ، وتمام عدله وفضله .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

هذا حث عظيم من الله لعباده على إنفاق أموالهم فى سبيله ، وهو طريقه للوصل إليه .

فيدخل فى هذا ، إنفاقه فى ترقية العلوم النافعة ، وفى الاستعداد للجهاد فى سبيله ، وفى تجهز المجاهدين وتجهيزهم ، وفى جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين .

ويلى ذلك ، الإنفاق على المحتاجين ، والفقراء والمساكين .

وقد يجتمع الأمران ، فيكون فى النفقة دفع الحاجات ، والإعانة على الخير والطاعات .

فهذه النفقات مضاعفة،هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك .

ولهذا قال [والله يضاعف لمن يشاء] وذلك بحسب مايقوم بقلب المنفق، من الإيمان ، والإخلاص التام ، وفى ثمرات نفقته ونفعها .

فإن بعض طرق الخيرات ، يترتب على الإنفاق فيها ، منافع متسلسلة ، ومصالح متنوعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

ثم أيضاً ، ذكر ثواباً آخر المنفقين أموالهم فى سبيله ، نفقة صادرة ، مستوفية لشروطها ، منتفية موانعها .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

فلا يتبعون المنفق عليه منا منهم عليه ، وتعداداً للنعم ، وأذية له ، قولية ، أو فعلية .

فهؤلاء [لهم أجرهم عند ربهم] بحسب ما يعلمه منه ، وبحسب نفقاتهم ونفعها ، وبفضله الذى لا تناله ، ولا تصل إليه : صدقاتهم .

[ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] فنفى عنهم المكروه الماضى ، بنفى الحزن ، والمستقبل بنفى الخوف عليهم ، فقد حصل لهم المحبوب ، واندفع عنهم المكروه .

☆ ذكر الله أربع مراتب للإحسان :

المرتبة العليا ، النفقة الصادرة عن نية صالحة ، ولم يتبعها المنفق منا ولا أذى

ثم يليها ، قول المعروف وهو : الإحسان القولى بجميع وجوهه ، الذى فيه سرور المسلم ، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئا ، وغير ذلك من أقوال المعروف .

والثالثة : الإحسان بالعفو والمغفرة ، عمن أساء إليك ، بقول أو فعل .

وهذان أفضل من الرابعة ، وخير منها ، وهى التى يتبعها المتصدق الأذى للمعطى ، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً .

فالخير المحض — وإن كان مفضولا — خير من الخير الذى يخالطه شر ، وإن كان فاضلا ، وفى هذا ، التحذير العظيم لمن يؤذى من تصدق عليه ، كما يفعله أهل اللؤم والحمق والجهل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

[والله] تعالى [غنى] عن صدقاتهم ، وعن جميع عباده .

[حليم] مع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، يحلم عن العاصين ، ولا يعاجلهم بالعقوبة .

بل يعافيهم ، ويرزقهم ، ويدر عليهم خيره ، وهم مبارزون له بالمعاصى.

* ثم نهى أشد النهى ، عن المن و**الأذى** ، وضرب لذلك مثلا فقال :

[يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . الآية]

ضرب الله فى هذه الآيات ، ثلاثة أمثلة :

للمنفق ابتغاء وجهه ، ولم يتبع نفقته منا ولا أذى .

ولمن أتبعها منا وأذى ، وللمرائى .

فأما الأول ، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة ، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام [ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم] أى : ينفقون ، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل[1] هذا العمل [كمثل جنة بربوة] وهو المكان المرتفع ، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير ، حصل طل كاف ، لطيب منبتها ،

---

(١) قوله : فمثل الخ) جواب (لما) فى قوله (فأما الأول الخ) .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن

وحسن أرضها ، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا [آتت أكلها ضعفين] أى متضاعفاً .

وهذه الجنة التى على هذا الوصف ، هى أعلى ما يطلبه الناس ، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل .

وأما من أنفق لله ، ثم أتبع نفقته منا وأذى ، أو عمل عملا ، فأتى بمبطل لذلك العمل ، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة ، لكن سلط عليها [إعصار] وهو الريح الشديدة [فيه نار فاحترقت] وله ذرية ضعفاء ، وهو ضعيف قد أصابه الكبر .

فهذه الحال من أفظع الأحوال ، ولهذا صدر هذا المثل بقوله : [أيود أحدكم] إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته . فان تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى. ثم حصول هذه الفاجعة — وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل ، وله ذرية ضعفاء ، لا مساعدة منهم له ، ومؤنتهم عليه — فاجعة أخرى ، فصار صاحب هذا المثل ، الذى عمل لله ، ثم أبطل عمله بمناف له ، يشبه حال صاحب الجنة ، التى جرى عليها ما جرى ، حين اشتدت ضرورته إليها .

المثل الثالث : الذى يرائى الناس ، وليس معه إيمان بالله ، ولا احتساب

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

لثوابه ، حيث شبه قلبه بالصفوان ، وهو : الحجر الأملس · عليه تراب يظن الرائى ، أنه إذا أصابه المطار ، أنبت كما تنبت الأراضى الطيبة .

ولكنه كالحجر ، الذى أصابه الوابل الشديد ، فأذهب ماعليه من التراب ، وتركه صلدا .

وهذا مثل مطابق لقلب المرائى ، الذى ليس فيه إيمان ، بل هو قاس لايلين ولايخشع .

فهذا ، أعماله ونفقاته ، لا أصل لها ، تؤسس عليه ، ولا غاية لها ، تنتهى إليه ، بل ما عمله ، فهو باطل ، لعدم شرطه .

والذى قبله بطل بعد وجود الشرط ، لوجود المانع .

والأول ، مقبول مضاعف ، لوجود شرطه الذى هو الإيمان والإخلاص والثبات ، وانتفاء الموانع المفسدة .

وهذه الأمثال الثلاثة ، تنطبق على جميع العاملين .

فليزن العبد نفسه وغيره ، بهذه الموازين العادلة ، والأمثال المطابقة .

[وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ

يحث البارى عباده ، على الإنفاق مما كسبوا ، فى التجارات ، ومما أخرج لهم من الأرض ، من الحبوب والثمار .

وهذا يشمل زكاة النقدين ، والعروض كلها ، المعدة للبيع والشراء ، والخارج من الأرض ، من الحبوب والثمار .

ويدخل فى عمومها ، الفرض والنفل .

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ، ولا يقصدوا الخبيث ، وهو الردىء الدون ، يجعلونه لله .

ولو بذله لهم من لهم حق عليه ، لم يرتضوه ، ولم يقبلوه ، إلا على وجه المغاضاة والإغماض .

فالواجب ، إخراج الوسط من هذه الأشياء ، والكمال : إخراج العالى ، والممنوع إخراج الردىء فإن هذا لا يجزئ عن الواجب ، ولا يحصل فيه الثواب التام فى المندوب .

[واعلموا أن الله غنى حميد] فهو غنى عن جميع المخلوقين ، وهو الغنى عن نفقات المنفقين ، وعن طاعات الطائعين .

وإنما أمرهم بها ، وحثهم عليها ، لنفعهم ، ومحض فضله وكرمه عليهم .

ومع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام ، الموصلة لهم إلى دار السلام .

حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ...

وحميد فى أفعاله ، التى لاتخرج عن الفضل ، والعدل والحكمة .

وحميد الأوصاف ، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات ، لايبلغ العباد كنهها ، ولايدركون وصفها .

فلما حثهم على الإنفاق النافع ، ونهاهم عن الإمساك الضار ، بين لهم أنهم بين داعيين : داعى الرحمن ، يدعوهم إلى الخير ، ويعدهم عليه الخير ، والفضل والثواب العاجل والآجل ، وإخلاف ما أنفقوا .

وداعى الشيطان ، الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم ، إن أنفقوا أن يفتقروا .

فمن كان مجيباً لداعى الرحمن ، وأنفق مما رزقه الله ، فليبشر بمغفرة الذنوب ، وحصول كل مطلوب .

ومن كان مجيباً لداعى الشيطان ، فإنه إنما يدعو حزبه ، ليكونوا من أصحاب السعير .

فليختر العبد أى الأمرين أليق به .

وختم الآية بأنه [واسع عليم] أى واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات .

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال ، وأن الله أعطاهم ، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية ، وينالون بها المقامات السنية ، ذكر ما هو أفضل من ذلك ، وهو أنه يعطى الحكمة من يشاء من عباده ، ومن أراد بهم خيراً من خلقه .

والحكمة هي : العلوم النافعة ، والمعارف الصائبة ، والعقول المسددة ، والألباب الرزينة ، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال .

وهذا أفضل العطايا ، وأجل الهبات ، ولهذا قال :

[ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً] لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى ، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال ، إلى إصابة الصواب فيها ، وحصول السداد ، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم ، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع ، في دينهم ودنياهم .

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة ، التي هي : وضع الأشياء في مواضعها . وتنزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام .

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم ، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم .

[إلا أولو الألباب] وهم : أهل العقول الوافية ، والأحلام الكاملة ، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه ، والضار فيتركونه .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ

وهذان الأمران ، وهما بذل النفقات المالية ، وبذل ، الحكمة العلمية، أفضل ماتقرب به المتقربون إلى الله ، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات .

وهما اللذان ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس » .

* يخبر تعالى ، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون ، أو نذر الناذرون ، فإن الله يعلم ذلك .

ومضمون الإخبار بعلمه ، يدل على الجزاء ، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة .

ويعلم ما صدرت عنه ، من نيات صالحة ، أو سيئة .

وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم ، أو يقتحمون ما حرم عليهم ، ليس من دونهم أنصار ، ينصرونهم ويمنعونهم . وأنه لابد أن تقع بهم العقوبات .

وأخبر أن الصدقة ، إن أبداها المتصدق ، فهى خير ، وإن أخفاها ، وسلمها للفقير ، كان أفضل .

لأن الإخفاء على الفقير ، إحسان آخر .

وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

وأيضاً ، فإنه يدل على قوة الإخلاص . وأحد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « من تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وفى قوله : [وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم] فائدة لطيفة . وهو أن إخفاءها خير من إظهارها ، إذا أعطيت الفقير .

فأما إذا صرفت فى مشروع خيرى ، لم يكن فى الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها ، بل هنا قواعد الشرع ، تدل على مراعاة المصلحة .

فربما كان الإظهار خيراً ، لحصول الأسوة والاقتداء ، وتنشيط النفوس على أعمال الخير .

وقوله : [ويكفر عنكم من سيئاتكم] فى هذا : أن الصدقات يجتمع فيها الأمران .

حصول الخير ، وهو : كثرة الحسنات والثواب والأجر .

ودفع الشر والبلاء الدنيوى والأخروى ، بتكفير السيئات .

[والله بما تعملون خبير] فيجازي كلا بعمله ، بحسب حكمته .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم

أى : إنما عليك — أيها الرسول — البلاغ ، وحث الناس على الخير ، وزجرهم عن الشر ، وأما الهداية ، فبيد الله تعالى :

ويخبر عن المؤمنين حقاً ، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم ، واحتساب ثوابه ، لأن إيمانهم ، يدعوهم إلى ذلك .

فهذا خير وتزكية للمؤمنين ، ويتضمن التذكير لهم ، بالإخلاص .

وكرر علمه ـ تعالى ـ بنفقاتهم ، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده ، مثقال ذرة « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

☆ يعنى أنه ينبغى أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء ، الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله ، وعلى طاعته ، وليس لهم إرادة فى الاكتساب ، أو ليس لهم قدرة عليه ، وهم يتعففون .

إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء [لا يسألون الناس إلحافاً] .

فهم لا يسألون بالكلية ، وإن سألوا اضطراراً ، لم يلحفوا فى السؤال .

فهذا الصنف من الفقراء ، أفضل ما وضعت فيهم النفقات ، لدفع

بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

حاجتهم ، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير ، وشكراً لهم على ما اتصفوا به ، من الصبر ، والنظر إلى الخالق ، لا إلى الخلق .

ومع ذلك ، فالإنفاق فى طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا ، فإنه خير وأجر ، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى :

[الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية] الآية .

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات .

وقوله : [فلهم أجرهم عند ربهم] أى كل أحد منهم بحسب حاله .

وتخصيص ذلك ، بأنه عند ربهم ، يدل على شرف هـــذه الحال ، ووقوعها فى الموقع الأكبر ، كما فى الحديث الصحيح .

« إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى تـكون مثل الجبل العظيم » .

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ

لما ذكر الله حالة المنفقين ومالهم من الله ، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات ، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة ، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم .

فكما كانوا فى الدنيا فى طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين ، عوقبوا فى البرزخ والقيامة ، بأنهم لا يقومون من قبورهم ، أو يوم بعثهم ونشورهم [إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس] أى : من الجنون والصرع .

وذلك عقوبة ، وخزى وفضيحة لهم ، وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم [إنما البيع مثل الربا] .

فجمعوا — بجراءتهم — بين ما أحل الله ، وبين ما حرم الله ، واستباحوا بذلك ، الربا .

ثم عرض تعالى ، العقوبة على المرابين وغيرهم فقال :

[فمن جاءه موعظة من ربه] بيان مقرون به الوعد والوعيد .

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ

[فانتهى] عما كان يتعاطاه من الربا [فله ما سلف] مما تجرأ عليه وتاب منه .

[وأمره إلى الله] فيما يستقبل من زمانه .

فإن استمر على توبته ، فالله لا يضيع أجر المحسنين .

[ومن عاد] بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا [فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] فى هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها ، وذلك لشناعته ، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان .

وهذا من جملة الأحكام ، التى تتوقف على وجود شروطها ، وانتفاء موانعها .

وليس فيها حجة للخوارج ، كغيرها من آيات الوعيد .

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة .

فيؤمن العبد ، بما تواترت به النصوص ، من خروج من فى قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان ، من النار .

رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار ، إن لم يتب منها .

ثم أخبر تعالى ، أنه يمحق مكاسب المرابين ، ويربى صدقات المنفقين ، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق ، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده ، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته ، من الله تعالى .

وما عندالله ، لا ينال إلا بطاعته ، وامتثال أمره .

فالمتجرىء على الربا ، يعاقبه بنقيض مقصوده ، وهذا مشاهد بالتجربة و« من أصدق من الله قيلا » .

[والله لا يحب كل كفار أثيم] وهو الذى كفر نعمة الله ، وجحد منة ربه ، وأثم بإصراره على معاصيه .

ومفهوم الآية ، أن الله يحب من كان شكورا على النعماء ، تائباً من المآثم والذنوب .

ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا ، وهى قوله :

[إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة] الآية ، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ماحرم الله من المكاسب الربوية ، تكميل الإيمان وحقوقه .

. . . .

خصوصاً ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ، ينافى تعاطى الربا ، الذى هو ظلم لهم ، وإساءة عليهم .

ثم وجه الخطاب للمؤمنين ، وأمرهم أن يتقوه . ويذروا ما بقى من معاملات الربا ، التى كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأبهم إن لم يفعلوا ذلك ، فإنهم محاربون لله ورسوله .

وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا ، حيث جعل المصر عليه ، محارباً لله ورسوله .

ثم قال [وإن تبتم] يعنى من المعاملات الربوية .

[فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون] الناس بأخذ الربا [ولا تظلمون] ببخسكم رءوس أموالكم .

فكل من تاب من الربا ، فإن كانت معاملات سالفة ، فله ما سلف ، وأمره منظور فيه .

وإن كانت معاملات موجودة ، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله. فإن أخذ زيادة ، فقد تجرأ على الربا .

وفى هذه الآية ، بيان الحكمة تحريم الربا ، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين ، بأخذ الزيادة ، وتضاعف الربا عليهم ، وهو واجب إنظارهم[١] .

---

(١) قوله [وهو واجب إنظارهم] الصواب أن يقال : وإن المستدينين يجب إنظارهم إلى وقت الميسرة .

. . . .

ولهذا قال :[وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة] .

أى : وإن كان الذى عليه الدين معسرا ، لا يقدر على الوفاء ، وجب على غريمه ، أن ينظره إلى ميسرة .

وهو[١] يجب عليه إذا حصل له وفاء بأى طريق مباح ، أن يوفى ما عليه .

وإن تصدق عليه غريمه — بإسقاط الدين كله أو بعضه — فهو خير له ، ويهون على العبد ، التزام الأمور الشرعية ، واجتناب المعاملات الربوية ، والإحسان إلى المعسرين ، علمه[٢] بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله ، ويوفيه عمله ، ولا يظلمه مثقال ذرة . كما ختم هذه الآية بقوله :

[واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون] .

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين] الآية .

---

(١) قوله (وهو يجب الخ) فى العبارة اضطراب ، والأوضح أن يقال : والمدين (أى الذى عليه الدين) يجب عليه الوفاء متى حصل على مال من طريق مباح ، وتحرم عليه المماطلة ، فإن مطل الغنى (أى : الذى يقدر على الوفاء) ظلم يحل عرضه وعقوبته ، كما ورد فى الحديث .

(٢) قوله « علمه » فاعل لقوله المتقدم « ويهون الخ » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ

احتوت هذه الآيات ، على إرشاد البارى عباده فى معاملاتهم ، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التى لا تقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها ، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها : جواز المعاملات فى الديون ، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلا ثمنه ، فكله جائز ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، وما أخبر به عن المؤمنين ، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها : وجوب تسمية الأجل فى جميع المداينات وحلول الإجارات .

ومنها : أنه إذا كان الأجل مجهولا ، فإنه لا يحل ، لأنه غرر وخطر ، فيدخل فى الميسر .

ومنها : أمره تعالى ، بكتابة الديون .

وهذا الأمر قد يجب ، إذا وجب حفظ الحق ، كالذى للعبد عليه ولاية ، وكأموال اليتامى ، والأوقاف ، والوكلاء ، والأمناء .

وقد يقارب الوجوب ، كما إذا كان الحق متمحضا للعبد ، فقد يقوى الاستحباب ، بحسب الأحوال المقتضية لذلك .

وعلى كل حال ، فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة ، لكثرة النسيان ، ولوقوع المغالطات ، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ
سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ
وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ

ومنها : أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل ، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها ، ولا على أحدهما ، لعداوة ونحوها .

ومنها : أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ، ومن الإحسان إليهما .

وفيها حفظ حقوقهما ، وبراءة ذممها ، كما أمره الله بذلك .

فليحتسب الكاتب بين الناس ، هذه الأمور ، ليحظى بثوابها .

ومنها : أن الكاتب لابد أن يكون عارفا بالعدل ، معروفاً بالعدل .

لأنه إذا لم يكن عارفا بالعدل ، لم يتمكن منه .

وإذا لم يكن معتبراً عدلا عند الناس رضياً ، لم تكن كتابته معتبرة ، ولا حاصلا بها المقصود ، الذى هو حفظ الحقوق .

ومنها : أن من تمام الكتابة والعدل فيها ، أن يحسن الكاتب الإنشاء ، والألفاظ المعتبرة ، فى كل معاملة بحسبها .

وللعرف فى هذا المقام ، اعتبار عظيم .

ومنها : أن الكتابة من نعم الله على العباد ، التى لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها ، وأن من علمه الله الكتابة ، فقد تفضل عليه بفضل عظيم .

وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ

فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى ، أن يقضى بكتابته حاجات العباد ، ولا يمتنع من الكتابة ولهذا قال : [ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله].

ومنها : أن الذى يكتبه الكاتب ، هو اعتراف من عليه الحق ، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذى عليه .

فإن كان لا يحسن ذلك ـ لصغره ، أو سفهه ، أو جنونه ، أو خرسه ، أو عدم استطاعته ـ أملى عنه وليه ، وقام وليه فى ذلك مقامه .

ومنها : أن الاعتراف من أعظم الطرق ، التى تثبت بها الحقوق ، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ، ما أملى عليه من عليه الحق .

ومنها : ثبوت الولاية على القاصرين ، من الصغار ، والمجانين ، والسفهاء ونحوهم .

ومنها : أن الولى يقوم مقام موليه ، فى جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه .

ومنها : أن من أمنته فى معاملة ؛ وفوضته فيها ؛ فقوله فى ذلك مقبول .

وهو نائب منابك ؛ لأنه إذا كان الولى على القاصرين ؛ ينوب منابهم.

فالذى وليته باختيارك ؛ وفوضت إليه الأمر ، أولى بالقبول ، واعتبار قوله وتقديمه على قولك ؛ عند الاختلاف .

ومنها : أنه يجب على الذى عليه الحق — إذا أملى على الكاتب —

لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ

أن يتقى الله ؛ ولا يبخس الحق الذي عليه ؛ فلا ينتقصه فى قدره ؛ ولا فى وصفه ، ولا فى شرط من شروطه ؛ أو قيد من قيوده .

بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق ؛ كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له .

فمن لم يفعل ذلك ؛ فهو من المطففين الباخسين .

ومنها : وجوب الاعتراف بالحقوق الخفية ؛ وأن ذلك من أعظم خصال التقوى ؛ كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها .

ومنها : الإرشاد إلى الإشهاد فى البيع .

فإن كانت فى المداينات ؛ فحكمها حكم الكتابة كما تقدم ؛ لأن الكتابة هى كتابة الشهادة .

وإن كان البيع بيعاً حاضراً ؛ فينبغى الإشهاد فيه .

ولا حرج فيه بترك الكتابة ؛ لكثرته وحصول المشقة فيه .

ومنها : الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين .

فإن لم يمكن ، أو تعذر ، أو تعسر ، فرجل وامرأتان .

وذلك شامل لجميع المعاملات ، بيوع الإدارة ، وبيوع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها .

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ

وإذا قيل : قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالشاهد الواحد مع اليمين ، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين .

قيل : الآية الكريمة ، فيها إرشاد البارى عباده إلى حفظ حقوقهم .

ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق ، وأقواها .

وليس فيها ، ما ينافى ماذكره النبى صلى الله عليه وسلم من الحكم بالشاهد واليمين .

فباب حفظ الحقوق فى ابتداء الأمر ، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام .

وباب الحكم بين المتنازعين ، ينظر فيه إلى المرجحات والبينات ، بحسب حالها .

ومنها : أن شهادة المرأتين ، قائمة مقام الرجل الواحد ، فى الحقوق الدنيوية .

وأما فى الأمور الدينية — كالرواية والفتوى — فإن المرأة فيه ، تقوم مقام الرجل ، والفرق ظاهر بين البابين .

ومنها : الإرشاد إلى الحكمة فى كون شهادة للمرأتين عن[1] شهادة

---

(١) قوله (عن شهادة الخ) هكذا فى الأصل وفى العبارة غموض كما ترى . والصواب أن يقال (ومنها : الإرشاد إلى حكمة جعل الشارع شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل وذلك لضعف ذاكرة المرأة غالباً الخ) .

ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

الرجل ، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً ، وقوة حافظة الرجل .

ومنها : أن الشاهد لو نسى شهادته ، فذكره الشاهد الآخر ، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان ، إذا زال بالتذكير لقوله : [أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى] ومن باب أولى ، إذا نسى الشاهد ، ثم ذكر من دون تذكير ، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين .

ومنها : أن الشهادة لابد أن تكون عن علم ويقين ، لا عن شك .

فمتى صار عند الشاهد ، ريب فى شهادته ـ ولو غلب على ظنه ـ لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم .

ومنها : أن الشاهد ليس له أن يمتنع ، إذا دعى للشهادة ، سواء دعى للتحمل أو للأداء .

وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة ، كما أمر الله بها ، وأخبر عن نفعها ومصالحها .

ومنها: أنه لايحل الإضرار بالكاتب ، ولابالشهيد ، بأن يدعيا فى وقت أو حالة ، تضرهما .

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين ، وأن يضاروا الشهود والكتاب ، فإنه أيضاً ، نهى للكاتب والشهيد ، أن يضار المتعاملين أو أحدهما .

وفى هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب — إذا حصل عليهما ضرر فى الكتابة والشهادة — أنه يسقط عنهما الوجوب .

. . . .

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف ، لا يحل إضرارهم ، وتحميلهم مالا يطيقون ، فـ « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » .

وكذلك على من أحسن وفعل معروفا ، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولى والفعلى ، بمن أوقع به المعروف ، فإن الإحسان ، لا يتم إلا بذلك .

ومنها : أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة ، حيث وجبت ، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد ، ولأنه من مضارة المتعاملين .

ومنها : التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة ، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل ، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال : [ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا] وهذه مصالح ضرورية للعباد .

ومنها : أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية ، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان .

ومنها : أن من خصه الله بنعمة من النعم ، يحتاج الناس إليها .

فمن تمام شكر هذه النعمة ، أن يعود بها على عباد الله ، وأن يقضى بها حاجتهم ، لتعليل الله النهى عن الامتناع عن الكتابة ، بتذكير الكاتب بقوله [كما علمه الله] .

ومع هذا « فمن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته » .

ومنها : أن الإضرار بالشهود والكتاب ، فسوق بالإنسان .

. . . .

فإن الفسوق هو : الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، وهو يزيد وينقص ، ويتبعض .

ولهذا لم يقل « فأنتم فساق» أو «فاسقون» بل قال [فإنه فسوق بكم] .

فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه ، فإنه يحصل به من الفسوق ، بحسب ذلك .

واستدل بقوله تعالى [واتقوا الله ويعلمكم الله] أن تقوى الله ، وسيلة إلى حصول العلم .

وأوضح من هذا قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] أى : علماً تفرقون به بين الحقائق ، والحق والباطل .

ومنها : أنه كما أنه من العلم النافع ، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات ، فمنه أيضاً ، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فإن الله تعالى ، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم ، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء .

ومنها : مشروعية الوثيقة بالحقوق ، وهى الرهون والضمانات ، التى تكفل للعبد حصوله على حقه ، سواء عامل براً أو فاجراً ، أميناً خائناً .

فكم فى الوثائق ، من حفظ حقوق ، وانقطاع منازعات .

ومنها : أن تمام الوثيقة فى الرهن ، أن يكون مقبوضاً .

ولا يدل ذلك ، على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض ، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً ، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً ، تحصل به الثقة التامة ، وقد لا يكون مقبوضاً ، فيكون ناقصاً .

. . . .

ومنها : أنه يستدل بقوله [فرهان مقبوضة] أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن فى مقدار الدين الذى به الرهن ، أن القول قول المرتهن ، صاحب الحق ، لأن الله جعل الرهن وثيقة به .

فلولا أنه يقبل قوله فى ذلك ، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود .

ومنها : أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، ولا شهود ، لقوله [فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى ائتمن أمانته] ولكن فى هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله ، وإلا فصاحب الحق مخاطر فى حقه ولهذا أمر الله فى هذه الحال ، من عليه الحق ، أن يتقى الله ويؤدى أمانته .

ومنها : أن من ائتمنه معامله فقد عمل معه معروفاً عظيما ، ورضى بدينه وأمانته .

فيتأكد على من عليه الحق ، أداء الأمانة من الجهتين :

أداء لحق الله ، وامتثالا لأمره ، ووفاء بحق صاحبه ، الذى رضى بأمانته ، ووثق به .

ومنها : تحريم كتم الشهادة ، وأن كاتمها قد أثم قلبه ، الذى هو ملك الأعضاء .

وذلك لأن كتمها ، كالشهادة بالباطل والزور ، فيها ضياع الحقوق ، وفساد المعاملات ، والإثم المتكرر فى حقه ، وحق من عليه الحق .

وأما تقييد الرهن بالسفر ـ مع أنه يجوز حضراً وسفراً ـ فللحاجة إليه ، لعدم الكاتب والشهيد .

وختم الآية بأنه « عليم » بكل ما يعمله العباد ، كالترغيب [١] لهم فى المعاملات الحسنة ، والترهيب من المعاملات السيئة .

---

(١) الصواب « للترغيب » لأن المقام مقام تعليل .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾

يخبر تعالى ،بعموم ملكه لأهل السماء والأرض ، وإحاطة علمه بما أبداه العباد ، وما أخفوه فى أنفسهم ، وأنه سيحاسبهم به ، فيغفر لمن يشاء ، وهو المنيب إلى ربه ، الأواب إليه [إنه كان للأوابين غفورا] .

ويعذب من يشاء ، وهو المصر على المعاصى ، فى باطنه وظاهره .

وهذه الآية ، لاتنافى الأحاديث الواردة فى العفو ، عما حدث به العبد نفسه ، ما لم يعمل أو يتكلم .

فتلك الخطرات هى التى تتحدث بها النفوس ، التى لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها .

وأما هنا فهى العزائم المصممة ، والأوصاف الثابتة فى النفوس ،أوصاف الخير ، وأوصاف الشر ، ولهذا قال [ما فى أنفسكم] أى : استقر فيها وثبت ، من العزائم والأوصاف .

وأخبر أنه [على كل شىء قدير] فمن تمام قدرته ، محاسبة الخلائق ، وإيصال ما يستحقونه ، من الثواب والعقاب .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن من قرأ هاتين الآيتين فى ليلته كفتاه أى : من جميع الشرور ، وذلك لما احتوتا عليه من المعانى الجليلة .

فإن الله أمر فى أول هذه السورة ، الناس بالإيمان ، بجميع أصوله فى قوله : [قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا] الآية .

وأخبر فى هذه الآية ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، آمنوا بهذه الأصول العظيمة ، وبجميع الرسل ، وجميع الكتب .

ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض ، وكفر ببعض ، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة .

وفى قرن المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد ، شرف عظيم للمؤمنين .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم مشارك للأمة فى الخطاب الشرعى له ، وقيامه التام به ، وأنه فاق المؤمنين بل فاق جميع المرسلين فى القيام بالإيمان وحقوقه .

وقوله [وقالوا سمعنا وأطعنا] هذا التزام من المؤمنين ، عام لجميع ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد .

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

ومضمون ذلك ، تضرعهم إلى الله فى طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات ، وما ارتكبوه من المحرمات ، وكذلك تضرعوا إلى الله فى هذه الأدعية النافعة .

والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فقال « قد فعلت » .

فهذه الدعوات ، مقبولة من مجموع المؤمنين قطعا ، ومن أفرادهم ، إذا لم يمنع من ذلك مانع فى الأفراد .

وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة ، فى الخطأ والنسيان ، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل .

ولم يحملهم من المشاق ، والآصار ، والأغلال ، ماحمله على من قبلهم ، ولم يحملهم فوق طاقتهم ، وقد غفر لهم ورحمهم ، ونصرهم على القوم الكافرين .

فنسأل الله تعالى ، بأسمائه وصفاته ، وبما من به علينا من التزام دينه ، أن يحقق لنا ذلك ، وأن ينجز لنا ماوعدنا على لسان نبيه ، وأن يصلح أحوال المؤمنين .

ويؤخذ من هنا ، قاعدة التيسير ، ونفى الحرج فى أمور الدين كلها .

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ ، فى العبادات ، وفى حقوق الله تعالى .

وكذلك فى حقوق الخلق من جهة رفع المأثم ، وتوجه الذم .

وأما وجوب ضمان المتلفات ، خطأ أو نسيانا ، فى النفوس والأموال ، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق ، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان ، والعمد .

تم تفسير سورة البقرة ، ولله الحمد والثناء . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

تفســـــير

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ

[الٓمٓ] من الحروف التى لا يعلم معناها إلا الله .

فأخبر تعالى أنه [الحى] كامل الحياة [القيوم] القائم بنفسه ، المقيم لأحوال خلقه .

وقد أقام أحوالهم الدينية ، وأحوالهم الدنيوية والقدرية .

فأنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب بالحق ،الذى لاريب فيه ، وهو مشتمل على الحق [مصدقاً لما بين يديه] من الكتب .

أى : شهد بما شهدت به ، ووافقها ، وصدق من جاء بهامن المرسلين .

وكذلك [أنزل التوراة والإنجيل من قبل] هذا الكتاب [هدى للناس] .

وأكمل الرسالة ، وختمها بمحمد صلى الله عليه وسلم] وكتابه العظيم

كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

الذى هدى الله به الخلق ، من الضلالات ، واستنقذهم به من الجهالات ، وفرق به بين الحق والباطل ، والسعادة والشقاوة ، والصراط المستقيم ، وطرق الجحيم .

فالذين آمنوا به واهتدوا ، حصل لهم به ، الخير الكثير ، والثواب العاجل والآجل .

و[أن الذين كفروا بآيات الله] التى بينها فى كتابه وعلى لسان رسوله [لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام] ممن عصاه .

ومن تمام قيوميته تعالى ، أن علمه محيط بالخلائق [لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء] حتى ما فى بطون الحوامل .

فهو [الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء] من ذكر وأنثى ، وكامل الخلق وناقصه ، متنقلين فى أطوار خلقته وبديع حكمته .

فمن هذا شأنه مع عباده ، واعتناؤه العظيم بأحوالهم ، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم ، لامشارك له فى ذلك — فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو .

[لا إله إلا هو العزيز] الذى قهر الخلائق بقوته ، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم [الحكيم] فى خلقه وشرعه .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ

يخبر تعالى ، عن عظمته ، وكمال قيوميته ، أنه هو الذى تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم ، الذى لم يوجد — ولن يوجد — له نظير أو مقارب فى هدايته ، وبلاغته ، وإعجازه ، وإصلاحه للخلق .

وأن هذا الكتاب يحتوى على المحكم الواضح المعانى البين ، الذى لا يشتبه بغيره .

ومنه آيات متشابهات ، تحتمل بعض المعانى ، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها ، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين فى قلوبهم مرض وزيغ ، وانحراف ، لسوء قصدهم — يتبعون المتشابه منه .

فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة ، وآرائهم الزائفة ، طلباً للفتنة ، وتحريفاً لكتابه ، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا .

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم ، فأثمر لهم العمل والمعارف ـــ فيعلمون أن القرآن كله من عند الله ، وأنه كله حق ، محكمه ومتشابهه ، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف .

فلعلمهم أن المحكمات ، معناها فى غاية الصراحة والبيان ، يردون إليها المشتبه ، الذى تحصل فيه الحيرة لناقص العلم ، وناقص المعرفة .

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ

فيردون المتشابه إلى المحكم ، فيعود كله محكما ، ويقولون :

[آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر] للأمور النافعة ، والعلوم الصائبة [إلا أولو الألباب] أى : أهل العقول الرزينة .

ففى هذا دليل على أن هذا ، من علامة أولى الألباب ، وأن اتباع المتشابه ، من أوصاف أهل الآراء السقيمة ، والعقول الواهية ، والقصود السيئة .

وقوله [وما يعلم تأويله إلا الله] إن أريد بالتأويل ، معرفة عاقبة الأمور ، وما تنتهى وتئول ، تعين الوقوف على « إلا الله » حيث هو تعالى ، المتفرد بالتأويل بهذا المعنى . .

وإن أريد بالتأويل : معنى التفسير ، ومعرفة معنى الكلام ، كان العطف أولى .

فيكون هذا مدحا للراسخين فى العلم ، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة ، محكمها ومتشابهها .

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين ، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا : [ربنا لا تزغ قلوبنا] أى لا تملها عن الحق إلى الباطل .

قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

[بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة] تصلح بها أحوالنا [إنك أنت الوهاب] أى كثير الفضل والهبات .

وهذه الآية ، تصلح مثالا للطريقة ، التى يتعين سلوكها فى المتشابهات . وذلك : أن الله تعالى ذكر عن الراسخين ، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم ، بعد إذ هداهم .

وقد أخبر فى آيات أخر عن الأسباب التى بها تزيغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم]، [ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم] .

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة].

فالعبد إذا تولى عن ربه ، ووالى عدوه ، ورأى الحق ، فصدف عنه ، ورأى الباطل ، فاختاره ـ ولاه الله ماتولى لنفسه ، وأزاغ قلبه ، عقوبة له على زيغه .

وما ظلمه الله ، ولـكنه ظلم نفسه ، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء . والله أعلم .

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

---

* هذا من تتمة كلام الراسخين فى العلم ، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء ، واليقين التام ، وأن الله ، لابد أن يوقع ما وعد به .

وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه ، من العمل والاستعداد لذلك اليوم .

فإن الإيمان بالبعث والجزاء ، أصل صلاح القلوب ، وأصل الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ، اللذين هما أساس الخيرات .

* لما ذكر يوم القيامة ، ذكر أن جميع من كفر بالله ، وكذب رسل الله ، لابد أن يدخلوا النار ويصلوها .

وأن أموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم شيئاً من عذاب الله .

وأنه سيجرى عليهم فى الدنيا من الأخذات والعقوبات ، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله [أخذهم الله بذنوبهم] وعجل لهم العقوبات الدنيوية ، متصلة بالعقوبات الأخروية .

[والله شديد العقاب] فإياكم أن تستهونوا بعقابه ، فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب .

﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

وهذا خبر وبشرى للمؤمنين ، وتخويف للكافرين ، أنهم لابد أن يغلبوا فى هذه الدنيا .

وقد وقع كما أخبر الله ، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير .

وجعل الله تعالى ، ما وقع فى «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله ، وأنه على الحق ، وأعداءه على الباطل ، حيث التقت فئتان .

فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، مع قلة عددهم .

وفئة الكافرين ، يناهزون الألف ، مع استعدادهم التام فى السلاح وغيره .

فأيد الله المؤمنين بنصره ، فهزموهم بإذن الله .

ففى هذا عبرة لأهل البصائر .

فلولا أن هذا هو الحق الذى إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان ـ بحسب الأسباب الحسية ـ الأمر بالعكس .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

أخبر تعالى ، فى هاتين الآيتين ، عن حالة الناس ، فى إيثار الدنيا على الآخرة ـ وبين التفاوت العظيم ، والفرق الجسيم بين الدارين .

فأخبر أن الناس ، زينت لهم هـذه الأمور ، فرمقوها بالأبصار ، واستحلوها بالقلوب ، وعكفت على لذاتها ، النفوس .

كل طائفة من الناس ، تميل إلى نوع من هذه الأنواع ، قد جعلوها هى ، أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، وهى ـ مع هذا ـ متاع قليل ، منقض فى مدة يسيرة .

فهذا [متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المـآب] .

* ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله ، القائمين بعبوديته ، لهم خير من هذه اللذات .

فلهم أصناف الخيرات ، والنعيم المقيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولهم رضوان الله ، الذى هو أكبر من كل شىء .

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

ولهم الأزواج المطهرة ، من كل آفة ونقص ، جميلات الأخلاق ، كاملات الخلائق ، لأن النفى يستلزم ضده ،

فتطهيرها عن الآفات ، مستلزم لوصفها بالكمالات .

[والله بصير بالعباد] فييسر كلا منهم لما خلق له .

أما أهل السعادة ، فييسرهم للعمل لتلك الدار الباقية ، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته .

وأما أهل الشقاوة والإعراض ، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة ، ويرضون بالحياة الدنيا ، ويطمئنون بها ، ويتخذونها قرارا .

* أى : هؤلاء الراسخون فى العلم ، أهل العلم والإيمان ، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم ، لمغفرة ذنوبهم ، ووقايتهم عذاب النار ، وهذا من الوسائل التى يحبها الله ، أن يتوسل العبد إلى ربه ، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة ، إلى تكميل نعم الله عليه ، بحصول الثواب الكامل ، واندفاع العقاب .

ثم وصفهم بأجمل الصفات : بالصبر الذى هو : حبس النفوس على ما يحبه الله ، طلبا لمرضاته .

يصبرون على طاعة الله ، ويصبرون عن معاصيه ، ويصبرون على أقداره المؤلمة .

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

وبالصدق بالأقوال والأحوال ، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم .

وبالقنوت الذى هو : دوام الطاعة ، مع مصاحبة الخشوع والخضوع .

وبالنفقات فى سبل الخيرات ، وعلى الفقراء ، وأهل الحاجات .

وبالاستغفار ، خصوصاً وقت الأسحار ، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر ، فجلسوا يستغفرون الله تعالى .

* هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ، ومن الملائكة، وأهل العلم ، على أجل مشهود عليه ، وهو توحيد الله ، وقيامه بالقسط .

وذلك يتضمن الشهادة ، على جميع الشرع ، وجميع أحكام الجزاء .

فإن الشرع والدين ، أصله وقاعدته ، توحيد الله وإفراده بالعبودية ، والاعتراف بانفراده ، بصفات العظمة والكبرياء ، والمجد ، والعز، والقدرة، والجلال ، ونعوت الجود ، والبر والرحمة ، والإحسان ، والجمال وبكماله المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق ، أن يحيطوا بشىء منه ، أو يبلغوه ، أو يصلوا إلى الثناء عليه ، والعبادات الشرعية ، والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهى، كله عدل وقسط ، لاظلم فيه ولا جور ، بوجه من الوجوه .

بل هو فى غاية الحكمة والإحكام .

والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة ، كله قسط وعدل .

[قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله] .

. . . .

فتوحيد الله ، ودينه وجزاؤه ، قد ثبت ثبوتاً لاريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد أقام الله على ذلك من البراهين ، والأدلة ، مالا يمكن إحصاؤه وعده .

وفى هذه الآية : فضيلة العلم والعلماء ، لأن الله خصهم بالذكر ، من دون البشر .

وقرن شهادتهم ، بشهادته وشهادة ملائكته .

وجعل شهادتهم ، من أكبر الأدلة والبراهين ، على توحيده ودينه وجزائه .

وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة .

وفى ضمن ذلك : تعديلهم ، وأن الخلق تبع لهم ، وأنهم ، هم الأئمة المتبوعون .

وفى هذا من الفضل والشرف ، وعلو المكانة ، ما لا يقادر قدره .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى [أن الدين عند الله] أى : الدين الذى لا دين له سواه ، ولا مقبول غيره ، هو [الإسلام] وهو : الانقياد لله وحده ، ظاهراً وباطناً ، بما شرعه على ألسنة رسله ، قال تعالى :

[ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين] .

فمن دان بغير دين الإسلام ، فهو لم يدن لله حقيقة ، لأنه لم يسلك الطريق الذى شرعه على ألسنة رسله .

ثم أخبر تعالى ، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وإنما اختلفوا ، فانحرفوا عنه ، عناداً وبغياً .

وإلا فقد جاءهم العلم المقتضى لعدم الاختلاف ، الموجب للزوم الدين الحقيقى .

ثم لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عرفوه حق المعرفة ، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله ، هى التى صدتهم عن اتباع الحق .

[ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب] أى : فلينتظروا ذلك فإنه آت ، وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون .

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

لما بين أن الدين الحقيقى عنده الإسلام ، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبى صلى الله عليه وسلم بالمجادلة ، وقامت عليهم الحجة ، فعاندوها ، أمره الله تعالى عند ذلك ، أن يقول ويعلن ، أنه أسلم وجهه أى : ظاهره وباطنه ، لله ، وأن من اتبعه كذلك ، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص .

وأن يقول للناس كلهم ، من أهل الكتاب ، والأميين أى : الذين ليس لهم كتاب ، من العرب وغيرهم .

إن أسلمتم ، فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق .

وإن توليتم ، فحسابكم على الله ، وأنا ليس علي إلا البلاغ ، وقد أبلغتكم ، وأقمت عليكم الحجة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم

أى الذين جمعوا بين هذه الشرور : الكفر بآيات الله وتكذيب رسل الله ، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق ، وهم الرسل وأئمة الهدى ، الذين يأمرون الناس بالقسط ، الذى اتفقت عليه الأديان والعقول :

فهؤلاء قد [حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة] واستحقوا العذاب الأليم ، وليس لهم ناصر من عذاب الله ، ولا منقذ من عقوبته .

* أى : ألا تنظر وتعجب من هؤلاء [الذين أوتوا نصيباً من الكتاب] و [يدعون إلى كتاب الله] الذى يصدق ما أنزله على رسله .

[ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون] عن اتباع الحق .

فكأنه قيل : أى داع دعاهم إلى هذا الإعراض ، وهم أحق بالاتباع ، وأعرفهم بحقيقة ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فذكر لذلك سببين :

أمنهم ، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة .

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة ، كأن تدبير الملك راجع إليهم ، حيث قالوا [لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى] .

ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة ، شرعا وعقلا .

والسبب الثانى : أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه ، زين لهم الشيطان سوء عملهم ، واغتروا بذلك ، وتراءى لهم أنه الحق ، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق ، فهؤلاء كيف يكون حالهم[1] ـ إذا جمعهم الله يوم القيامة ، ووفى العاملين ما عملوا ، وجرى عدل الله فى عباده ، فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب ، وما يفوتهم من الخير والثواب ، وذلك بما كسبت أيديهم « وما ربك بظلام للعبيد » .

---

(١) قوله (فهؤلاء يكون حالهم الخ) الاستفهام ـ هنا ـ للتهويل وحذف خبر (يكون) ليدل على شدة ما يكونون عليه من الندم ، الذى لا يبلغ الوصف مداه .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أصلا ، وغيره تبعاً ـ أن يقول عن ربه ، معلناً بتفرده بتصريف الأمور ، وتدبير العالم العلوى والسفلى ، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق ، والتصريف المحكم ، وأنه يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب ولا غيرهم ، بل الأمر أمر الله ، والتدبير له .

فليس له معارض فى تدبيره ، ولا معاون فى تقديره .

وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس ، فهو المتصرف بنفس الزمان .

وقوله [بيدك الخير] أى : الخير كله منك ، ولا يأتى بالحسنات والخيرات ، إلا الله .

وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى ، لا وصفاً ، ولا اسماً ، ولا فعلا .

ولكنه يدخل فى مفعولاته ، ويندرج فى قضائه وقدره .

فالخير والشر ، كله داخل فى القضاء والقدر ، فلا يقع فى ملكه إلا ماشاءه .

ولكن الشر لا يضاف إلى الله .

فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

فلا يقال « بيدك الخير والشر » ، بل يقال « بيدك الخير » كما قاله الله ، وقاله رسوله .

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال « وكذلك الشر بيد الله » فإنه وهم محض .

ملحظهم ، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ، ينافى قضاءه وقدره العام ، وجوابه ما فصلنا .

يولج النهار فى الليل ويولج الليل فى النهار ، أى : يدخل هذا على هذا ، ويحل هذا محل هذا ، ويزيد فى هذا ، ماينقص من هذا ، ليقيم بذلك مصالح خلقه .

ويخرج الحى من الميت ، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها ، والمؤمن من الكافر ، والميت من الحى .

كما يخرج الحبوب والنوى ، والزروع والأشجار ، والبيضة من الطائر .

فهو الذى يخرج المتضادات ، بعضها من بعض ، وقد انقادت له جميع العناصر .

وقوله [وترزق من تشاء بغير حساب] قد ذكر الله فى غير هذه الآية ، الأسباب التى ينال بها رزقه كقوله :

[ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب] .

[ومن يتوكل على الله فهو حسبه] .

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق ، إلا من الله ، ويسعوا فيه بالأسباب التى يسرها الله وأباحها .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذا نهى من الله ، وتحذير للمؤمنين ، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والله وليهم .

[ومن يفعل ذلك] التولى [فليس من الله فى شىء] أى : فهو برىء من الله ، والله برىء منه كقوله تعالى [ومن يتولهم منكم فإنه منهم] .

وقوله : [إلا أن تتقوا منهم تقاة] أى : إلا أن تخافوا على أنفسكم فى إبداء العداوة للكافرين ، فلكم — فى هذه الحال — الرخصة فى المسالمة والمهادنة ، لا فى التولى الذى هو محبة القلب ، الذى تتبعه النصرة .

[ويحذركم الله نفسه] أى : فخافوه واخشوه ، وقدموا خشيته على خشية الناس ، فإنه هو الذي يتولى شئون العباد ، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصيرون إليه .

فيجازى من قدم حقوقه ورجاءه ، على غيره ، بالثواب الجزيل .

ويعاقب الكافرين ، ومن تولاهم ، بالعذاب الوبيل .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يخبر تعالى بإحاطة علمه بما فى الصدور ، سواء أخفاه العباد ،أو أبدوه. كما أن علمه محيط بكل شىء ، فى السماء والأرض ، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه ، فهو العظيم القدير على كل شىء ، الذى لا يمتنع عن إرادته موجود .

ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه ، ما يوجب للعباد أن يراقبوه فى كل أحوالهم ، ذكر لهم أيضاً ، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه ، وهو : أنهم كلهم صائرون إليه ، وأعمالهم — حينئذ ، من خير وشر — محضرة.

فحينئذ يغتبط أهل الخير ، بما قدموه لأنفسهم ، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه ، وكادح فى هذه الحياة ، وأنه لا بد أن يلاق ربه ، ويلاق سعيه ، أوجب له أخذ الحذر ، والتوق من الأعمال التى توجب الفضيحة والعقوبة ، والاستعداد بالأعمال الصالحة ، التى توجب السعادة والمثوبة .

ولهذا قال تعالى [ويحذركم الله نفسه] وذلك بما يبدى لكم من أوصاف عظمته ، وكمال عدله وشدة نكاله ، ومع شدة عقابه ، فإنه رءوف رحيم .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومن رأفته ورحمته ، أنه خوف العباد ، وزجرهم عن الغى والفساد ، كما قال تعالى ـ لما ذكر العقوبات [ذلك يخوف الله به عباده ، ياعباد فاتقون]

فرأفته ورحمته ، سهلت لهم الطرق ، التى ينالون بها الخيرات .

ورأفته ورحمته ، حذرتهم من الطرق التى تفضى بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى ، أن يتمم علينا إحسانه،بسلوك الصراط المستقيم ، والسلامة من الطرق ، التى تفضى بسالكها ، إلى الجحيم .

* هذه الآية هى الميزان ، التى يعرف بها من أحب الله حقيقة،ومن ادعى ذلك دعوى مجردة .

فعلامة محبة الله ، اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل متابعته ، وجميع ما يدعو إليه ، طريقاً إلى محبته ورضوانه .

فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه ، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

فمن فعل ذلك ، أحبه الله ، وجازاه جزاء المحبين ، وغفر له ذنوبه ، وستر عليه عيوبه .

فكأنه قيل : ومع ذلك ، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها ؟

فأجاب بقوله . [قل أطيعوا الله والرسول] بامتثال الأمر ، واجتناب النهى وتصديق الخبر .

[فإن تولوا] عن ذلك ، فهذا هو الكفر والله [لا يحب الكافرين].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى

لله تعالى من عباده أصفياء ، يصطفيهم ويختارهم ، ويمن عليهم بالفضائل العالية ، والنعوت السامية ، والعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والخصائص المتنوعة .

فذكر هذه البيوت الكبار ، وما احتوت عليه من كملة الرجال ، الذين حازوا أوصاف الكمال ، وأن الفضل والخير ، تسلسل فى ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم .

وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه .

[والله سميع عليم] يعلم من يستحق الفضل والتفضيل ، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته .

فلما قرر عظمة هذه البيوت ، ذكر قصة مريم وابنها عيسى صلى الله عليه وسلم ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة ، وكيف تنقلت بهما الأحوال ، من ابتداء أمرهما إلى آخره ، وأن امرأة عمران قالت ـ متضرعة إلى ربها ، متقربة إليه بهذه القربة التى يحبها ، التى فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته :

[إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً] أى : خادماً لبيت العبادة ، المشحون بالمتعبدين .

وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ

[فتقبل منى] هذا العمل أى : اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مثمراً للخير والثواب .

[إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت ربى إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى]

كان فى هذا الكلام ، نوع تضرع منها ، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً ، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ، ما يحصل من أهل القوة ، والأنثى بخلاف ذلك .

فجبر الله قلبها ، وتقبل الله نذرها ، وصارت هذه الأنثى ، أكمل وأتم من كثير من الذكور ، بل من أكثرهم .

وحصل بها من المقاصد ، أعظم مما يحصل بالذكر ، ولهذا قال :

[فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا] أى : ربيت تربية عجيبة ، دينية ، أخلاقية ، أدبية كملت بها أحوالها ، وصلحت بها أقوالها وأفعالها ، ونما فيها كمالها ، ويسر الله لها زكريا كافلا .

وهذا من منة الله على العبد ، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .

لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا ، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب ، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ [كلما دخل عليها زكريا المحراب] وهو محل العبادة .

وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها [وجد عندها رزقاً] هنيئاً معداً .

قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عندالله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب] .

فلما رأى ذكريا هذه الحال ، والبر واللطف من الله بها ، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد ، على حين اليأس منه فقال :

[رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيي مصدقاً بكلمة من الله] اسمه أى : الكلمة التى من الله « عيسى بن مريم » :

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم ، تتضمن البشارة بـ « عيسى » ابن مريم ، والتصديق له ، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله ، كلمة شريفة ، اختص الله بها عيسى بن مريم .

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ

وإلا ، فهى من جملة كلماته التى أوجد بها المخلوقات ، كما قال تعالى :

[إن مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون]

وقوله [وسيداً وحصورا] .

أى : هذا المبشر به وهو يحيى ، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم :

« والحصور » قيل : هو الذى لا يولد له ، ولا شهوة له فى النساء ،

وقيل : هو الذى عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة .

وهذا أليق المعنيين :

[ونبياً من الصالحين] الذين بلغوا فى الصلاح ذروته العالية .

[قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟!] .

فهذان مانعان .

فمن أى طريق ـ يارب ـ يحصل لى ذلك ، مع ما ينافى ذلك ؟ ! .

[قال كذلك الله يفعل ما يشاء] فإنه ـ كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة ـ فإنه قد يخرق ذلك ، لأنه الفعال لما يريد ، الذى قد انقادت الأسباب لقدرته ، ونفذت فيها مشيئته وإرادته ، فلا يتعاصى على قدرته ، شىء من الأسباب ، ولو بلغت فى القوة ، ما بلغت .

وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

[قال رب اجعل لى آية] ليحصل السرور والاستبشار .

وإن كنت ـ يارب ـ متيقنا ما أخبرتنى به ، ولكن النفس تفرح ، ويطمئن القلب ، إلى مقدمات الرحمة واللطف .

[قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً] .

(و) فى هذه المدة [اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار] أول النهار وآخره .

فمنع من الكلام فى هذه المدة ، فكان فى هذا ، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير ، والمرأة العاقر .

وكونه لايقدر على مخاطبة الآدميين ، ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه ، آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار ، وشكر الله ، وأكثر من الذكر والتسبيح ، بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود ، من بركات مريم بنت عمران ، على زكريا .

فإن ما من الله به عليها ، من ذلك الرزق الهنى ، الذى يحصل بغير حساب ، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال .

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ

والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب ، ولكنه يقدر أمورا محبوبة على يد من يحبه ، ليرفع الله قدره ، ويعظم أجره .

ثم عاد تعالى ، إلى ذكر مريم وأنها بلغت فى العبادة والكمال ، مبلغاً عظيما فقال تعالى :

[وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك] أى اختارك ، ووهب لك من الصفات الجليلة ، والأخلاق الجميلة .

[وطهرك] من الأخلاق الرذيلة [واصطفاك على نساء العالمين] .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام .

فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك ، لتغتبط بنعم الله ، وتشكر الله ، وتقوم بحقوقه ، وتشتغل بخدمته ، ولهذا قالت الملائكة .

[يامريم اقنتي لربك] أى : أكثرى من الطاعة ، والخضوع والخشوع لربك ، وأديمى ذلك [واسجدي واركعى مع الراكعين] أى : صلى مع المصلين .

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ

فقامت بكل ما أمرت به ، وبرزت ، وفاقت فى كمالها .

ولما كانت هذه القصة وغيرها ، من أكبر الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أخبر بها مفصلة محققة ، لا زيادة فيها ولا نقص ، وما ذاك إلا لأنه وحى من الله العزيز الحكيم ، لا بتعلم من الناس — قال تعالى :

[ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم] حيث جاءت بها أمها ، فاختصموا أيهم يكفلها ، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم ، وكلهم يريد الخير والأجر من الله ؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها ، فألقوا أقلامهم مقترعين ، فأصابت القرعة زكريا ، رحمة من الله به وبها .

فأنت — يا أيها الرسول — لم تحضر تلك الحالة لتعرفها ، فتقصها على الناس ، وإنما الله نبأك بها .

وهذا هو المقصود الأعظم ، من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة .

وأعظم العبر ، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة ، والبعث ، وغيرها من الأصول الكبار .

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم

[وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين] .

أى : له الوجاهة ، والجاه العظيم فى الدنيا والآخرة عند الخلق .

ومع ذلك فهو ـ عند الله ـ من المقربين ، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله ، وأعلاهم درجة .

وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات .

ومن تمام هذه البشارة أنه [يكلم الناس فى المهد] فيكون تكليمه آية من آيات الله ، ورحمة منه بأمه وبالخلق ،

(و) كذلك يكلمهم [كهلا] أى فى حال كهولته .

وهذا تكليم النبوة والدعوة ، والإرشاد .

فكلامه فى المهد ، فيه آيات وبراهين ، على صدقه ، ونبوته ، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة .

وكلامه فى كهولته ، فيه نفعه العظيم للخلق ، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم ، فى وحيه ، وتبليغ دينه وشرعه .

. ومع ذلك فهو [من الصالحين] الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه ، وألسنتهم ، بالثناء عليه وذكره ، وجوارحهم بطاعته وخدمته .

بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّـكُمْ فَـاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّـكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْـكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ

[قالت رب أنى يـكون لى ولد ولم يمسسنى بشر] وهذا من الأمور المستغربة [قال كذلك الله يخلق ما يشاء] ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير ، وأنه لا ممانع لإرادته .

[إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الـكتاب] .

أى : جنس الـكتب السابقة ، والحـكم بين الناس ، ويعطيه النبوة .

(و) يجعله [رسولا إلى بنى إسرائيـل] ويؤيده بالآيات البينات ، والأدلة القاهرة حيث قال :

[إنى قد جئتكم بآية من ربكم] تدلـكم أنى رسول الله حقاً .

وذلك [أنى أخلق لـكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه] وهو ممسوح العينين ، الذى فقد بصره وعيناه [والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخـرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك] المذكور [لآية لـكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما لمـا بين يدى من التوراة] فأيده الله بجنسين من الآيات، والبراهين والخوارق المستغربة ، التى لا يمكن لغير الأنبياء ، الإتيان بها ، والرسالة والدعوة ، والدين الذى جاء به ، وأنه دين التوراة ، ودين الأنبياء السابقين ، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين .

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ

فإنه لو كان من الكاذبين ، لخالف ما جاءت به الرسل ، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم .

فعلم بذلك أنه رسول الله ، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه .

وأيضاً فقوله [ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم] أى : لأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال .

[فاتقوا الله وأطيعون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه] .

وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل ، عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعتهم .

وهذا هو الصراط المستقيم ، الذى من يسلكه ، أوصله إلى جنات النعيم .

فحينئذ اختلفت أحزاب بنى إسرائيل فى عيسى .

فمنهم من آمن به واتبعه .

ومنهم من كفر به وكذبه ، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود .

[فلما أحس عيسى منهم الكفر] والاتفاق على رد دعوته [قال] : نادباً لبنى إسرائيل على مؤازرته [من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون] . أى : الأنصار :

[نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون] وهذا من منة الله

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

عليهم ، وعلى عيسى ، حيث ألهم هؤلاء الحواريين ، الإيمان به ، والانقياد لطاعته ، والنصرة لرسوله .

[ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول] وهذا التزام تام للإيمان ، بكل ما أنزل الله ، ولطاعة رسوله .

[فاكتبنا مع الشاهدين] لك بالوحدانية ، ولنبيك بالرسالة ، ولدينك بالحق والصدق .

[ولما أحس عيسى منهم الكفر] وهم جمهور بنى إسرائيل ، فإنهم [مكروا] بعيسى [ومكر الله] بهم [والله خير الماكرين] .

فاتفقوا على قتله وصلبه ، وشبه لهم عيسى .

فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى [إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا] .

فرفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وصلبوا من قتلوه ، ظانين أنه عيسى ، وباءوا بالإثم العظيم .

وسينزل عيسى بن مريم ، فى آخر هذه الأمة حكما عدلا ، يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم ، وأنهم مغرورون مخدوعون .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وقوله [وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة] المراد بمن اتبعه : الطائفة التى آمنت به و نصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا هم أتباعه حقاً ، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم ، وأظهرهم بالدين الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم [وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض] الآية .

ولكن حكمة الله عادلة ، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين ، نصره الله النصر المبين .

وأن من ترك أمره ونهيه ، ونبذ شرعه ، وتجرأ على معاصيه ، أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء ، [والله عزيز حكيم] .

وقوله [ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون] .

ثم بين ما يفعله بهم فقال : [فأما الذين كفروا] الآيتين .

* وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف ، من جميع أهل الأديان السابقة .

ثم لما بعث سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، و نسخت رسالته ، الرسالات كلها ، ونسخ دينه ، جميع الأديان ، صار المتمسك بغير هذا الدين ، من الهالكين . وقوله تعالى [ذلك نتلوه عليك] الآية .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ

أى : هذا القرآن العظيم ، الذى فيه نبأ الأولين والآخرين ، والأنبياء والمرسلين ـ هو آيات الله البينات ، وهو الذى يذكر العباد كل مايحتاجونه، وهو الحكيم المحكم ، صادق الأخبار ، حسن الأحكام .

* لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق وأنه عبد أنعم الله عليه ، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية ، فقد كذب على الله ، وكذب جميع أنبيائه ، وكذب عيسى صلى الله عليه وسلم .

فإن الشبهة التى عرضت لمن اتخذه إلها ، شبهة باطلة .

فلو كان لها وجه صحيح ، لكان آدم أحق منه ، فإنه خلق من دون أم ولا أب .

ومع ذلك ، فاتفق البشر كلهم ، على أنه عبد من عباد الله .

فدعوى إلهية عيسى ، بكونه خلق من أم بلا أب ، دعوى من أبطل الدعاوى .

وهذا هو الحق الذى لاريب فيه ، أن عيسى ـ كما قال عن نفسه :

[ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم] .

تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وقد تصلبوا على باطلهم ، بعد ما أقام عليهم النبي صلى الله عليه وسلم البراهين ، بأن عيسى عبد الله ورسوله ، حيث زعموا إلهيته .

فوصلت به وبهم الحال ، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم .

فإنه قد اتضح لهم الحق ، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه .

فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه ، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ، ثم يدعون الله تعالى ، أن ينزل عقوبته ولعنته ، على الكاذبين . فتشاوروا ، هل يجيبونه إلى ذلك ؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه ، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً .

وأنهم - إن باهلوه - هلكوا ، هم وأولادهم وأهلوهم .

فصالحوه ، وبذلوا له الجزية ، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة .

فأجابهم صلى الله عليه وسلم ولم يحرجهم ، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق .

وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة ، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين .

* فإن أعرضوا عن الحق بعد ما تبين لهم ، ولم يرجعوا عن ضلالاتهم ، فهم المفسدون ، والله عليم بهم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولهذا قال تعالى [إن هذا لهو القصص الحق] أى : الذى لاريب فيه [وإن الله لهو العزيز] الذى قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات ، وأذعنت له سكان الأرض والسماوات .

ومع ذلك فهو [الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

* هذه الآية الكريمة ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب .

وكان يقرأ أحياناً فى الركعة الأولى من سنة الفجر [قولوا آمنا بالله] الآية .

ويقرأ بها فى الركعة الآخرة من سنة الصبح ، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد ، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون ، واحتوت على توحيد الإلهية ، المبنى على عبادة الله وحده ، لاشريك له ، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم فى طور البشرية ، لايستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية ، ولا من نعوت الإلهية .

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا ، فقد اهتدوا .

و [إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] كقوله تعالى [قل يا أيها الكافرون] إلى آخرها .

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

كانت الأديان كلها ، اليهود والنصارى ، والمشركون ، وكذلك المسلمون كلهم ، يدعون أنهم على ملة إبراهيم .

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به ، محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، وأتباع الخليل ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما اليهود والنصارى ، والمشركون ، فإبراهيم برىء منهم ، ومن ولايتهم ، لأن دينه ، الحنيفية السمحة ، التى فيها الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب ، وهذه خصيصة المسلمين .

وأما دعوى اليهود والنصارى ، أنهم على ملة إبراهيم ، فقد علم أن اليهودية والنصرانية ، التى هم يدعون أنهم عليها ، لم تؤسس إلا بعد الخليل .

فكيف يحاجون فى هذا الأمر ، الذى يعلم به كذبهم وافتراؤهم ؟!

﴿ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم ، فكيف يحاجون فى هذه الحالة ؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان ، يعلم فساد دعواهم .

وفى هذه الآية دليل على أنه لايحل للإنسان ان يقول أو يجادل فيما لا علم له به .

وقوله [والله ولى المؤمنين] فكلما قوى إيمان العبد، تولاه الله بلطفه ، ويسره لليسرى ، وجنبه العسرى .

* هذا من منة الله على هذه الأمة ، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب ، وأنهم ـ من حرصهم على إضلال المؤمنين ـ ينوعون المنكرات الخبيثة .

فقالت طائفة منهم [آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار] أى : أوله ، وارجعوا عن دينهم آخر النهار ، فإنهم — إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم — استرابوا بدينهم .

وقالوا : لولا أنهم رأوا فيه مالا يعجبهم ، ولايوافق الكتب السابقة ، لم يرجعوا .

ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

هذا مكرهم ، والله تعالى هو الذى يهدى من يشـــاء ، وهو الذى بيده الفضل ، يختص به من يشاء .

فخصكم — ياهذه الأمة — بما لم يخص به غيركم .

ولم يدر هؤلاء الماكرون ، أن دين الله حق ، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب ، لم يزدد صاحبه ـ على طول المدى ـ إلا إيمانا ويقينا .

ولم تزده الشبه ، إلا تمسكا بدينه ، وحمداً لله ، وثناء عليه حيث من به عليه .

وقولهم [أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم] .

يعنى : أن الذى حملهم على هذه الأعمال المنكرة ، الحسد والبغى ، وخشية الاحتجاج عليهم .

كما قال تعالى [ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق] الآية .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، أن منهم طائفة أمناء ، بحيث لو أمنته على قناطير من النقود ، وهى المال الكثير ، يؤده إليك ، ومنهم طائفة خونة ، يخونك فى أقل القليل .

ومع هذه الخيانة الشنيعة ، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون :

[ليس علينا فى الأميين سبيل] أى : ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم ، لأنهم لا حرمة لهم .

قال تعالى : [ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون] أن عليهم أشد الحرج .

فجمعوا بين الخيانة ، وبين احتقار العرب ، وبين الكذب على الله ، وهم يعلمون ذلك ، ليسوا كمن فعل ذلك جهلا وضلالا .

ثم قال تعالى : [بلى] أى ليس الأمر كما قالوا .

فإنه [من أوفى بعهده واتقى] أى : قام بحقوق الله وحقوق خلقه ، فإن هذا هو المتقى ، والله يحبه .

أى : ومن كان بخلاف ذلك ، فلم يف بعهده وعقوده ، التى بينه وبين الخلق ، ولا قام بتقوى الله ، فإن الله يمقته . وسيجازيه على ذلك أعظم النكال .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

أى : إن الذين يشترون الدنيا بالدين ، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة ، والعهود المنكوثة ، فهؤلاء [لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم] أى : قد حق عليهم سخط الله ، ووجب عليهم عقابه ، وحرموا ثوابه ، ومنعوا من التزكية ، وهى : التطهير .

بل يردون القيامة ، وهم متلوثون بالجرائم ، متدنسون بالذنوب العظائم .

* أى : وإن من أهل الكتاب فريقاً ، هم محرفون لكتاب الله .

[يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب] وهذا يشمل التحريف اللفظى ، والتحريف المعنوى ، .

ثم هم — مع هذا التحريف الشنيع — يوهمون أنه من الكتاب ، وهم كذبة فى ذلك ، ويصرحون بالكذب على الله ، وهم يعلمون حالهم ، وسوء مغبتهم .

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أى : يمتنع ويستحيل كل الاستحالة ، لبشر من الله عليه بالوحى والكتاب ، والنبوة ، وأعطاه الحكم الشرعى — أن يأمر الناس بعبادته ، وبعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابا ، لأن هذا هو الكفر ، فكيف ، وقد بعث بالإسلام المنافى للكفر من كل وجه ، فكيف يأمر بضده ؟!!

هذا من الممتنع ، لأن حاله وما هو عليه ، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص — تقتضى العبودية الكاملة ، والخضوع التام لله الواحد القهار .

وهذا جواب لوفد نجران ، حين تمادى بهم الغرور ، ووصلت بهم الحال والكبر ، أن قالوا : أتأمرنا — يا محمد — أن نعبدك ؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته .

فبين البارى ، انتفاء ما قالوا ، وأن كلامهم وكلام أمثالهم ، فى هذا ، ظاهر البطلان .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا إخبار منه تعالى ، أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم ، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم ، من الكتاب والحكمة ، المقتضى للقيام التام ، بحق الله وتوفيته .

أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم ، بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط ، والأصول التى اتفقت عليها الشرائع ، أنهم يؤمنون به وينصرونه .

فأقروا على ذلك ، واعترفوا ، والتزموا ، وأشهدهم ، وشهد عليهم ، وتوعد من خالف هذا الميثاق .

وهذا أمر عام بين الأنبياء ، أن جميعهم طريقهم واحد ، وأن دعوة كل واحد منهم ، قد اتفقوا وتعاقدوا عليها .

وعموم ذلك ، أنه أخذ على جميعهم الميثاق ، بالإيمان ، والنصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

فمن ادعى أنه من أتباعهم ، فهذا دينهم الذى أخذه الله عليهم ، وأقروا به واعترفوا .

فمن تولى عن اتباع محمد ، ممن يزعم أنه من أتباعهم ، فإنه فاسق خارج

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

عن طاعة الله ، مكذب للرسول الذى يزعم أنه من أتباعه ، مخالف لطريقه .

وفى هذا إقامة الحجة والبرهان ، على كل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتب والأديان .

وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم ، الذين يزعمون أنهم أتباعهم ، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ، صلى الله عليه وسلم .

* قد تقدم فى سورة البقرة أن هذه الأصول التى هى أصول الإيمان التى أمر الله بها هذه الأمة ، قد اتفقت عليها الكتب والرسل .

وأنها هى الغرض الموجه لكل أحد ، وأنها هى الدين والإسلام الحقيقى .

وأن من ابتغى غيرها ، فعمله مردود ، وليس له دين يعول عليه .

فمن زهد عنه ، ورغب عنه ، فأين يذهب ؟ .

إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران ؟ .

أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان ؟ .

أو إلى التعطيل لرب العالمين ؟ .

أو إلى الأديان الباطلة ، التى هى من وحى الشياطين ؟

﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

وهؤلاء كلهم – فى الآخرة – من الخاسرين .

* يعنى : أنه يبعد كل البعد ، أن يهدى الله قوماً عرفوا الإيمان ، ودخلوا فيه ، وشهدوا أن الرسول حق،ثم ارتدوا على أعقابهم ، ناكصين ناكثين .

لأنهم عرفوا الحق فرفضوه .

ولأن من هذه الحالة وصفه ، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له ، إذ عرف الحق فتركه ، والباطل فآثره ، فولاه الله ما تولى لنفسه .

فهؤلاء [عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين] خالدين فى اللعنة والعذاب .

[لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون] إذا جاءهم أمر الله لأن الله ، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءهم النذير .

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد ، التائبين من كفرهم وذنوبهم ، المصلحين لعيوبهم ، فإن الله يغفر لهم ما قدموه ، ويعفو عنهم ما أسلفوه .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

ولكن من كفر وأصر على كفره ، ولم يزدد إلا كفرا حتى مات على كفره .

فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى ، السالكون لطريق الشقاء .

وقد استحقوا بهذا ، العذاب الأليم ، فليس لهم ناصر من عذاب الله .

ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به ، لم ينفعهم شيئاً .

فعياذا بالله ، من الكفر وفروعه .

☆ يعنى : لن تنالوا وتدركوا البر ، الذى هو : اسم جامع للخيرات ، وهو الطريق الموصل إلى الجنة حتى تنفقوا مما تحبون ، من أطيب أموالكم وأزكاها .

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس ، من أكبر الأدلة على سماحة النفس ، واتصافها بمكارم الأخلاق ، ورحمتها ، ورقتها .

. . . .

ومن أول الدلائل على محبة الله ، وتقديم محبته على محبة الأموال ، التى جبلت النفوس على قوة التعلق بها .

فمن آثر محبة الله على محبة نفسه ، فقد بلغ الذروة العليا من الـكمال .

وكذلك من أنفق الطيبات ، وأحسن إلى عباد الله ، أحسن الله إليه ووفقه أعمالا وأخلاقا ، لاتحصل بدون هذه الحالة .

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه ، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، من طريق الأولى والأحرى .

ومع أن النفقة من الطيبات ، هى أكمل الحالات .

فمهما أنفق العبد ، من نفقة قليلة أو كثيرة ، من طيب أو غيره ، فإن الله به عليم .

وسيجزى كل منفق ، بحسب عمله ، سيجزيه فى الدنيا بالخلف العاجل ، وفى الآخرة بالنعيم الآجل .

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، أنهم زعموا أن النسخ باطل وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذى قبله .

فكذبهم الله بأمر يعرفونه ، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام ـ قبل نزول التوراة ـ كان حلالا لبنى إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل وهو : يعقوب عليه السلام ـ على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه .

ثم إن التوراة ، فيها من التحريمات التي نسخت ، ما كان حلالا قبل ذلك ، شيء كثير .

قل لهم ـ إن أنكروا ذلك — [فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين] بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم .

وهذا من أبلغ الحجج ، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره .

فإن انقاد للحق ، فهو الواجب .

وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان ، تبين كذبه وافتراؤه ، وظلمه وبطلان ما هو عليه ، وهو الواقع من اليهود .

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

أى : قل صدق الله فى كل ما قاله ، ومن أصدق من الله قيلا وحديثاً .

وقد بين فى هذه الآيات ، من الأدلة على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبراهين دعوته ، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب ، الذين كذبوا رسوله ، وردوا دعوته .

فقد صدق الله فى ذلك ، وأقنع عباده على ذلك ، ببراهين وحجج ، تتصدع لها الجبال ، وتخضع لها الرجال .

فتعين عند ذلك على الناس كلهم ، اتباع ملة إبراهيم ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وتصديق كل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله .

والإعراض[1] عن الأديان الباطلة المنحرفة .

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد ، متبرئا من الشرك وأهله .

---

(١) قوله (الإعراض) معطوف على قول المتقدم (اتباع) .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام ، وأنه أول البيوت التى وضعها الله فى الأرض لعبادته ، وإقامة ذكره ، وأن فيه من البركات ،وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين — شيء كثير ، وفضل غزير ، وأن فيه آيات بينات ، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل ، وتنقلاته فى الحج .

ومن بعده ، تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم .

وفيه الحرم الذى من دخله كان آمناً قدراً ، مؤمناً شرعاً وديناً .

فلما احتوى على هذه الأمور التى هذه مجملاتها ، وتكثر تفصيلاتها — أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلا ، وهو الذى يقدر على الوصول إليه بأى مركوب يناسبه ، وزاد يتزوده .

ولهذا أتى بهذا اللفظ الذى يمكن تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة ، والتى ستحدث .

وهذا من آيات القرآن ، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ، ولا يمكن الصلاح التام بدونها .

فمن أذعن لذلك وقام به ، فهو من المهتدين المؤمنين .

ومن كفر ، فلم يلتزم حج بيته ، فهو خارج عن الدين .

ومن كفر ، فإن الله غنى عن العالمين .

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ

---

* لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب — فمع أنهم قبل ذلك، يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم — وبخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم. والله تعالى، يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك، أتم الجزاء وأوفاه.

* لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم. حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن — ولله الحمد — أنتم — يا معشر المؤمنين — بعد ما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه، ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذى أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذى هو دينه — يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذى بنى على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

[ومن يعتصم بالله] أى : يتوكل عليه ، ويحتمى بحماه .

[فقد هدى إلى صراط مستقيم] وهـذا فيه الحث على الاعتصام به ، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية .

* [هذه الآيات ، فيها حث الله عباده المؤمنين ، أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة ، بأن يتقوه حق تقواه ، وأن يقوموا بطاعته ، وترك معصيته ، مخلصين له بذلك .

وأن يقيموا دينهم ، ويستمسكوا بحبله الذى أوصله إليهم ، وجعله السبب بينهم وبينه ، وهو دينه وكتابه ، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق.

وأن يستديموا ذلك إلى الممات .

وذكرهم ماهم عليه قبل هذه النعمة ، وهو : أنهم كانوا أعداء متفرقين.

فجمعهم بهذا الدين ، وألف بين قلوبهم ، وجعلهم إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فأنقذهم من الشقاء .

ونهج بهم طريق السعادة .

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

[كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون] إلى شكر الله والتمسك بحبله .

وأمرهم بتتميم هذه الحالة ، والسبب الأقوى الذى يتمكنون به من إقامة دينهم ، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية .

[يدعون إلى الخير] وهو الدين ، أصوله ، وفروعه ، وشرائعه .

[ويأمرون بالمعروف] وهو ماعرف حسنه شرعا وعقلا .

[وينهون عن المنكر] وهو ماعرف قبحه ، شرعا وعقلا .

[أولئك هم المفلحون] المدركون لكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

ويدخل فى هذه الطائفة ، أهل العلم والتعليم ، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس ، عموما وخصوصاً ، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات ، وإيتاء الزكاة ، والقيام بشرائع الدين ، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم ، أو على وجه الخصوص ، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة ، فإنه داخل فى هذه الآية الكريمة .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين ، الذين جاءهم الدين والبينـات ، الموجب لقيامهم به ، واجتماعهم ، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً .

ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال ، وإنمـا صدر عن علم وقصد سيء ، وبغي من بعضهم على بعض . ولهذا قال [وأولئك لهم عذاب عظيم] .

ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ، ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال :

[يوم تبيض وجوه وتسود وجوه] الآيتين .

يخبر تعالى ، بتفاوت الخلق يوم القيامة ، فى السعادة والشقاوة .

وأنه تبيض وجوه أهل السعادة ، الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

وأن الله تعالى ، يدخلهم الجنات ، ويفيض عليهم أنواع الـكرامات ، وهم فيها خالدون .

وتسود وجوه أهل الشـقاوة ، الذين كذبوا رسله ، وعصوا أمره ، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال لهم [أكفرتم بعد إيمانكم] فـكيف اخترتم الـكفر على الإيمان ؟! .

[فذوقوا العذاب بما كنتم تـكفرون] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يثنى تعالى ، على ما قصه على نبيه من آياته ، التى حصل بها الفرقان بين الحق والباطل ، وبين أولياء الله وأعدائه ، وما أعده لهؤلاء من الثواب ، وللآخرين من العقاب .

وأن ذلك مقتضى فضله وعدله ، وحكمته .

وأنه لم يظلم عباده ، ولم ينقصهم من أعمالهم ، أو يعذب أحداً بغير ذنبه ، أو يحمل عليه وزر غيره .

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال :

[ولله ما فى السموات ومافى الأرض وإلى الله ترجع الأمور] فيجازى المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم .

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ليبين لعباده أنه الحاكم المطلق ، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية ، والأحكام الجزائية .

فهو الحاكم بين عباده ، فى الدنيا والآخرة .

ومن سواه من المخلوقات ، محكوم عليها ليس لها من الأمر شىء .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب ، التي تميزوا بهذا وفاقوا بها سائر الأمم ، وأنهم خير الناس للناس ، نصحاً ، ومحبة للخير ، ودعوة ، وتعليما ، وإرشاداً ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، وجمعاً بين تكميل الخلق ، والسعى فى منافعهم ، بحسب الإمكان ، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله ، والقيام بحقوق الإيمان .

وأن أهل الكتاب ، لو آمنوا بمثل ما آمنتم به ، لاهتدوا وكان خيراً لهم .

ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل .

وأما الكثير ، فهم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، محاربون للمؤمنين ، ساعون فى إضرارهم بكل مقدورهم .

ومع ذلك ، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان .

وإلا ، فلو قاتلوهم ، لولوا الأدبار ، ثم لا ينصرون .

وقد وقع ما أخبر الله به .

فإنهم لما قاتلوا المسلمين ، ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة ، فهم خائفون أينما ثقفوا .

ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة ، وسبب يأمنون به ، يرضخون لأحكام الإسلام ، ويعترفون بالجزية .

أو [بحبل من الناس] أى : إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم ، كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً .

فإنهم لم يتمكنوا فى الوقت الأخير من الملك المؤقت فى فلسطين ، إلا بنصر الدول الكبرى ، وتمهيدها لهم كل سبب .

[وباءوا بغضب من الله] أى : قد غضب الله عليهم ، وعاقبهم بالذلة والمسكنة .

والسبب فى ذلك ، كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق .

أى : ليس ذلك عن جهل ، وإنما هو بغى وعناد .

تلك العقوبات المتنوعة عليهم [بما عصوا وكانوا يعتدون] .

فالله تعالى ، لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب .

وإنما الذى أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، وكفرهم وتكذيبهم للرسل ، وجناياتهم الفظيعة .

﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾

لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب ، بين حالة المستقيمين منهم ، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه .

[يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف] وهو الخير كله ، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر .

كما قال تعالى [ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون] .

و [يسارعون فى الخيرات] والمسارعة إلى الخيرات ، قدر زائد على مجرد فعلها .

فهو وصف لهم بفعل الخيرات ، والمبادرة إليها ، وتكميلها بكل ما تم به من واجب ومستحب .

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه ، من خير ، قليل أو كثير ، فإن الله سيقبله ، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص .

[فلن يكفروه] يعنى : لن ينكر ما عملوه ، ولن يهدر .

[والله عليم بالمتقين] وهم الذين قاموا بالخيرات ، وتركوا المحرمات ، لقصد رضا الله ، وطلب ثوابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

بين تعالى : أن الكفار ، والذين كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ، ولا ينفعهم نافع ، ولا يشفع لهم عند الله شافع .

وأن أموالهم وأولادهم ، التى كانوا يعدونها للشدائد والمكاره ، لا تفيدهم شيئاً .

وأن نفقاتهم التى أنفقوها فى الدنيا ، لنصر باطلهم ، ستضمحل .

وأن مثلها [كمثل] حرث أصابته [ريح] شديدة [فيها صر] أى : برد شديد ، أو نار محرقة ، فأهلكت ذلك الحرث ، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب ، وإنما ظلموا أنفسهم .

وهذه كقوله تعالى [إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ

هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار ، واتخاذهم بطانة ، أو خصيصة وأصدقاء ، يسرون إليهم ، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين .

فوضح لعباده المؤمنين ، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالا .

أى : هم حريصون غير مقصرين ، فى إيصال الضرر بكم ، وقد بدت البغضاء من كلامهم ، وفلتات ألسنتهم ، وما تخفيه صدورهم ، من البغضاء والعداوة ، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم .

فإن كانت لكم ، فهوم وعقول ، فقد وضح الله لكم أمرهم .

وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة ، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم فى الدين وفى مقابلة إحسانكم ؟ .

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل ، تؤمنون بكل رسول أرسله الله ، وبكل كتاب أنزله الله .

وهم يكفرون بأجل الكتب ، وأشرف الرسل ، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه .

ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

فكيف تحبونهم ، وهم لا يحبونكم ، وهم يداهنونكم وينافقونكم .

فإذا لقوكم ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا مع بنى جنسهم ، عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم .

قال تعالى [قل موتوا بغيظكم] أى : سترون من عز الإسلام وذل الكفر ، ما يسوءكم ، وتموتون بغيظكم ، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون.

[إن الله عليم بذات الصدور] فلذلك بين لعباده المؤمنين ، ما تنطوى عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين .

[إن تمسسكم حسنة] عز ونصر وعافية وخير [تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة] من إدالة العدو ، أو حصول بعض المصائب الدنيوية [يفرحوا بها].

وهذا وصف العدو الشديدة عداوته .

لما بين تعالى شدة عداوتهم ، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة ، أمر عباده المؤمنين بالصبر ، ولزوم التقوى .

وأنهم إذا قاموا بذلك ، فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً ، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم ، التى يكيدونكم فيها .

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى ، أنهم لا يضرونكم شيئاً ، فلا تشكوا فى حصول ذلك .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ

[وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال] إلى آخر القصة .

وذلك يوم « أحد » حين خرج صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ، حين وصل المشركون – بجمعهم – إلى قريب من « أحد » .

فنزلهم صلى الله عليه وسلم منازلهم ، ورتبهم فى مقاعدهم ، ونظمهم تنظيما عجيباً ، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة فى فنون السياسة والحرب ، كما كان كاملا فى كل المقامات .

[والله سميع عليم] لا يخفى عليه شىء من أموركم .

[إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا] وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة .

لكن تولاهما البارى بلطفه ورعايته ، وتوفيقه .

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] فإنهم إذا توكلوا عليه ، كفاهم وأعانهم ، وعصمهم من وقوع ما يضرهم ، فى دينهم ودنياهم .

وفى هذه الآية ونحوها ، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله .

والتوكل . هو: اعتماد العبد على ربه ، فى حصول منافعه،ودفع مضاره.

فلما ذكر حالهم فى « أحد » وما جرى عليهم من المصيبة ، أدخل فيها

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

تذكيرهم بنصره ، ونعمته عليهم ، يوم « بدر » ليكونوا شاكرين لربهم ، وليخفف هذا هذا فقال :

[وإذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة] فى عددكم وعددكم، فكانوا ثلثمائة ، وبضعة عشر ، فى قلة ظهر ، ورثاثة سلاح .

وأعداؤهم ، يناهزون الألف ، فى كمال العدة والسلاح .

[فاتقوا الله لعلكم تشكرون] الذى أنعم عليكم بنصره .

[إذ تقول] مبشراً [للمؤمنين] مثبتاً لجنانهم :

[ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا] أى : من حملتهم هذه بهذا الوجه .

[يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين] أى : معلمين علامة الشجعان .

واختلف الناس ، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة ، مباشرة للقتال ، كما قاله بعضهم ، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين ، وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ، كما قاله كثير من المفسرين .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ويدل عليه قوله [وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عندالله العزيز الحكيم] ، وفى هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد ، بل يعتمد على الله .

وإنما الأسباب وتوفرها ، فيها طمأنينة للقلوب ، وثبات كل على الخير.

[ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين]

أى: نصر الله لعباده المؤمنين ، لا يعدو أن يكون قطعا لطرف من الكفار .

أو ينقلبوا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، كما أرجعهم يوم الخندق ، بعد ما كانوا قد أتوا على حرد قادرين ، أرجعهم الله بغيظهم خائبين :

* لما أصيب صلى الله عليه وسلم يوم «أحد» وكسرت رباعيته ، وشج فى رأسه ، جعل يقول :

كيف يفلح قوم ، شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وبين أن الأمر كله لله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس له من الأمر شيء ، لأنه عبد من عبيد الله ، والجميع تحت عبودية ربهم ، مدبرون لا مدبرون .

وهؤلاء الذين دعوت عليهم ، أيها الرسول ، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم ، إن شاء الله تاب عليهم ، ووفقهم للدخول فى الإسلام ، وقد فعل ، فإن أكثر أولئك ، هداهم الله فأسلموا .

وإن شاء الله عذبهم ، فإنهم ظالمون ، مستحقون لعقوبات الله وعذابه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

يخبر تعالى ، أنه هو المتصرف فى العالم العلوى والسفلى ، وأنه يتوب على من يشاء ، فيغفر له ، ويخذل من يشاء ، فيعذبه .

[والله غفور رحيم] فمن صفته اللازمة ، كمال المغفرة والرحمة ، ووجود مقتضياتهما فى الخلق والأمر ، يغفر للتائبين ، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة .

قال تعالى [وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون] .

* تقدم فى مقدمة هذا التفسير ، أن العبد ينبغى له مراعاة الأوامر والنواهى ، فى نفسه وفى غيره .

وأن الله تعالى إذا أمره بأمر ، وجب عليه ـ أولا ـ أن يعرف حده ، وما هو الذى أمر به ، ليتمكن بذلك من امتثاله .

فإذا عرف ذلك ، اجتهد ، واستعان بالله على امتثاله ، فى نفسه وفى غيره ، بحسب قدرته وإمكانه .

وكذلك إذا نهى عن أمر ، عرف حده ، وما يدخل فيه ، ومالا يدخل ، ثم اجتهد واستعان بربه فى تركه .

تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

وأن هذا ينبغى مراعاته ، فى جميع الأوامر الإلهية والنواهى .

[وهذه الآيات الكريمات ، وقد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير ؛ أمر الله بها ، وحث على فعلها ، وأخبر عن جزاء أهلها. وعلى نواهى ، حث على تركها .

ولعل الحكمة ـ والله أعلم ـ فى إدخال هذه الآيات، أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى ، وعد عباده المؤمنين ، أنهم ـ إذا صبروا ، واتقوا ـ نصرهم على أعدائهم ، وخذل الأعداء عنهم كما فى قوله تعالى :

[وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً] ثم قال :

[وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم] الآيات .

فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى ، التى يحصل بها النصر والفلاح ، والسعادة ، فذكر الله فى هذه الآيات ، أهم خصال التقوى التى إذا قام العبد بها ، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحري .

ويدل على ما قلنا ، أن الله ذكر لفظ « التقوى » فى هذه الآيات ، ثلاث مرات .

مرة مطلقة وهى قوله [أعدت للمتقين] .

ومرتين مقيدتين فقال [واتقوا الله ، واتقوا النار] .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ

فقوله تعالى [ياأيها الذين آمنوا] كل ما فى القرآن من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، يدل على أن الإيمان ، هو السبب الداعى والموجب لامتثال ذلك الأمر ، واجتناب ذلك النهى .

لأن الإيمان هو : التصديق الكامل ، بما يجب التصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح .

فنهاهم عن أكل الربا ، أضعافا مضاعفة ، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ، ومن لا يبالى بالأوامر الشرعية .

من أنه إذا حل الدين على المعسر ، ولم يحصل منه شىء ، قالوا له :

إما أن تقضى ماعليك من الدين ، وإما أن تزيد فى المدة ، وتزيد مافى ذمتك .

فيضطر الفقير ، ويستدفع غريمه ، ويلتزم ذلك ، اغتناما لراحته الحاضرة .

فيزداد ـ بذلك ـ مافى ذمته أضعافا مضاعفة ، من غير نفع وانتفاع .

ففى قوله [أضعافا مضاعفة] تنبيه على شدة شناعته بكثرته ، وتنبيه لحكمة تحريمه .

وأن تحريم الربا ، حكمته : أن الله منع منه ، لما فيه من الظلم .

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر ، وبقاء ما فى ذمته من غير زيادة .

فإلزامه بما فوق ذلك ، ظلم متضاعف .

فيتعين على المؤمن المتقى ، تركه ، وعدم قربانه ، لأن تركه ، من موجبات التقوى .

والفلاح ، متوقف على التقوى ، فلهذا قال : [واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين] بترك ما يوجب دخولها ، من الكفر ، والمعاصى ، على اختلاف درجاتها .

فإن المعاصى كلها ـ وخصوصاً المعاصى الكبار ـ تجر إلى الكفر ، بل هى من خصال الكفر ، الذى أعد الله النار لأهله .

فترك المعاصى ، ينجى من النار ، ويقى من سخط الجبار .

وأفعال الخير والطاعة ، توجب رضا الرحمن ، ودخول الجنان ، وحصول الرحمة ولهذا قال :

[وأطيعوا الله والرسول] بفعل الأوامر وامتثالها ، واجتناب النواهى [لعلكم ترحمون] .

فطاعة الله وطاعة رسوله ، من أسباب حصول الرحمة ، كما قال تعالى :

[ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة] الآيات .

. . . .

ثم أمرهم تعالى ، بالمسارعة إلى مغفرته ، وإدراك جنته ، التى عرضُها السموات والأرض ، فكيف بطولها التى أعدها الله للمتقين ، فهم أهلها وأعمال التقوى هى الموصلة إليها .

ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال : [الذين ينفقون فى السراء والضراء] أى : فى عسرهم ويسرهم .

إن أيسروا ، أكثروا من النفقة .

وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ، ولو قل.

[والكاظمين الغيظ] أى : إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم ـ وهو امتلاء قلوبهم من الحنق ، الموجب للانتقام بالقول والفعل ـ هؤلاء لايعملون بمقتضى الطباع البشرية ، بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ ، ويصبرون عن مقابلة المسىء إليهم .

[والعافين عن الناس] يدخل فى العفو عن الناس ، العفو عن كل من أساء إليك بقول ، أو فعل .

والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذة ، مع السماحة عن المسىء .

وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة وممن تاجر مع الله ، وعفا عن عباد الله ، رحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ، ويكون أجره على ربه الكريم ، لا على العبد الفقير ، كما قال تعالى [فمن عفا وأصلح فأجره على الله] .

ثم ذكر حالة أعم من غيرها ، وأحسن ، وأعلى ، وأجل ، وهى الإحسان .

. . . .

فقال تعالى : [والله يحب المحسنين] والإحسان نوعان .

الإحسان فى عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان فى عبادة الخالق ، فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «أن تعبدالله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وأما الإحسان إلى المخلوق ، فهو إيصال النفع الدينى والدنيوى إليهم ، ودفع الشر الدينى والدنيوى عنهم .

فيدخل فى ذلك ، أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليم جاهلهم ، ووعظ غافلهم ، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم ، والسعى فى جمع كلمتهم .

وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم ، على اختلاف أحوالهم ، وتباين أوصافهم .

فيدخل فى ذلك ، بذل الندى ، وكف الأذى ، واحتمال الأذى ، كما وصف الله به المتقين فى هذه الآيات .

فمن قام بهذه الأمور ، فقد قام بحق الله وحق عبيده .

ثم ذكر اعتذارهم لربهم ، من جناياتهم وذنوبهم فقال :

[والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم] أى : صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك ، بادروا إلى التوبة والاستغفار ، وذكروا ربهم ، وما توعد به العاصين ، ووعد به المتقين .

فسألوه المغفرة لذنوبهم ، والستر لعيوبهم ، مع إقلاعهم عنها ، وندمهم عليها .

. . . .

فلهذا قال [ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون] .

[أولئك] الموصوفون بتلك الصفات [جزاؤهم مغفرة من ربهم] تزيل عنهم كل محذور .

[وجنات تجري من تحتها الأنهار] فيها من النعيم المقيم ، والبهجة والحبور والبهاء ، والخير والسرور ، والتصور ، والمنازل الأنيقة العاليات ، والأشجار المثمرة البهية ، والأنهار الجاريات فى تلك المساكن الطيبات .

[خالدين فيها] لا يحولون عنها ، ولا يبغون بها بدلا ، ولا يغير ما هم فيه من النعيم .

[ونعم أجر العاملين] عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ « عند الصباح يحمد القوم السرى » وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفرا .

وهذه الآيات الكريمات ، من أدلة أهل السنة والجماعة ، على أن الأعمال تدخل فى الإيمان ، خلافا للمرجئة .

وجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية ، التى فى سورة الحديد ، نظير هذه الآيات وهى قوله :

[سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله] فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله ، وهناك قال [أعدت للمتقين] .

ثم وصف المتقين ، بهذه الأعمال المالية والبدنية .

فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات ، هم أولئك المؤمنون . ثم قال تعالى : [قد خلت من قبلكم سنن] الآيات .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذه الآيات الكريمات ، وما بعدها فى قصة « أحد » يعزى تعالى ، عباده المؤمنين ويسليهم ، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم ، امتحنوا ، وابتلى المؤمنون منهم بقتال الكافرين ، فلم يزالوا فى مداولة ومجاولة ، حتى جعل الله العاقبة للمتقين ، والنصر لعباده المؤمنين .

وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين ، وخذلهم الله بنصر رسله ، وأتباعهم .

[فسيروا فى الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين] فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين ، بأنواع العقوبات الدنيوية .

قد خوت ديارهم ، وتبين لكل أحد خسارهم ، وذهب عزهم وملكهم ، وزال بذخهم وفخرهم .

أفليس فى هذا ، أعظم دليل ، وأكبر شاهد ، على صدق ما جاءت به الرسل ؟ !!

وحكمة الله التى يمتحن بها عباده ، ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم .

ولهذا قال تعالى : [هذا بيان للناس] أى : دلالة ظاهرة ، تبين للناس الحق من الباطل ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين .

[وهدى وموعظة للمتقين] لأنهم هم المنتفعون بالآيات .

فتهديهم إلى سبيل الرشاد ، وتعظهم وتزجرهم ، عن طريق الغى .

وأما باقى الناس ، فهى بيان لهم ، تقوم به عليهم الحجة من الله ، ليهلك من هلك عن بينة .

ويحتمل أن الإشارة فى قوله [هذا بيان للناس] للقرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، وأنه بيان للناس عموماً ، وهدى وموعظة للمتقين ، خصوصاً ، وكلا المعنيين ، حق .

* يقول تعالى : مشجعاً لعباده المؤمنين ، ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم :

[ولا تهنوا ولا تحزنوا] أى : ولا تهنوا وتضعفوا ، فى أبدانكم ، ولا تحزنوا فى قلوبكم ، عند ما أصابتكم المصيبة ، وابتليتم بهذه البلوى .

فإن الحزن فى القلوب ، والوهن على الأبدان ، زيادة مصيبة عليكم ، وأعون لعدوكم عليكم .

بل شجعوا قلوبكم ، وصبروها ، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم .

وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن ، وهم الأعلون ، فى الإيمان ، ورجاء نصر الله وثوابه .

فالمؤمن المبتغى ما وعده الله ، من الثواب الدنيوى والأخروى ، لا ينبغى له ذلك .

ولهذا قال تعالى : [وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] .

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة ، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك ، فقال تعالى :

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ

[إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله] فأنتم وهم ، قد تساويتم فى القرح ، ولكنكم ترجون من الله مالا يرجون كما قال تعالى :

[إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون] .

ومن الحكم فى ذلك ، أن هذه الدار ، يعطى الله منها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فيداول الله الأيام بين الناس : يوم لهذه الطائفة ، ويوم للطائفة الأخرى .

لأن هذه الدار الدنيا ، منقضية فانية .

وهذا بخلاف الدار الآخرة ، فإنها خالصة للذين آمنوا .

[وليعلم الله الذين آمنوا] هذا أيضاً من الحكم أنه يبتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء ، ليتبين المؤمن من المنافق .

لأنه لو استمر النصر للمؤمنين ، فى جميع الوقائع ، لدخل فى الإسلام ، من لا يريده .

فإذا حصل فى بعض الوقائع ، بعض أنواع الابتلاء ، تبين المؤمن حقيقة ، الذى يرغب فى الإسلام ، فى الضراء والسراء ، واليسر والعسر ، ممن ليس كذلك .

[ويتخذ منكم شهداء] وهذا أيضاً من بعض الحكم ، لأن الشهادة عند الله ، من أرفع المنازل ، ولا سبيل لنيلها ، إلا بما يحصل من وجود أسبابها .

شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ

فهذا من رحمته بعباده المؤمنين ، أن قيض لهم من الأسباب ، ما تكرهه النفوس ، لينيلهم ما يحبون ، من المنازل العالية ، والنعيم المقيم .

[والله لا يحب الظالمين] الذين ظلموا أنفسهم ، وتقاعدوا عن القتال فى سبيله .

« ولو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

[وليمحص الله الذين آمنوا] وهذا أيضاً من الحكم ، أن الله يمحص بذلك المؤمنين ، من ذنوبهم وعيوبهم .

يدل ذلك على أن الشهادة والقتال فى سبيل الله ، تكفر الذنوب ، وتزيل العيوب .

ويمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين ، فيتخلصون منهم ، ويعرفون المؤمن من المنافق .

ومن الحكم أيضاً أن يقدر ذلك ، ليمحق الكافرين .

أى : ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة ، فإنهم إذا انتصروا ، بغوا ، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم ؛ يستحقون به المعاجلة بالعقوبة ، رحمة بعباده المؤمنين .

ثم قال تعالى : [أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين] هذا استفهام إنكارى .

أى : لا تظنوا ، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة ، من دون مشقة ، واحتمال المكاره فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

فإن الجنة ، أعلى المطالب ، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون .

وكلما عظم المطلوب ، عظمت وسيلته ، والعمل الموصل إليه .

فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ، ولا يدرك النعيم ، إلا بترك النعيم .

ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله — عند توطين النفس لها ، وتمرينها عليها ، ومعرفة ما تئول إليه تنقلب — عند أرباب البصائر — منحاً يسرون بها ، ولا يبالون بها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم وبخهم تعالى ، على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ، ويودون حصوله فقال :

[ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه] وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر ، كانوا يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً ، يبذلون فيه جهدهم .

قال الله تعالى لهم [فقد رأيتموه] أي : ما تمنيتم بأعينكم [وأنتم تنظرون] فما بالكم وترك الصبر ؟ هذه حالة لا تليق ، ولا تحسن ، خصوصاً لمن تمنى ذلك ، وحصل له ما تمنى .

فإن الواجب عليه ، بذل الجهد ، واستفراغ الوسع في ذلك .

وفي هذه الآية ، دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة .

ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ، ولم ينكر عليهم .

وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : [وما محمد إلا رسول] إلى [وسنجزي الشاكرين] .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ

يقول تعالى [وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] .

أى . ليس ببدع من الرسل ، بل هو من جنس الرسل الذين قبله .

وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم ، وتنفيذ أوامره .

ليسوا بمخلدين ، وليس بقاؤهم شرطاً فى امتثال أوامر الله .

بل الواجب على الأمم ، عبادة ربهم فى كل وقت وبكل حال .

ولهذا قال [أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم] بترك ما جاءكم به، من إيمان أو جهاد ، أو غير ذلك .

قال الله تعالى [ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً] إنما يضر نفسه .

وإلا ، فالله تعالى غنى عنه ، وسيقيم دينه ، ويعز عباده المؤمنين .

فلما وبخ تعالى ، من انقلب على عقبيه ، مدح من ثبت مع رسوله ، وامتثل أمر ربه فقال [وسيجزى الله الشاكرين] .

والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى ، فى كل حال .

وفى هذه الآية الكريمة ، إرشاد من الله تعالى لعباده ، أن يكونوا بحالة ، لا يزعزعهم عن إيمانهم ، أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم.

وما ذلك إلا بالاستعداد فى كل أمر من أمور الدين ، بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم ، قام به غيره .

لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وأن يكون عموم المؤمنين ، قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان .

لا يكون لهم قصد ، فى رئيس دون رئيس .

فبهذه الحال ، يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفى هذه الآية أيضاً ،أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر ، أبى بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها ، معلقة بآجالها ، بإذن الله . وقدره وقضائه .

فمن حتم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب .

ومن أراد بقاءه ، فلو وقع من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله .

وذلك أن الله قضاه ، وقدره ، وكتبه إلى أجل مسمى .

« إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » .

ثم أخبر تعالى ، أنه يعطى الناس من ثواب الدنيا والآخرة ، ما تعلقت به إراداتهم ، فقال :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا

[ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها].

قال الله تعالى [كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا] .

[وسنجزى الشاكرين] ولم يذكر جزاءهم ، ليدل ذلك على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء ، على قدر الشكر ، قلة وكثرة ، وحسناً .

* هذا تسلية المؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعلهم ، وأن هذا ، أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك فقال :

[وكأين من نبى] أى : وكم من نبى [قاتل معه ربيون كثير] .

أى : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان ، والأعمال الصالحة ، فأصابهم ، قتل وجراح ، وغير ذلك .

[فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا] .

أى : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا .

أى : ذلوا لعدوهم .

بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال :

[والله يحب الصابرين] .

ثم ذكر قولهم ، واستنصارهم لربهم فقال :

ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[وما كان قولهم] أى : فى تلك المواطن الصعبة [إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا] .

والإسراف هو : مجاوزة الحد ، إلى ما حرم .

علموا أن الذنوب والإسراف ، من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلى منها ، من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على مابذلوا جهدهم به ، من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم .

فجمعوا بين الصبر ، وترك ضده ، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم .

لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال :

[فآتاهم الله ثواب الدنيا] من النصر والظفر والغنيمة .

[وحسن ثواب الآخرة] وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم ، الذى قد سلم من جميع المنكدات .

وما ذاك ، إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلهذا قال :

[والله يحب المحسنين] فى عبادة الخالق ، ومعاملة الخلق .

ومن الإحسان ، أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء المؤمنين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا] إلى [وبئس مثوى الظالمين] .

وهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين ، من المنافقين والمشركين .

فإنهم ، إذا أطاعوهم ، لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر ، الذى عاقبته الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه يتولى أمورهم ، بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفى ضمن ذلك ، الحث لهم ، على اتخاذه وحده ، ولياً وناصراً ، من دون كل أحد .

فمن ولايته ونصره لهم ، أنه وعدهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم من الكافرين ، الرعب ، وهو الخوف العظيم ، الذى يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين — بعد ما انصرفوا من وقعة « أحد » — تشاوروا فيما بينهم ، وقالوا :

كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ؟ ولما نستأصلهم ؟ فهموا بذلك .

أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

فألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فانصرفوا خائبين .

ولا شك أن هذا ، من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم ، أن نصر الله لعباده المؤمنين ، لايخرج عن أحد أمرين :

إما أن يقطع طرفا ممن كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين . وهذا من الثانى .

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين فقال :

[بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا] أى : ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه ، من الأنداد والأصنام ، التى اتخذوها [1] على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة ، من غير حجة ولا برهان ، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن .

فمن ثم ، كان المشرك مرعوبا من المؤمنين ، لايعتمد على ركن وثيق ، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق ، هذا حاله فى الدنيا .

وأما فى الآخرة ، فأشد وأعظم ، ولهذا قال : [ومأواهم النار] .

أى : مستقرهم الذى يأوون إليه وليس لهم عنها خروج .

[وبئس مثوى الظالمين] بسبب ظلمهم وعدوانهم ، صارت النار مثواهم .

---

(١) قوله (اتخذوها) أى : جعلوها آلهة يعبدونها ويتقربون إليها بأنواع القربات والعبادات واتخاذها وسائط بينهم وبين الله تعالى فى جلب نفع ودفع ضر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

أى [ولقد صدقكم الله وعده] بالنصر ، فنصركم عليهم ، حتى ولوكم أكتافهم ، وطفقتم فيهم قتلا ، حتى صرتم سبباً لأنفسكم ، وعوناً لأعدائكم عليكم .

فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور [وتنازعتم فى الأمر] الذي فيه ترك أمر الله ، بالائتلاف وعدم الاختلاف ، فاختلفتم .

فمن قائل : نقيم فى مركزنا ، الذى جعلنا فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن قائل : ما مقامنا فيه ، وقد انهزم العدو ، ولم يبق محذور .

فعصيتم الرسول ، وتركتم أمره [من بعد ما أراكم الله ماتحبون] وهو انخذال أعدائكم .

لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب ، أعظم من غيره .

فالواجب فى هذه الحال خصوصاً ، وفى غيرها عموما ، امتثال أمر الله ورسوله .

[منكم من يريد الدنيا] وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب .

۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم

[ومنكم من يريد الآخرة] وهم الذين ، لزموا أمر رسول الله ، وثبتوا حيث أمروا .

[ثم صرفكم عنهم] أى : بعد ما وجدت هذه الأمور منكم ، صرف الله وجوهكم عنهم ، فصار الوجه لعدوكم ، ابتلاء من الله لكم ، وامتحانا ، ليتبين المؤمن من الكافر ، والطائع من العاصى ، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ، ماصدر منكم فلهذا قال :

[ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين] أى : ذو فضل عظيم عليهم ، حيث من عليهم بالإسلام ، وهداهم لشرائعه ، وعفا عنهم سيئاتهم ، وأثابهم على مصيباتهم .

ومن فضله على المؤمنين ، أن لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة ، إلا كان خيراً لهم .

إن أصابتهم سراء فشكروا ، جازاهم جزاء الشاكرين ، وإن أصابتهم ضراء فصبروا ، جازاهم جزاء الصابرين .

۞ يذكرهم تعالى حالهم ، فى وقت انهزامهم عن القتال ، ويعاتبهم على ذلك فقال [إذ تصعدون] أى : تجدون فى الهرب ولا تلوون على أحد] أى : لا يلوى أحد منكم على أحد ، ولا ينظر إليه .

بل ليس لكم هم إلا الفرار ، والنجاء من القتال .

مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير.

إذ لستم آخر الناس ، مما يلى الأعداء ، ويباشر الهيجاء.

بل [الرسول يدعوكم فى أخراكم] أى : مما يلى القوم يقول : « إلى عباد الله » .

فلم تلتفتوا إليه ، ولا عرجتم عليه ، فالفرار نفسه ، موجب للوم .

ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس ، أعظم لوما،بتخلفكم عنها.

[فأثابكم] أى : جازاكم على فعلكم [غما بغم] أى : غما يتبعه غم .

غم بفوات النصر وفوات الغنيمة ، وغم بانهزامكم ، وغم ، أنساكم كل غم ، وهو سماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل .

ولكن الله — بلطفه ، وحسن نظره لعباده — جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين ، خيراً لهم فقال :

[لكيلا تحزنوا على ما فاتكم] من النصر والظفر .

[ولا ما أصابكم] من الهزيمة والقتل والجراح ، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل ، هانت عليكم تلك المصيبات ، واغتبطتم بوجوده المسلى عن كل مصيبة ومحنة .

فلله ما فى ضمن البلايا والمحن ، من الأسرار والحكم .

لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ

وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم، وبواطنكم.

ولهذا قال : [والله خبير بما تعملون] .

ويحتمل أن معنى قوله [لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم] .

يعني : أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم ، لكي تتوطن نفوسكم ، وتمرنوا على الصبر على المصيبات ، ويخف عليكم تحمل المشقات :

[ثم أنزل عليكم من بعد الغم] الذى أصابكم [أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم] .

ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة طمأنينة .

لأن الخائف لا يأتيه النعاس ، لما فى قلبه من الخوف .

فإذا زال الخوف عن القلب ، أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس ، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ، ورضا الله ورسوله ، ومصلحة إخوانهم المسلمين .

وأما الطائفة الأخرى الذين [قد أهمتهم أنفسهم] فليس لهم هم فى غيرها ، لنفاقهم ، أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصبهم من النعاس ، ما أصاب غيرهم [يقولون : هل لنا من الأمر من شيء] .

وهذا استفهام إنكارى ، أى : مالنا من الأمر أي : النصر والظهور — شيء .

ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

فأساءوا الظن بربهم ، وبدينه ، وبنبيه ، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله ، وأن هذه الهزيمة ، هى الفيصلة والقاضية على دين الله .

قال الله فى جوابهم : [قل إن الأمر كله لله] .

الأمر يشمل الأمر القدرى ، والأمر الشرعى .

لجميع الأشياء ، بقضاء الله وقدره ، وعاقبتها ، النصر والظفر لأوليائه، وأهل طاعته وإن جرى عليهم ، ما جرى .

[يخفون] يعنى المنافقين [فى أنفسهم ما لا يبدون لك] .

ثم بين الأمر الذى يخفونه فقال :

[يقولون لو كان لنا من الأمر شىء] أى : لو كان لنا فى هذه الواقعة رأى ومشورة [ما قتلنا ههنا] .

وهذا إنكار منهم ، وتكذيب بقدر الله ، وتسفيه منهم لرأى رسول الله، ورأى أصحابه ، وتزكية منهم ، لأنفسهم فرد الله عليهم بقوله :

[قل لو كنتم فى بيوتكم] التى هى أبعد شىء عن مظان القتل .

[لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم] .

فالأسباب — وإن عظمت — إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء .

فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً ، بل لا بد أن يمضى الله ما كتب فى اللوح المحفوظ ، من الموت والحياة .

[وليبتلى الله ما فى صدوركم] أى : يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

[وليمحص ما فى قلوبكم] من وساوس الشيطان ، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة .

[والله عليم بذات الصدور] أى : بما فيها ، وما أكنته .

فاقتضى علمه وحكمته ، أن قدر من الأسباب ، ما به يظهر مخبئات الصدور ، وسرائر الأمور .

☆ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم « أحد » وما الذى أوجب لهم الفرار ، وأنه من تسويل الشيطان ، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم .

فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكنوه بما فعلوا من المعاصى ، لأنها مركبه ومدخله .

فلو اعتصموا بطاعة ربهم ، لما كان له عليهم من سلطان .

قال تعالى : [إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] .

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا مايوجب المؤاخذة .

وإلا فلو آخذهم ، لاستأصلهم .

[إن الله غفور] للمذنبين الخطائين ، بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار ، والمصائب المكفرة .

[حليم] لا يعاجل من عصاه ، بل يستأنى به ، ويدعوه إلى الإنابة إليه ، والإقبال عليه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ

ثم إن تاب وأناب ، قبل منه ، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب ، ولم يصدر عنه عيب . فلله الحمد على إحسانه .

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ، ولا بقضائه وقدره ، من المنافقين وغيرهم .

ينهاهم عن مشابهتهم فى كل شىء ، وفى هذا الأمر الخاص — وهو أنهم يقولون لإخوانهم فى الدين أو فى النسب :

[إذا ضربوا فى الأرض] أى : سافروا للتجارة [أو كانوا غزى] أى : غزاة ، ثم جرى عليهم قتل أو موت ، يعارضون القدر ويقولون :

[لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا] وهذا كذب منهم .

فقد قال تعالى : [قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم] .

ولكن هذا التكذيب لم يفدهم ، إلا أن الله يجعل هذا القول ، وهذه العقيدة ، حسرة فى قلوبهم ، فتزداد مصيبتهم .

وأما المؤمنون ، فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله ، فيؤمنون ويسلمون ، فيهدى الله قلوبهم ، ويثبتها ، ويخفف بذلك ، عنهم المصيبة .

يُحْيِ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

قال الله ، رداً عليهم [والله يحيي ويميت] أى : هو المنفرد بذلك ، فلا يغنى حذر عن قدر .

[والله بما تعملون بصير] فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم .

ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيله ، أو الموت فيه ، ليس فيه نقص ولا محذور .

وإنما هو ، مما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون ، لأنه سبب مفض ، وموصل إلى مغفرة الله ورحمته ، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا ، من دنياهم ، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا ، أو قتلوا بأى حالة كانت ، فإنما مرجعهم إلى الله ، ومآلهم إليه ، فيجازى كلا بعمله .

فأين الفرار إلا إلى الله ، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله ؟ !!

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

أى برحمة الله لك ولأصحابك ، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك ، وخفضت لهم جناحك ، وترققت عليهم ، وحسنت لهم خلقك ، فاجتمعوا عليك وأحبوك ، وامتثلوا أمرك .

[ولو كنت فظا] أى : سيء الخلق [غليظ القلب] أى : قاسيه ، [لانفضوا من حولك] لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء .

فالأخلاق الحسنة من الرئيس فى الدنيا ، تجذب الناس إلى دين الله ، وترغبهم فيه ، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص .

والأخلاق السيئة من الرئيس فى الدين ، تنفر الناس عن الدين ، وتبغضهم إليه ، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص .

فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول ، فكيف بغيره .

أليس من أوجب الواجبات ، وأهم المهمات ، الاقتداء بأخلاقه الكريمة ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به صلى الله عليه وسلم ، من اللين وحسن الخلق والتأليف ، امتثالا لأمر الله ، وجذبا لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير فى حقه ، صلى الله عليه وسلم ، ويستغفر لهم فى التقصير ، فى حق الله ، فيجمع بين العفو والإحسان .

[وشاورهم فى الأمر] أى : الأمور التى تحتاج إلى استشارة ، ونظر ، وفكر .

فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

فإن فى الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ، ما لا يمكن حصره .

منها : أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

ومنها : أن فيها تسميحاً لخواطرهم ، وإزالة لما يصير فى القلوب عند الحوادث .

فإن من له الأمر على الناس — إذا جمع أهل الرأى والفضل ، وشاورهم فى حادثة من الحوادث — اطمأنت إليه نفوسهم وأحبوه ، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم ، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع .

فبذلوا جهدهم ومقدورهم فى طاعته ، لعلمهم بسعيه فى مصالح العموم .

بخلاف من ليس كذلك ، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ، ولا يطيعونه ، وإن أطاعوه ، فطاعة غير تامة .

ومنها : أن فى الاستشارة ، تنور الأفكار ، بسبب إعمالها فيما وضعت له ، فصار فى ذلك زيادة للعقول .

ومنها : ما تنتجه الاستشارة ، من الرأى المصيب ، فإن المشاور لا يكاد يخطىء فى فعله .

وإن أخطأ ، أو لم يتم له مطلوب ، فليس بملوم .

فإذا كان الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم — وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً — : [وشاورهم فى الأمر] فكيف بغيره .

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

ثم قال تعالى [فإذا عزمت] أى : على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه ، إن كان يحتاج إلى استشارة .

[فتوكل على الله] أى : اعتمد على حول الله وقوته ، متبرئا من حولك وقوتك .

[إن الله يحب المتوكلين] عليه ؛ اللاجئين إليه .

* أى : إن يمددكم الله بنصره ومعونته [فلا غالب لكم] .

فلو اجتمع عليكم ؛ من فى أقطارها ؛ وما عندهم من العدد والعدد ، لأن الله لا مغالب له ، وقد قهر العباد ، وأخذ بنواصيهم .

فلا تتحرك دابة إلا بإذنه ، ولا تسكن إلا بإذنه .

[وإن يخذلكم] ويكلكم إلى أنفسكم [فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟] .

فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وقد ضمن ذلك ، الأمر بالاستنصار بالله ، والاعتماد عليه ، والبراءة من الحول والقوة .

ولهذا قال [وعلى الله فليتوكل المؤمنون] وتقدم المعمول ، يؤذن بالحصر .

أى : توكلوا على الله ، لا غيره ، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده .

فالاعتماد عليه ، توحيد محصل للمقصود .

والاعتماد على غيره ، شرك غير نافع لصاحبه ، بل ضار .

وفى هذه الآية ، الأمر بالتوكل على الله وحده ، وأنه بحسب إيمان العبد ، يكون توكله .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾

الغلول هو : الكتمان من الغنيمة ، والخيانة فى كل ما يتولاه الإنسان ، وهو محرم إجماعا ، بل هو من الكبائر ، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص .

فأخبر الله تعالى ، أنه ما ينبغى ، ولا يليق بنبى ، أن يغل .

لأن الغلول — كما علمت — من أعظم الذنوب ، وشر العيوب .

وقد صان الله تعالى أنبياءه ، عن كل ما يدنسهم ، ويقدح فيهم ؛ وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا ، وأطهرهم نفوساً ، وأزكاهم وأطيبهم ، ونزههم عن كل عيب ، وجعلهم محل رسالته ، ومعدن حكمته [الله أعلم حيث يجعل رسالته] .

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم ، يجزم بسلامتهم ، من كل أمر يقدح فيهم .

ولا يحتاج إلى دليل ، على فساد ما قيل فيهم ، من أعدائهم ، لأن معرفته بنبوتهم ، تستلزم دفع ذلك ، ولذلك أتى بصيغة ، يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال :

[وما كان لنبى أن يغل] أى : يمتنع ذلك ، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته .

ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: [ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة].

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

أى : يأت به حامله[1] على ظهره ، حيوانا كان ، أو متاعا ، أو غير ذلك ، يعذب به يوم القيامة .

[ثم توفى كل نفس ما كسبت] الغال وغيره ، كل يوفى أجره ووزره ، على مقدار كسبه .

[وهم لا يظلمون] أى : لا يزاد فى سيئاتهم ، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم .

وتأمل حسن هذا الاحتراز فى هذه الآية الكريمة .

لما ذكر عقوبة الغال ، وأنه يأتى يوم القيامة بما غله ، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه ، وكان اقتصاره على الغال ، يوهم — بالمفهوم — أن غيره من أنواع العاملين ، قد لا يوفون — أتى بلفظ عام جامع له ولغيره .

* يخبر تعالى ، أنه لا يستوى من كان قصده رضوان الله ، والعمل على ما يرضيه ، كمن ليس كذلك ، ممن هو مكب على المعاصى ، مسخط لربه

هذان لا يستويان فى حكم الله ، وحكمة الله ، وفى فطر عباد الله .

[أفمن كان مؤمناً ، كمن فاسقاً ، لا يستوون] ولهذا قال :

---

(١) قوله (حامله) فيه غموض واشتباه ، فالصواب أن يقال حاملا إياه .

[هم درجات عند الله] أى : كل هؤلاء متفاوتون فى درجاتهم ومنازلهم ، بحسب تفاوتهم فى أعمالهم .

فالمتبعون لرضوان الله ، يسعون فى نيل الدرجات العاليات ، والمنازل والغرفات ، فيعطيهم الله من فضله وجوده ، على قدر أعمالهم .

والمتبعون لمساخط الله ، يسعون فى النزول فى الدركات ، إلى أسفل سافلين ، كل على حسب عمله .

والله بصير بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شىء .

بل قد علمها ، وأثبتها فى اللوح المحفوظ ، وملائكته الأمناء الكرام ، أن يكتبوها ويحفظوها ، ويضبطوها .

* هذه المنة التى امتن الله بها على عباده ، أكبر النعم ، بل أصلها .

وهى الامتنان عليهم ، بهذا الرسول الكريم ، الذى أنقذهم الله به ، من الضلالة ، وعصمهم به ، من الهلكة فقال :

[لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم] يعرفون نسبه ، وحاله ، ولسانه ، من قومهم وقبيلتهم ، ناصحاً لهم ، مشفقاً عليهم .

[يتلو عليهم آياته] يعلمهم ألفاظها ومعانيها .

[ويزكيهم] من الشرك ، والمعاصى ، والرذائل ، وسائر مساوىء الأخلاق .

و[يعلمهم الكتاب] إما جنس الكتاب الذى هو القرآن ، فيكون قوله [يتلو عليهم آياته] المراد به الآيات الكونية .

مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

أو المراد بالكتاب — هنا — الكتابة ، فيكون قد امتن عليهم ، بتعليم الكتاب والكتابة ، التي بها تدرك العلوم وتحفظ .

[والحكمة] هي : السنة ، التي هي شقيقة القرآن ، ووضع الأشياء مواضعها ، ومعرفة أسرار الشريعة .

فجمع لهم ، بين تعليم الأحكام ، وما به تنفيذ الأحكام ، وما به تدرك فوائدها وثمراتها ، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة ، جميع المخلوقين ، وكانوا من العلماء الربانيين .

[وإن كانوا من قبل] بعثة هذا الرسول [لفى ضلال مبين] لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم ، ولا ما يزكى النفوس ويطهرها ، بل ما يزين لهم جهلهم فعلوه ، ولو ناقض ذلك عقول العالمين .

* هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حين أصابهم ما أصابهم يوم « أحد » وقتل منهم نحو سبعين ، فقال الله :

إنكم [قد أصبتم] من المشركين [مثليها] فقتلتم سبعين من كبارهم ، وأسرتم سبعين .

فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم ، مع أنكم لا تستوون ، أنتم وهم .

فإن قتلاكم في الجنة ، وقتلاهم في النار .

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ

[قلتم أنى هذا] أى : من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا ؟

[قل هو من عند أنفسكم] حين تنازعتم ، وعصيتم ، من بعدما أراكم ما تحبون .

فعودا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المردية .

[إن الله على كل شىء قدير] فإياكم وسوء الظن بالله ، فإنه قادر على نصركم .

ولكن له أتم الحكمة ، فى ابتلائكم ، ومصيبتكم .

[ذلك ولو شاء الله ، لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض] .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان ، جمع المسلمين ، وجمع المشركين فى « أحد » من القتل والهزيمة ، أنه بإذنه ، وقضائه وقدره ، لا مرد له ، ولا بد من وقوعه .

والأمر القدرى — إذا نفذ ، لم يبق إلا التسليم له ، وأنه قدره ، لحكم عظيمة ، وفوائد جسيمة .

وأنه ليتبين بذلك ، المؤمن من المنافق ، الذين لما أمروا بالقتال .

[وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله] أى : ذباً عن دين الله ، وحماية له وطلباً لمرضاة الله [أو ادفعوا] عن محارمكم وبلدكم ، إن لم تكن لكم نية صالحة .

قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْـكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

فأبوا ذلك واعتذروا بأن [قالوا لو نعلم قتالا لأتبعناكم] .

أى : لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال ، لاتبعناكم ، وهم كذبة فى هذا .

قد علموا وتيقنوا ، وعلم كل أحد ، أن هؤلاء المشركين ، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين ، بما أصابوا منهم ، وأنهم قدبذلوا أموالهم ، وجمعوا ما يقدرون عليه ، من الرجال والعدد ، وأقبلوا فى جيش عظيم قاصدين المؤمنين فى بلدهم ، متحرقين على قتالهم .

فمن كانت هذه حالهم ، كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال ؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة ، وبرزوا لهم ، هذا من المستحيل.

ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر ، يروج على المؤمنين .

قال تعالى [هم للكفر يومئذ] أى : فى تلك الحال التى تركوا فيها الخروج مع المؤمنين [أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم] .

وهذه خاصة[1] المنافقين ، يظهرون بكلامهم وفعالهم ، ما يبطنون ضده فى قلوبهم وسرائرهم .

---

(١) قوله (خاصة) فيه إبهام والأوضح أن يقال (وهذه خاصية من خصائص المنافقين .

يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ومنه قولهم [لو نعلم قتالا لاتبعناكم] فإنهم علموا وقوع القتال .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة « ارتكاب »[1] أخف المفسدتين » لدفع أعلاهما ، وفعل أدنى المصلحتين ، للعجز عن أعلاهما ، لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين ، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان .

[والله أعلم بما يكتمون] فيبديه لعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

---

(١) قوله (ارتكاب الخ) نص القاعدة الأصولية (ارتكاب أخف الضررين) الضرران أعم من أن يكونا مفسدتين وغير مفسدتين ولا يلزم من الضررين أن يكونا مفسدتين لأن الفساد فى اصطلاح الشرع أن يكون منهياً عنه والقاعدة تعنى أعم من هذا ! مثاله : لو أشرفت سفينةعلى الغرق، وكان فى طرح المال سلامة للنفوس يطرح فى البحرقدر مايسلمها من الغرق ، ومنها حبس الأب ، لو امتنع عن الإنفاق على ولده ومنها : التسعير عند تعدى أرباب الطعام فى بيعه بغبن فاحش ومنها بيع الطعام المحتكر ، جبراً عليه عند الحاجة وامتناعه عن البيع ، دفعاً للضرر العام .

ومن هذه الأمثله يعلم أن الضرر لا يشترط أن يكون فاسداً شرعاًلذاته بل قد يكون لعارض .

وللكلام هنا مجال فسيح لا تسمح ببسطه هذه العجالة .

والذى دفعنى إلى ذلك كلمة (المفسدتين) التى تخالف رواية القاعدة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

ثم قال تعالى [الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا] .

أى : جمعوا بين التخلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره . قال الله رداً عليهم .

[قل فادرأوا] أى : أدفعوا [عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين] أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا ، لا تقدرون على ذلك ، ولا تستطيعونه .

وفى هـــذه الآيات ، دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر ، وخصلة إيمان .

وقد يكون إحداها ، أقرب من الأخرى .

* هذه الآيات الكريمات ، فيها فضل الشهداء وكرامتهم ، وما من الله عليهم به ، من فضله وإحسانه .

وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم ، وتعزيتهم ، وتنشيطهم للقتال فى سبيل الله ، والتعرض للشهادة فقال :

[ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله] أى : فى جهاد أعداء الدين ، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله .

[أمواتاً] أى : لا يخطر ببالك وحسبانك ، أنهم ماتوا وفقدوا ، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا ، والتمتع بزهرتها ، الذى يحذر من فواته ، من جبن عن القتال ، وزهد فى الشهادة .

[بل] قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

فهم [أحياء عند ربهم] فى دار كرامته .

ولفظ « عند ربهم » يقتضى علو درجتهم ، وقربهم من ربهم .

[يرزقون] من أنواع النعيم ، الذى لا يعلم وصفه ، إلا من أنعم به عليهم .

ومع هذا صاروا [فرحين بما آتاهم الله من فضله] أى : مغتبطون بذلك .

وقد قرت به عيونهم ، وفرحت به نفوسهم ، وذلك لحسنه ، وكثرته ، وعظمته ، وكمال اللذة فى الوصول إليه ، وعدم المنغص .

فجمع الله لهم ، بين نعيم البدن بالرزق ، ونعيم القلب والروح ، بالفرح بما آتاهم من فضله :

فتم لهم النعيم والسرور ، وجعلوا [يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ، وأنهم سينالون ما نالوا .

[ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون] أى : يستبشرون بزوال المحذور عنهم ، وعن إخوانهم المستلزم كمال السررر .

[يستبشرون بنعمة من الله وفضل] أى : يهنىء بعضهم بعضاً ، بأعظم مهنأ به ، وهو : نعمة ربهم ، وفضله ، وإحسانه .

[وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين] بل ينميه ويشكره ، ويزيده من فضله ، مالا يصل إليه سعيهم .

۞ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وفى هذه الآيات ، إثبات نعيم البرزخ ، وأن الشهداء ، فى أعلى مكان عند ربهم .

وفيه تلاقى أرواح أهل الخير ، وزيارة بعضهم بعضاً ، وتبشير بعضهم بعضاً .

* لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من «أحد» إلى المدينة ، ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا — على ما بهم من الجراح — استجابة لله ولرسوله ، فوصلوا إلى « حمراء الأسد » ، وجاءهم من جاءهم وقال لهم :

[إن الناس قد جمعوا لكم] وهموا باستئصالكم ، تخويفاً لهم وترهيباً .

فلم يزدهم ذلك ، إلا إيمانا بالله ، واتكالا عليه .

[وقالوا حسبنا الله] أى : كافينا كل ما أهمنا [ونعم الوكيل] المفوض إليه تدبير عباده ، والقائم بمصالحهم .

[فانقلبوا] أى : رجعوا [بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء] .

وجاء الخبر المشركين ، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم ، وندم من تخلف منهم .

فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، واستمروا ، راجعين إلى مكة .

وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

ورجع المؤمنون ، بنعمة من الله وفضل ، حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم ،

ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة .

فسبب إحسانهم بطاعة ربهم ، وتقواهم عن معصيته ، لهم أجر عظيم ، ثم قال تعالى :

[إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه] أي : إن ترهيب من رهب من المشركين ، وقال : إنهم جمعوا لكم ، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم ، أو ضعف .

[فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين] أي:فلا تخافوا المشركين، أولياء الشيطان ، فإن نواصيهم بيدالله ، لا يتصرفون إلا بقدره .

بل خافوا الله ، الذي ينصر أولياءه الخائفين إياه[1] المستجيبين لدعوته .

وفي هذه الآية ، وجوب الخوف من الله وحده،وأنه من لوازم الإيمان.

فعلى قدر إيمان العبد ، يكون خوفه من الله .

والخوف المحمود : ما حجز العبد عن محارم الله .

(١) في الأصل (الخائفين له) والصواب (الخائفين إياه) لأن (خاف) لا يتعدى باللام ، بل يتعدى بنفسه ، كما قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على الخلق ، مجتهداً فى هدايتهم .

وكان يحزن ، إذا لم يهتدوا ، قال الله تعالى :

[ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر] من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه [إنهم لن يضروا الله شيئاً] .

فالله ناصر دينه ، ومؤيد رسوله ، ومنفذ أمره من دونهم ، فلا تبالهم ولا تحفل بهم .

إنما يضرون ، ويسعون فى ضرر أنفسهم ، بفوات الإيمان فى الدنيا ، وحصول العذاب الأليم فى الأخرى ، من هوانهم على الله ، وسقوطهم من عينه ، وإرادته أن لايجعل لهم نصيباً فى الآخرة .

ثوابه ، خذلهم فلم يوفقهم ، لما وفق إليه أولياءه ، ومن أراد به خيراً ، عدلا منه وحكمة ، لعلمه بأنهم غير زاكين[1] على الهدى ، ولا قابلين للرشاد ، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم .

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، ورغبوا فيه ، رغبة

---

(١) قوله (زاكين الخ) يريد : أن أنفسهم غير طاهرة ولا حريصة على قبول الهدى والحق فيكون استعمال (زاكين) مجازاً .

[وأنت ترى أن التعبير بكلمة (زاكين) فيه مافيه من الغموض فإن المعاجم كلها متفقة أنها بمعنى طهارة النفوس .

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

من يذل مايحب من المال ، فى شراء مايحب من السلع [لن يضروا الله شيئا] بل ضرر فعلهم ، يعود على أنفسهم ، ولهذا قال :

[ولهم عذاب أليم] وكيف يضرون الله شيئا ، وهم قد زهدوا أشد الزهد فى الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن ؟ ! فالله غنى عنهم .

وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم .

وأعد له — ممن ارتضاه لنصرته — أهل البصائر والعقول ، وذوى الألباب من الرجال الفحول .

قال الله تعالى [قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا] الآيات .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

أى : ولا يظن الذين كفروا بربهم ، ونابذوا دينه ، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم فى هذه الدنيا ، وعدم استئصالنا لهم ، وإملائنا لهم — خير لأنفسهم ، ومحبة منا لهم .

كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، وإنما ذلك لشر ، يريده الله بهم ، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ، ولهذا قال :

[إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين] :

فالله تعالى يملى للظالم ، حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كفرانه ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

فليحذر الظالمون من الإمهال ، ولا يظنوا ، أن يفوتوا الكبير المتعال .

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أى : ما كان فى حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط ، وعدم التمييز ، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق والصادق من الكاذب .

ولم يكن فى حكمته أيضاً ، أن يطلع عباده على الغيب الذى يعلمه من عباده :

فاقتضت حكمته الباهرة، أن يبتلى عباده ، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب ، من أنواع الابتلاء والامتحان .

فأرسل الله رسله ، وأمر بطاعتهم ، والانقياد لهم ، والإيمان بهم ، ووعدهم — على الإيمان والتقوى — الأجر العظيم .

فانقسم الناس — بحسب اتباعهم للرسل — قسمين :

مطيعين وعاصين ، ومؤمنين ومنافقين ، ومسلمين وكافرين .

ليرتب على ذلك الثواب والعقاب ، وليظهر عدله وفضله ، وحكمته لخلقه .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟

أى : ولا يظن الذين يبخلون ، أى : يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله ، من المال ، والجاه ، والعلم ، وغير ذلك ، مما منحهم الله ، وأحسن إليهم به ، وأمرهم ببذل مالا يضرهم منه لعباده ، فبخلوا بذلك ، وأمسكوه ، وضنوا به على عباد الله ، وظنوا أنه خير لهم ، بل هو شر لهم ، فى دينهم ودنياهم ، وعاجلهم وآجلهم ،

[سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة] أى : يجعل ما بخلوا به ، طوقا فى أعناقهم ، يعذبون به كما ورد فى الحديث الصحيح .

« إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة ، شجاعا أقرع ، له زبيبتان يأخذ بلهزميه يقول :

أنا مالك ، أنا كنزك » .

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك ، هذه الآية .

فهؤلاء حسبوا أن بخلهم ، نافعهم ، ومجد عليهم .

فانقلب عليهم الأمر ، وصار من أعظم مضارهم ، وسبب عقابهم .

[ولله ميراث السموات والأرض] أى : هو تعالى ، مالك الملك ، وترد جميع الأملاك إلى مالكها ، وينقلب العباد من الدنيا ، ما معهم درهم ولا دينار ، ولا غير ذلك من المال .

بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

قال تعالى [إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون] .

وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائى والسبب الغائى، الموجب كل واحد ، منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله .

أخبر أولا : أن الذى عنده وفى يده ، فضل من الله ونعمة ، ليس ملكا للعبد .

بل لولا فضل الله عليه وإحسانه ، لم يصل إليه منه شىء .

فمنعه ذلك ، منع لفضل الله وإحسانه .

ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى [وأحسن كما أحسن الله إليك] .

فمن تحقق أن ما بيده ، هو فضل من الله ، لم يمنع الفضل الذى لا يضره، بل ينفعه فى قلبه وماله ، وزيادة إيمانه ، وحفظه من الآفات .

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذى بيد العباد كله ، يرجع إلى الله ، ويرثه تعالى ، وهو خير الوارثين .

فلا معنى للبخل بشىء هو زائل عنك ، منتقل إلى غيرك .

ثم ذكر ثالثا ، السبب الجزائى فقال [والله بما تعملون خبير] .

فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعاً ــ ويستلزم ذلك ، الجزاء الحسن ، على الخيرات ، والعقوبات على الشر ــ لم يتخلف من فى قلبه مثقال ذرة من

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

إيمان ، عن الإنفاق الذى يجزى به الثواب ، ولا يرضى بالإمساك ، الذى به العقاب .

* يخبر تعالى ، عن قول هؤلاء المتمردين ، الذين قالوا أقبح المقالة ، وأشنعها ، وأسمجها .

فأخبر أنه قد سمع ما قالوه ، وأنه سيكتبه ويحفظه ، مع أفعالهم الشنيعة، وهو : قتلهم الأنبياء الناصحين ، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ، وأنه يقال لهم — بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء — [ذوقوا عذاب الحريق] المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة ، وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم فإنه [ليس بظلام للعبيد] فإنه منزه عن ذلك

وإنما [ذلك بما قدمت أيديهم] من المخازى والقبائح ، التى أوجبت استحقاقهم العذاب ، وحرمانهم الثواب .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ، نزلت فى قوم من اليهود ، تكلموا بذلك .

وذكروا منهم « فنحاص بن عازوراء » من رؤساء علماء اليهود فى المدينة .

۞ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي

وأنه لما سمع قول الله تعالى [من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا] [وأقرضوا الله قرضا حسنا] قال — على وجه التكبر والتجرؤ [1] هذه المقالة ، قبحه الله .

فذكرها الله عنهم ، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم ، بل قد سبق لهم من الشنائع ، ماهو نظير ذلك ، وهو : قتلهم الأنبياء بغير حق .

هذا القيد يراد به ، أنهم تجرأوا على قتلهم ، مع علمهم بشناعته ، لا جهلا وضلالا ، بل تمرداً وعناداً .

* يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين [إن الله عهد إلينا] أى : تقدم إلينا ، وأوصى ، أن لانؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

فجمعوا بين الكذب على الله ، وحصر آية الرسل بما قالوه ، من هذا الإفك المبين .

وأنهم إن لم يؤمنوا برسول ، لم يأتهم بقربان تأكله النار .

فهم — فى ذلك — مطيعون لربهم ، ملتزمون عهده .

وقد علم أن كل رسول يرسله الله ، يؤيده من الآيات والبراهين ، بما

---

(١) فى الأصل (والتجرهم) ولم أجد معنى هذه الكلمة فى المعاجم ولعلها تحريف ولذلك أبدلتها بكلمة (والتجرؤ) لأن المقام يقتضى ذلك .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

على مثله آمن البشر ، ولم يقصرها على ماقالوه ، ومع هذا ،فقد قالوا ، إفكا لم يلتزموه ، وباطلا لم يعملوا به .

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم :

[قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات] الدلات على صدقهم [وبالذى قلتم] بأن أتاكم بقربان تأكله النار [فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟] .

أى : فى دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار .

فقد تبين بهذا كذبهم ، وعنادهم ، وتناقضهم .

ثم بشر رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : [فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك].

أى : هذه عادة الظالمين ، ودأبهم ، الكفر بالله ، وتكذيب رسل الله .

وليس تكذيبهم لرسل الله ، عن تصور بما أتوا به ، أو عدم تبين حجة .

بل قد [جاءوا بالبينات] أى : الحجج العقلية ، والبراهين النقلية .

[والزبر] أى : الكتب المزبورة ، المنزلة من السماء ، التى لا يمكن أن يأتى بها غير الرسل .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

[والكتاب المنير] للأحكام الشرعية ، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية ، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة .

فإذا كان هذا عادتهم فى عدم الإيمان بالرسل ، الذين هذا وصفهم .

فلا يحزنك أمرهم ، ولا يهمك شأنهم .

ثم قال تعالى : [كل نفس ذائقة الموت] الآية .

☆ هذه الآية الكريمة ، فيها التزهيد فى الدنيا بفنائها ، وعدم بقائها ، وأنها متاع الغرور ، تفتن بزخرفها ، وتخدع بغرورها ، وتغر بمحاسنها .

ثم هى منتقلة ، ومنتقل عنها ، إلى دار القرار ، التى توفى فيها النفوس ، ماعملت فى هذه الدار ، من خير ، وشر .

[فمن زحزح] أى : أخرج [عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز] .

أى : حصل له الفوز العظيم ، بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم ، التى فيها ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ومفهوم الآية ، أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقى الشقاء الأبدى ، وابتلى بالعذاب السرمدى .

وفى هذه الآية ، إشارة لطيفة ، إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

يجزون فيه بعض الجزاء ، مما عملوه ، ويتقدم لهم أنموذج مما أسلفوه .

يفهم هذا من قوله [وإنما توفون أجوركم يوم القيامة] أى : توفية الأعمال التامة ، إنما يكون يوم القيامة .

وأما مادون ذلك ، فيكون فى البرزخ .

بل قد يكون قبل ذلك فى الدنيا كقوله [ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر] .

* يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين ، أنهم سيبتلون فى أموالهم ، من النفقات الواجبة والمستحبة ، من التعريض لإتلافها ، فى سبيل الله ، وفى أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة ، على كثير من الناس ، كالجهاد فى سبيل الله، والتعرض فيه للتعب ، والقتل ، والأسر ، والجراح، وكالأمراض التى تصيبه فى نفسه ، أو فيمن يحب .

[ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً] من الطعن فيكم ، وفى دينكم ، وكتابكم ، ورسولكم .

وفى إخباره لعباده المؤمنين بذلك ، عدة فوائد .

منها : أن حكمته تعالى ، تقتضى ذلك ، ليتميز المؤمن الصادق من غيره .

ومنها : أنه تعالى ، يقدر عليهم هذه الأمور ، لما يريده بهم من الخير

. . . .

ليعلى درجاتهم ، ويكفر من سيئاتهم ، وليزداد بذلك ، إيمانهم ، ويتم به إيقانهم .

فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر [قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما] .

ومنها : أنه أخبرهم بذلك ، لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع .

لأنهم قد استعدوا لوقوعه ، فيهون عليهم حمله ، وتخف عليهم مؤنته ويلجأون إلى الصبر والتقوى ، ولهذا قال :

[وإن تصبروا وتتقوا] أى: إن تصبروا على ما نالكم فى أموالكم وأنفسكم ، من الابتلاء ، والامتحان ، وعلى أذية الظالمين ، وتتقوا الله فى ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله ، والتقرب إليه ، ولم تتعدوا فى صبركم الحد الشرعى من الصبر فى موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال ، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله .

[فإن ذلك من عزم الأمور] أى : من الأمور التى يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى .

[وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد .

وهذا الميثاق أخذه الله تعالى ، على كل من أعطاه الله الكتب ، وعلمه العلم ، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ، ولا يكتمهم ذلك ، ويبخل عليهم به ، خصوصاً إذا سألوه ، أو وقع ما يوجب ذلك .

فإن كل من عنده علم ، يجب عليه فى تلك الحال ، أن يبينه ، ويوضح الحق من الباطل .

فأما الموفقون ، فقاموا بهذا أتم القيام ، وعلموا الناس مما علمهم الله ، ابتغاء مرضاة ربهم ، وشفقة على الخلق ، وخوفا من إثم الكتمان .

وأما الذين أوتوا الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ومن شابههم ، فنبذوا هذه العهود والمواثيق ، وراء ظهورهم ، فلم يعبأوا بها .

فكتموا الحق ، وأظهروا الباطل ، تجرؤا على محارم الله ، وتهاونا بحقوقه تعالى ، وحقوق الخلق ، واشتروا بذلك الكتمان ، ثمنا قليلا .

وهو : مايحصل لهم إن حصل ، من بعض الرياسات ، والأموال الحقيرة ، من سفلتهم المتبعين أهواءهم ، المقدمين شهواتهم على الحق .

[فبئس مايشترون] لأنه أخس العوض ، والذى رغبوا عنه — وهو بيان الحق ، الذى فيه السعادة الأبدية ، والمصالح الدينية والدنيوية — أعظم المطالب وأجلها .

أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

فلم يختاروا الدين الخسيس ويتركوا العالى النفيس ، إلا لسوء حظهم ، وهوانهم ، وكونهم لايصلحون لغير ما خلقوا له .

ثم قال تعالى [لاتحسبن الذين يفرحون بما أتو] أى : من القبائح ، والباطل القولى والفعلى .

[ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا] أى : بالخير الذى لم يفعلوه ، والحق الذى لم يقولوه .

فجمعوا بين فعل الشر وقوله ، والفرح بذلك ، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذى ما فعلوه .

[فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب] أى : بمحل نجوة منه وسلامة ، بل قد استحقوه ، وسيصيرون إليه ، ولهذا قال [ولهم عذاب أليم] .

ويدخل فى هذه الآية الكريمة ، أهل الكتاب الذين فرحوا بماعندهم من العلم ، ولم ينقادوا للرسول ، وزعموا أنهم ، المحقون فى حالهم ومقالهم .

وكذلك كل من ابتدع بدعة ، قولية أو فعلية ، وفرح بها ، ودعا إليها ، وزعم أنه محق وغيره مبطل ، كما هو الواقع من أهل البدع .

ودلت الآية بمفهومها ، على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير ، واتباع الحق ، إذا لم يكن قصده بذلك ، الرياء والسمعة ، أنه غير مذموم .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

بل هذا من الأمور المطلوبة ، التى أخبر الله أنه يجزى بها المحسنين ، فى الأعمال والأقوال ، وأنه جازى بها خواص خلقه ، وسألوها منه .

كما قال إبراهيم عليه السلام [واجعل لى لسان صدق فى الآخرين] .

وقال [سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين] .

وقد قال عباد الرحمن [**واجعلنا للمتقين إماماً**] وهى من نعم البارى على عبده ، ومننه التى تحتاج إلى الشكر .

* أى : هو المالك للسموات والأرض وما فيهما ، من سائر أصناف الخلق ، المتصرف فيهم ، بكمال القدرة ، وبديع الصنعة ، فلا يمتنع عليه منهم أحد ، ولا يعجزه أحد .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

يخبر تعالى [إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب] .

وفى ضمن ذلك ، حث العباد على التفكر فيها ، والتبصر بآياتها ، وتدبر خلقها .

وأبهم قوله [آيات] ولم يقل « على المطلب الفلانى » إشارة لكثرتها وعمومها .

وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ، ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين ، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية .

فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن مخلوقاً أن يحصره، ويحيط ببعضه. وفى الجملة ، فما فيها من العظمة والسعة ، وانتظام السير والحركة ، يدل على عظمة خالقها ، وعظمة سلطانه وشمول قدرته

وما فيها ، من الإحكام ، والإتقان ، وبديع الصنع ، ولطائف الفعل ، يدل على حكمة الله ، ووضعه الأشياء مواضعها ، وسعة علمه .

وما فيها من المنافع للخلق ، يدل على سعة رحمة الله ، وعموم فضله ، وشمول بره ووجوب شكره .

وكل ذلك ، يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها ، وبذل الجهد

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا

فى مرضاته ، وأن لا يشرك به سواه ، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره ، مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وخص الله بالآيات ، أولى الألباب ، وهم : أهل العقول ، لأنهم ، هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم ، لا بأبصارهم .

ثم وصف أولى الألباب بأنهم [يذكرون الله] فى جميع أحوالهم (١)

---

(١) قوله (في جميع أحوالهم) إيضاح ذلك أن يذكر المؤمن ربه فى جميع أحواله وأحواله : منحصرة فى ثلاث ، القيام ، والقعود والاضطجاع ، فالله تعالى ، امتدح المؤمنين الذين يذكرونه بالتسبيح والتحميد والتهليل فى جميع حالاتهم من قيام وقعود واضطجاع ولم يفرض الله على عباده هيئة خاصة لذكره بأنواع الأذكار ولا طهارة خاصة من وضوء وغسل ، بل ندب إليه ورغب فيه فى جميع الأحوال ، ومن نعم الله على عباده أن جعل آلة الذكر — الذى هو اللسان — عضواً لا يعتريه الملل ولا يصيبه التعب كبقية الجوارح فإن المرء تتعب يده بحمل شىء مهما كان خفيفاً وينقله من يد إلى أخرى وأما اللسان فليس كذلك ، فلذلك أخبر الرسول أن خير حالات المرء أن يكون لسانه رطباً من ذكر الله وأن أفضل حالاته عند فراقه هذه الدنيا ، أن يفارقها ولسانه رطب من ذكر الله .

فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[قياما وقعوداً وعلى جنوبهم] ، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب .

ويدخل فى ذلك ، الصلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع، فعلى جنب .

وأنهم [يتفكرون فى خلق السموات والأرض] أى : ليستدلوا بها على المقصود منها :

ودل هذا ، على أن التفكر عبادة ، من صفات أولياء الله العارفين .

فإذا تفكروا بها ، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون .

[ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك] عن كل ما لا يليق بجلالك ، بالحق وللحق ، بل خلقتها مشتملة على الحق .

[فقنا عذاب النار] بأن تعصمنا من السيئات ، وتوفقنا للأعمال الصالحات ، لننال بذلك ، النجاة من النار .

ويتضمن ذلك ، سؤال الجنة ، لأنهم — إذا وقاهم الله عذاب النار — حصلت لهم الجنة .

ولكن لما قام الخوف بقلوبهم ، دعوا الله بأهم الأمور عندهم .

[ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته] أى : لحصوله على السخط من الله ، ومن ملائكته وأوليائه ، ووقوع الفضيحة ، التى لا نجاة منها ، ولا منقذ منها .

. . . .

ولهذا قال : [وما للظالمين من أنصار] ينقذونهم من عذابه .

وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم .

[ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان] وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، يدعو الناس إليه ، ويرغبهم فيه ، فى أصوله وفروعه .

[فآمنا] أى : أجبناه مبادرة ، وسارعنا إليه .

وفى هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم ، وتبجح بنعمته ، وتوسل إليه بذلك ، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

والذى من عليهم بالإيمان ، يمن عليهم بالأمان التام .

[وتوفنا مع الأبرار] يتضمن هذا الدعاء ، التوفيق لفعل الخير ، وترك الشر ، الذى به يكون العبد من الأبرار ، والاستمرار عليه ، والثبات إلى الممات .

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان ، وتوسلهم به إلى تمام النعمة — سألوه الثواب على ذلك ، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله ، من النصر ، والظهور فى الدنيا ، ومن الفوز برضوان الله وجنته ، فى الآخرة فإنه تعالى ، لا يخلف الميعاد ، فأجاب الله دعاءهم ، وقبل تضرعهم .

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

فلهذا قال : [فاستجاب لهم ربهم] الآية .

أى : أجاب الله دعاءهم ، دعاء العبادة ، ودعاء الطلب وقال :

[أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى] .

فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفراً .

أى : كلكم على حد سواء فى الثواب والعقاب .

[فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا] .

فجمعوا بين الإيمان والهجرة ، ومفارقة المحبوبات ، من الأوطان ، والأموال ، طلباً لمرضاة ربهم ، وجاهدوا فى سبيل الله .

لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله] الذى يعطى عبده الثواب الجزيل ، على العمل القليل .

[والله عنده حسن الثواب] مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فمن أراد ذلك ، فليطلبه من الله بطاعته ، والتقرب إليه ، بما يقدر عليه العبد.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وهذه الآية ، المقصود منها ، التسلية عما يحصل للذين كفروا ، من متاع الدنيا ، وتنعمهم فيها ، وتقلبهم فى البلاد ، بأنواع التجارات ، والمكاسب ، واللذات ، وأنواع العز ، والغلبة فى بعض الأوقات ، فإن هذا كله [متاع قليل] ليس له ثبوت ولا بقاء ، بل يتمتعون به قليلا ، ويعذبون عليه طويلا ، هذه أعلى حالة تكون للكافر ، وقد رأيت ما تئول إليه .

وأما المتقون لربهم ، المؤمنون به — فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها [لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها] .

فلو قدر أنهم فى دار الدنيا ، قد حصل لهم كل بؤس ، وشدة ، وعناد ، ومشقة — لكان هذا — بالنسبة إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، والسرور والحبور ، والبهجة — نزراً يسيراً ، ومنحة فى صورة محنة ، ولهذا قال تعالى :

[وما عند الله خير للأبرار] وهم الذين برت قلوبهم ، فبرت أقوالهم وأفعالهم .

فأثابهم البر الرحيم من بره ، أجراً عظيما ، وعطاء جسيما ، وفوزاً دائماً .

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

أى : وإن من أهل الكتاب ، طائفة موفقة للخير ، يؤمنون بالله ، ويؤمنون بما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم .

وهذا هو الإيمان النافع ، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ، ويكفر ببعض .

ولهذا — لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً — صار نافعا ، فأحدث لهم خشية الله ، وخضوعهم لجلاله ، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه ، والوقوف عند حدوده .

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة ، كما قال تعالى :

[إنما يخشى الله من عباده العلماء] .

ومن تمام خشيتهم لله ، أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا .

فلا يقدمون الدنيا على الدين ، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلا .

وأما هؤلاء ، فعرفوا الأمر على الحقيقة ، وعلموا أن من أعظم الخسران ، الرضا بالدون عن الدين ، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية ، وترك الحق ، الذى هو : أكبر حظ وفوز ، من الدنيا والآخرة فآثروا الحق ، وبينوه ، ودعو إليه ، وحذروا عن الباطل .

فأثابهم الله على ذلك ، بأن وعدهم الأجر الجزيل ، والثواب الجميل .

ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

وأخبرهم بقربه ، وأنه سريع الحساب ، فلا يستبطئوا ما وعدهم الله . لأن ما هو آت ، محقق حصوله ، فهو قريب .

ثم حض المؤمنين ، على ما يوصلهم إلى الفلاح — وهو : الفوز بالسعادة والنجاح ، وأن الطريق الموصل إلى ذلك ، لزوم الصبر ، الذى هو حبس النفس على ما تكرهه ، من ترك المعاصى ، ومن الصبر على المصائب ، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس ، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك .

والمصابرة هى : الملازمة والاستمرار على ذلك ، على الدوام ، ومقاومة الأعداء فى جميع الأحوال .

والمرابطة وهو : لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون : يفوزون بالمحبوب الدينى والدنيوى والأخروى ، وينجون من المكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات .

فلم يفلح من أفلح ، إلا بها ، ولم يفت أحد ، الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» ، والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تم الجزء الأول من (تيسير الرحيم الرحمن ، فى تفسير القرآن)

عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى

ويليه الجزء الثانى وأوله تفسير « سورة النساء »

والحمد لله رب العالمين



فهرس

الجزء الأول